رحلات في القارة الأوروبية:

من روسيا البيضاء إلى روسيا الحمراء

مشاهدات وأحاديث عن المسلمين

بقلم

محمد بن ناصر العبودي

بسم الله الرحمن الرحيم

كتب مطبوعة في الرحلات للمؤلف

(١) في إفريقية الخضراء: مشاهدات وانطباعات وأحاديث عن الإسلام والمسلمين- بيروت، دار الثقافة، ١٣٨٨هـ/١٩٦٨م.

(٢) رحلة إلى جزر مالديف إحدى عجائب الدنيا- الرياض، دار العلوم، ١٤٠١هـ/١٩٨١م.

(٣) مدغشقر بلاد المسلمين الضائعين- الرياض، النادي الأدبي، ١٤٠١هـ/١٩٨١م.

(٤) جولة في جزائر البحر الزنجي أو حديث عن الإسلام والمسلمين في جزر المحيط الهندي- الرياض، المطابع الأهلية للأوفست، ١٤٠٢هـ/١٩٨٢م.

(٥) رحلة إلى سيلان- الرياض، جمعية الثقافة والفنون، ١٤٠٣هـ/١٩٨٢م.

(٦) صلة الحديث عن إفريقية مشاهدات وانطباعات وأحاديث عن الإسلام والمسلمين- نشرته دار العلوم في الرياض، ١٤٠٤هـ/١٩٨٤م.

(٧) مشاهدات في بلاد العنصريين، رحلة إلى جنوب إفريقية وحديث في شؤون المسلمين- نشره نادي القصيم الأدبي في بريدة، ١٤٠٤هـ/١٩٨٤م.

(٨) إطلالة على نهاية العالم الجنوبي- مكة المكرمة، نادي مكة الثقافي، ١٤٠٤هـ/١٩٨٤م.

(٩) زيارة لسلطنة بروناي الإسلامية- طبع بمطابع الرياض الأهلية للأوفست، عام ١٤٠٥هـ/١٩٨٤م.

(١٠) شهر في غرب إفريقية مشاهدات وأحاديث عن المسلمين- الرياض، المطابع الأهلية، ١٤٠٥هـ/١٩٨٤م.

(١١) في نيبال بلاد الجبال- رحلة وحديث في شؤون المسلمين- الرياض، مطابع الفرزدق، ١٤٠٥هـ/١٩٨٥م.

(١٢) رحـــلات في أمريكا الوسطى- المطابع الأهلية للأوفست في الرياض، ١٤٠٥هـ/١٩٨٥م.

(١٣) إلـــى أقصى الجنوب الأمريكي رحلة في الأرجنتين وتشيلي- الرياض، ١٤٠٧هـ/١٩٨٧م.

(١٤) علـــى ضـــفاف الأمازون، رحلة في المنطقة الاستوائية من البرازيل- نشره النادي الأدبي في أبها، ١٤١٠هـ/١٩٩٠م.

(١٥) علـــى قمـــم جـــبال الأنديز- الرياض، مطابع الفرزدق التجارية، ١٤١٠هـ/ ١٩٩٠م.

(١٦) في غرب البرازيل- الرياض، مطابع الفرزدق التجارية ١٤١٢هـ/١٩٩١م.

(١٧) فـــي بـــلاد المسلمين المنسيين: بخارى وما وراء النهر- طبع في مطابع الفرزدق التجارية عام ١٤١٢هـ/١٩٩١م.

(١٨) بقـــية الحديـــث عن إفريقية- مطابع الفرزدق التجارية، الرياض، ١٤١٢هـ/ ١٩٩١م.

(١٩) جولـــة فـــي جزائر البحر الكاريبي- مطابع الرياض الأهلية للأوفست، ١٤٠٧هـ/١٩٨٧م.

(٢٠) جولـــة فـــي جزائر جنوب المحيط الهادئ، مطابع الفرزدق، الرياض، ١٤١٠هـ/١٩٩٠م.

(٢١) داخـــل أســـوار الصين (مجلدان)- مطابع الفرزدق التجارية، الرياض، ١٤١٣هـ/١٩٩٢م.

(٢٢) بلاد الداغستان- طبع مطابع الفرزدق التجارية، الرياض، ١٤١٣هـ.

(٢٣) الرحلة الروسية- مطابع الفرزدق التجارية، الرياض، ١٤١٤هـ.

(٢٤) مـــع المســـلمين البولنديين- مطابع الفرزدق التجارية، الرياض، ١٤١٣هـ/ ١٩٩٢م.

(٢٥) جمهوريـــة أذربــيجان- طبع مطابع الفرزدق التجارية، الرياض، ١٤١٣هـــ/ ١٩٩٢م.

(٢٦) في أعماق الصين الشعبية- نشرته مجلة المنهل.

(٢٧) بيــن الأرغــواي والـــبارغواي- مطابع الفرزدق التجارية، الرياض، ١٤١٣هـــ/١٩٩٢م.

(٢٨) بورما الخبر والعيان- طبع ببيروت عام ١٤١٢هـــ.

(٢٩) مقال عن بلاد البنغال- طبع بالرياض عام ١٤١٤هـــ/١٩٩٣م.

(٣٠) ذكـــريات مـــن يوغسلافيا- مطابع الفرزدق التجارية، الرياض، ١٤١٤هـــ/ ١٩٩٣م.

(٣١) كنت في بلغاريا- مطابع الفرزدق التجارية، الرياض، ١٤١٤هـــ/١٩٩٣م.

(٣٢) فـــي جـــنوب الصـــين- طبعته رابطة العالم الإسلامي بمطبعتها في مكة المكرمة عام ١٤١٤هـــ.

(٣٣) كنت في ألمانيا- مطابع الفرزدق التجارية، الرياض، ١٤١٤هـــ.

(٣٤) ذكرياتي في إفريقية- محاضرة طبعتها رابطة العالم الإسلامي في مكة المكرمة.

(٣٥) أيام في النيجر- طبع ببيروت عام ١٤١٤هـــ.

(٣٦) على أرض القهوة البرازيلية- مطابع الفرزدق التجارية، الرياض، ١٤١٥هـــ.

(٣٧) نظـــرة فـــي شـــرق أوربا وحالة المسلمين بعد الشيوعية- طبع ببيروت عام ١٤١٤هـــ.

(٣٨) بيـــن غينـــيا بيســـاو وغينيا كوناكري- مطابع الفرزدق التجارية، الرياض، ١٤١٤هـــ.

(٣٩) من أنقولا إلى الرأس الأخضر- مطابع الفرزدق التجارية، الرياض، ١٤١٤هـ.

(٤٠) سياحة في كشمير- مطابع الفرزدق التجارية، الرياض، ١٤١٢هـ/١٩٩٢م.

(٤١) يوميات آسيا الوسطى- مطابع الفرزدق التجارية، الرياض، ١٤١٤هـ.

(٤٢) نظرة في وسط إفريقية- مطابع الفرزدق التجارية، الرياض، ١٤١١هـ/ ١٩٩١م.

(٤٣) بلاد القرم- نشرته دار القبلة في جدة.

(٤٤) قصة سفر في نيجريا (مجلدان)- مطابع الفرزدق التجارية، الرياض.

(٤٥) حديث قازاقستان- نشرته دار القبلة في جدة (تحت الطبع).

(٤٦) المسلمون في لاوس وكمبوديا: رحلة ومشاهدات ميدانية- نشرته رابطة العالم الإسلامي في سلسلة دعوة الحق، وطبعته في مطبعتها عام ١٤١٦هـ.

(٤٧) في جنوب الهند (من سلسلة الرحلات الهندية) طبع مطابع الفرزدق التجارية، الرياض، ١٤١٧هـ.

(٤٨) رحلات في أمريكا الجنوبية: غينيا وسورينام، مطابع التقنية في الرياض عام ١٤١٩هـ.

(٤٩) إطلالة على أستراليا- طبع في مطابع التقنية للأوفست- الرياض عام ١٤١٧هـ.

(٥٠) أيام في فيتنام- نشرته دار خضر للطباعة والنشر في بيروت عام ١٤١٧هـ.

(٥١) في غرب الهند (من سلسلة الرحلات الهندية) نشرته رابطة العالم الإسلامي، وطبعته في مطبعتها في مكة المكرمة، عام ١٤١٧هـ.

(٥٢) إطلالة على موريتانيا – نشرته دار خضر للطباعة والنشر في بيروت عام ١٤١٧هـ.

(٥٣) حديث قيرغيزستان، دراسة في ماضيها ومشاهدات ميدانية- نشرته دار خضر للطباعة والنشر في بيروت عام ١٤١٨هـ/١٩٩٧م.

(٥٤) زيارة رسمية لتايوان، نشر دار خضر للطباعة والنشر في بيروت عام ١٤١٨هـ/١٩٩٧م.

(٥٥) سطور من المنظور والمأثور عن بلاد التكرور- مطابع النرجس التجارية، الرياض، ١٤٢٠هـ/٢٠٠٠م.

(٥٦) راجستان: بلاد الملوك (من سلسلة الرحلات الهندية) مطابع الفرزدق التجارية، الرياض، ١٤١٧هـ/١٩٩٧م.

(٥٧) في شرق الهند (من سلسلة الرحلات الهندية) طبع في مطابع التقنية للأوفست في الرياض عام ١٤١٩هـ.

(٥٨) العودة إلى الصين (من سلسلة الرحلات الصينية) طبع في مطابع النرجس في الرياض عام ١٤٢٠هـ.

(٥٩) في شرق البرازيل، من سلسلة الرحلات البرازيلية- طبع في مطابع التقنية في الرياض عام ١٤١٩هـ.

(٦٠) هندوراس ونيكاراقوا وكوستاريكا (من سلسلة الرحلات في جمهوريات الموز) مطابع التقنية، الرياض، ١٤١٩هـ.

(٦١) من بلاد القرتشاي إلى بلاد القبرداي (من سلسلة الرحلات القوقازية) طبع في مطابع التقنية للأوفست، الرياض، ١٤٢٠هـ.

(٦٢) بلاد التتار والبلغار (من سلسلة رحلات الشمال) نشرته رابطة العالم الإسلامي، وطبعته بمطبعتها في مكة المرمة، ١٤٢٠هـ/١٩٩٩م.

(٦٣) بلاد الشركس: الإديغي- طبع مطابع التقنية، الرياض، ١٤٢٠هـ/١٩٩٩م.

(٦٤) مواطن إسلامية ضائعة- مطابع التقنية، الرياض، ١٤٢٠هـ/١٩٩٩م.

(٦٥) تائه في تاهيتي- طبعته مطابع التقنية، الرياض،١٤٢٠ هـ.

(٦٦) نظـرة إلى الفلبين بين زيارتين: رسمية وخاصة، مطابع النرجس، الرياض، ١٤٢٠هـ.

(٦٧) ذكريات من الاتحاد السوفيتي، مطابع النرجس، الرياض، ١٤٢٠هـ.

(٦٨) نظـرة إلى الوجه الآخر من الأرض أو رحلة إلى أبعد مكان: جولات في أقصى جزر المحيط الهادئ الجنوبي، طبع في مطابع التقنية، الرياض، ١٤٢٠هـ/١٩٩٩م.

(٦٩) إقليما سمارا وأستراخان (من سلسلة الرحلات في جنوب روسيا)، نشرته دار خضر للطباعة والنشر، بيروت، ١٤٢٠هـ/٢٠٠٠م.

(٧٠) في إندونيسيا أكبر بلاد المسلمين، طبع في مطابع النرجس، الرياض، ١٤٢٠هـ/١٩٩٩م.

(٧١) قرينادا وسانتالوسيا ودومنيكا (من سلسلة الرحلات الكاريبية) مطبعة العلا، الرياض، ١٤٢١هـ/٢٠٠٠م.

(٧٢) مشاهدات في تايلند، مطابع النرجس في الرياضن عام ١٤٢١هـ.

(٧٣) مع العمل الإسلامي في القارة الأسترالية، جولة وحديث في شؤون الإسلام، مطابع النرجس، الرياض، ١٤٢١هـ.

(٧٤) فطاني أو جنوب تايلند، مطابع المسموعة، الرياض، ١٤٢١هـ/٢٠٠٠م.

(٧٥) المستفاد من السفر إلى شاد، مطابع التقنية، الرياض، ١٤٢١هـ/٢٠٠٠م.

(٧٦) في جنوب البرازيل (من سلسلة الرحلات البرازيلية) مطابع التقنية، الرياض، ١٤٢١هـ/٢٠٠٠م.

(٧٧) شمال شرق الهند، رحلة في ولايتي بيهار وإترابراديش وحديث عن المسلمين، مطابع النرجس، الرياض، ١٤٢٢هـ/٢٠٠١م.

(٧٨) بلغاريا ومقدونيا (من سلسلة الرحلات في بلاد البلقان) طبع في مطابع العلا، الرياض، ١٤٢٢هـ/٢٠٠١م.

(٧٩) بلاد البلطيق، طبع في مطابع الجاسر، الرياض، ١٤٢١هـ/٢٠٠١م.

(٨٠) بيليز والسلفادور (من سلسلة الرحلات في جمهوريات الموز) طبع في مطابع العلا، الرياض، ١٤٢٢هـ/٢٠٠١م.

(٨١) (العودة إلى ما وراء النهر) جولة في آسيا الوسطى، وحديث عن شؤون المسلمين، طبع في مطابع المسموعة، الرياض، ١٤٢١هـ/٢٠٠١م.

(٨٢) (على سقف العالم) رحلة في التبت، وحديث في شؤون المسلمين، نشره نادي القصيم الأدبي، بريدة، ١٤٢٢هـ.

(٨٣) الإسلام والمسلمون في غرب إفريقية، أو بقية البقية من حديث إفريقية، طبع في مطابع النرجس، الرياض، ١٤٢٢هـ/٢٠٠١م.

(٨٤) بلاد العربية الضائعة (جورجيا) طبع في مطابع العلا، الرياض،١٤٢٣هـ/ ٢٠٠٢م.

(٨٥) الاعتبار في السفر إلى ماليبار (من سلسلة الرحلات الهندية)، نشره النادي الأدبي الثقافي في مكة المكرمة، ١٤٢٣هـ/٢٠٠٢م.

(٨٦) ذكريات من خلف الستار العقيدي، رحلة في شرق أوروبا وأحاديث في أحوال المسلمين، طبع في مطابع النرجس، الرياض،١٤٢٢هـ.

(٨٧) بالي، جزيرة الأحلام، طبع في مطابع النرجس، الرياض،١٤٢٣هـ/٢٠٠٢م.

(٨٨) غايتي من السفر إلى هايتي، طبع في مطابع النرجس، الرياض، ١٤٢٣هـ/ ٢٠٠٢م.

(٨٩) إلى جنوب الشمال: بلاد السويد، طبع في مطبعة العلا، الرياض، ١٤٢٣هـ.

(٩٠) وراء المشــرقين رحلــة حول العالم وحديث في أحوال المسلمين، طبع في مطابع النرجس، الرياض، ١٤٢٣هـ/٢٠٠٢م.

(٩١) إلمامــة بجــنوب الفلبين لحضور الاحتفال بافتتاح المباحثات السلمية بين الحكومة الفلبينــية وجبهة تحرير مورو الإسلامية، ومشاهدات أخرى، مطابع النرجس عام ١٤٢٤هـ/٢٠٠٣م.

(٩٢) رحلة هونغ كونغ وما كاو، طبع في مطابع النرجس، الرياض، ١٤٢٣هـ/٢٠٠٢م.

(٩٣) إلى أقصى الجنوب الإفريقي، مطابع النرجس، الرياض، ١٤٢٣هـ/٢٠٠٢م.

(٩٤) شمال سيبريا (من سلسلة الرحلات السيبرية) مطابع النرجس، الرياض.

(٩٥) فــوق سقف الصين: رحلة في الشمال الغربي من الصين، وحديث عن المسلمين، طبعته مطبعة العلا في الرياض، عام ١٤٢٤هـ/٢٠٠٣م.

(٩٦) إقلــيم أورنــبورغ (مــن سلسلة الرحلات في جنوب روسيا) طبع في مطابع العلا في الرياض، عام ١٤٢٤هـ/٢٠٠٣م.

(٩٧) إلــى إريــتريا بعد ٣٦ سنة، طبع في مطابع النرجس في الرياض عام ١٤٢٤هـ.

(٩٨) الشــرق الشــمالي مــن الــبرازيل: رحلة في ولايات: برنانبوكو وريوقراندي دي نورتي وبارايبا (من سلسلة الرحلات البرازيلية).

(٩٩) مــن غينــيا الإســتوائية إلــى ســاو تومي: رحلات في القارة الإفريقية، مطابع النرجس في الرياض عام ١٤٢٤هـ/٢٠٠٣م.

(١٠٠) مــن روســيا البيضــاء إلى روسيا الحمراء (رحلات في القارة الأوروبية) (وهو هذا الكتاب).

(١٠١) في غرب أستراليا (من سلسلة الرحلات الأسترالية) (تحت الطبع).

مؤلفاته المطبوعة في غير فن الرحلات

(١٠٢) معجم بلاد القصيم (في ستة مجلدات)-نشرته دار اليمامة بالمطابع الأهلية للأوفست، الرياض، ١٣٩٩هـ، ثم طبع مرة أخرى في عام ١٤١٠هـ.

(١٠٣) أخبار أبي العيناء اليمامي- طبع في الرياض وبيروت عام ١٣٩٨هـ.

(١٠٤) الأمثال العامية في نجد (خمسة مجلدات) ساعدت دارة الملك عبدالعزيز في الرياض على طبعه، ونشرته دار اليمامة للطبع والنشر عام ١٣٩٨هـ.

(١٠٥) كتاب الثقلاء- نشرته الجمعية العربية السعودية للثقافة والفنون في سلسلة الكتاب السعودي.

(١٠٦) نفحات من السكينة القرآنية- طبع أكثر من مرة آخرها طبعة لوزارة المعارف لتوزيعها على مكتبات المدارس- نشرته دار العلوم، الرياض، ١٤٠٣هـ.

(١٠٧) مأثورات شعبية- نشرته الجمعية العربية السعودية للثقافة والفنون في سلسلة الكتاب السعودي.

(١٠٨) سوانح أدبية- طبع مطابع الفرزدق التجارية، الرياض، ١٤٠٥هـ.

(١٠٩) صور ثقيلة- مطابع الفرزدق التجارية، الرياض، ١٤٠٥هـ.

(١١٠) العالم الإسلامي والرابطة- نشرته رابطة العالم الإسلامي، وطبع في مطبعتها في مكة المكرمة، ١٤١٤هـ.

(١١١) نظرة إلى العلاقات العربية مع أهالي جنوب الصحراء، مطابع التقنية، الرياض، ١٤١٨هـ/١٩٩٧م.

(١١٢) المقامات الصحراوية- مطابع التقنية، الرياض، ١٤١٨هـ/١٩٩٧م.

(١١٣) مساعدات المملكة العربية السعودية للمسلمين، وبخاصة الأقليات المسلمة- بمناسبة مرور مائة عام على تأسيس المملكة العربية السعودية- نشرته لجنة الاحتفال بمرور مائة عام على التأسيس، وطبعته في مطابع الناشر العربي، الرياض، ١٤١٩هـ.

(١١٤) كلمات عربية لم تسجلها المعاجم، أحد بحوث المؤتمر الثاني للأدباء السعوديين، نشرته جامعة أم القرى، مكة المكرمة، ١٤٢٠هـ.

(١١٥) المملكة العربية السعودية بين الماضي والحاضر (لمناسبة مرور مائة عام على تأسيس المملكة)- نشرته رابطة العالم الإسلامي، وطبعته في مطابعها في مكة المكرمة، ١٤١٩هـ.

(١١٦) مدلولات كلمات قضى عليها حكم الملك عبدالعزيز، نشرته الجمعية العربية السعودية للثقافة والفنون (لمناسبة مرور مائة عام على تأسيس المملكة العربية السعودية).

(١١٧) رابطة العالم الإسلامي إحدى القنوات السعودية لمساعدة المسلمين- نشرته رابطة العالم الإسلامي، وطبعته في مطبعتها بمكة المكرمة، ١٤٢٠هـ/ ١٩٩٩م.

(١١٨) الدعاة إلى الله: شرف مهمتهم، وطرق دعمهم، نشرته رابطة العالم الإسلامي، وطبعته في مطبعتها في مكة المكرمة، ١٤٢٠هـ.

(١١٩) واجب المسلم في بلاد الأقليات، نشرته رابطة العالم الإسلامي، ١٤٢٠هـ/ ٢٠٠٠م.

(١٢٠) (العالم الإسلامي: واقع وتوقعات) نشرته مجلة (العربية) التي تصدر في الرياض مصاحباً لعدد ذي الحجة ١٤٢٠هـ منها.

(١٢١) الدعوة الإسلامية وإعداد الدعاة، طبعته مطابع الجاسر، الرياض، ١٤٢١هـ/٢٠٠١م.

(١٢٢) (حِكَمُ العوام)، طبعت في مطابع الجاسر، الرياض، ١٤٢١هـ/٢٠٠١م.

(١٢٣) في لغتنا الدارجة: كلمات قضت، (كتاب لغوي) طبعته بنفقتها ونشرته ضمن منشوراتها دارة الملك عبدالعزيز، الرياض، في أربعة مجلدات.

(١٢٤) حكايات تحكى (قصص)، نشره نادي القصيم الأدبي في بريدة، عام ١٤٢١هـ.

(١٢٥) أثر الأقليات المسلمة في الدعوة الإسلامية، نشرته رابطة العالم الإسلامي، وطبعته في مطبعتها في مكة المكرمة، ١٤٢٣هـ/٢٠٠٢م.

(١٢٦) الكناية والمجاز في اللغة العامية، نشرته مجلة الدرعية التي تصدر في الرياض، ١٤٢٣هـ.

(١٢٧) أماكن قديمة العمارة في القصيم، نشرته مكتبة العبودي في بريدة لصاحبها صالح بن عبدالله العبودي.

المقدمة:

الحمـــدلله رب العالميـــن، الذي أنعم علينا بهذا الدين الإسلامي الذي بلغـــه سيد المرسلين وخاتم النبيين، محمد بن عبدالله صلى عليه الله وعلى آله وصحبه ومن اتبع هداه.

أمـــا بعـــد: فهذا كتيب كتبته في عجل خلال زيارة قمت بها إلى جمهوريـــة روسيا البيضاء، ومنها انتقلنا إلى جمهورية روسيا الاتحادية التـــي كـــان لقـــبها (روسيا الحمراء) منذ أن اعتنق المسيطرون عليها الشـــيوعية، وجعلـــوا شعارها اللون الأحمر، وحتى قبل ذلك كان اللون الأحمـــر مفضلاً عند سكانها حتى كان الميدان الشهير في موسكو اسمه بالروســـية المـــيدان الأحمـــر أو الميدان الجميل فتسميته تدل في اللغة الروسية على هذين المعنيين.

لقد سافرت هذه المرة إلى بلاد الروس على رأس وفد من رابطة العـــالم الإســـلامي التـــي أشغل فيها الآن وظيفة الأمين العام المساعد مؤلـــف مـــن أخوين كريمين معي هما الأستاذ حسن بن علي ازميرلي والأستاذ رحمة الله بن عناية الله، وكنا نؤمل أن نجد وقتاً أطول للرحلة فـــنزور أنحـــاء واســـعة من جمهورية روسيا الاتحادية، ولكن الوقت داهمـــنا إذْ كـــنا قـــبل زيارتها في زيارة لدول البلطيق الثلاث (لتوانيا ولاتفـــيا واستونيا) أخذت منا جزءاً من الوقت لأننا سافرنا خلالها كلها بالسيارة ولم نستعمل الطائرة في تنقلنا بينها، وقد قصصت قصة السفر فيها في كتاب: (بلاد البلطيق).

ولذلك لم نطل المكث في روسيا الاتحادية بعد روسيا البيضاء، وإنما سافرنا من موسكو لبلاد مسلمة عريقة في إسلامها بل في أمجادها الإسلامية هي جمهورية تتارستان التي عاصمتها قازان، إذْ كانت لهذه البلاد المسلمة في التاريخ غير البعيد السيطرة على المنطقة كلها، ومنها بلاد الروس التي كانت خاضعة لها ومحكومة منها حكماً مباشراً بعضها وحكماً غير مباشر لبعضها الآخر بحيث كان هذا القسم الذي لا تحكمه حكماً مباشراً لا يكون حاكمه معترفاً بحكمه عند أهل البلاد الروس إلا إذا صدق على تنصيبه سلطان المسلمين في قازان الذي كان يسمى الخان في ذلك الوقت.

فكان حاكم موسكو وما حولها إذا اختاره أهلها، أو تولى الحكم بوراثة أو نحوها لا يكون حكمه نافذاً حتى يصدر بذلك مرسوم من سلطان المسلمين في قازان يقرأه مبعوث للسلطان في قصر الكرملين، وقد يأتي نقل شيء من ذلك عند الوصول إلى موسكو.

وقد ضرب الدهر ضرباته وأهم ضربات الدهر ما فعله المسلمون بأنفسهم من الشقاق والاختلاف والقتال فيما بينهم، والاستعانة بالأعداء على المسلمين لهوى في النفوس، وأغراض في السياسة فكان ذلك سبباً لزوال ملك المسلمين، بل لهوانهم هناك حتى الآن، **﴿إنَّ الله لا يُغَيِّرُ مَا بِقَوْمٍ حَتَّى يُغَيِّرُوا مَا بِأَنْفُسِهِمْ وَإِذَا أَرَادَ اللَّهُ بِقَوْمٍ سُوءاً فَلا مَرَدَّ لَهُ﴾** صدق الله العظيم.

وجمهورية تتارستان واقعة الآن فيما يسمى (قلب روسيا)، وكان قلب بلاد المسلمين أو هو طرف عزيز من أطراف بلادهم، ولذلك يصح

أن يكون الكلام عليها كلاماً عن جمهورية روسيا الاتحادية، إذا نظرنا إلـــى الواقـــع الحالـــي المعترف به دولياً، بل إذا نظرنا إلى واقع البلاد نفســـها التي كثرت هجرة غير المسلمين إليها من الروس والأوكرانيين والـــروس البيض، ومن لف لفهم، وجدنا أنهم صاروا يساوون في العدد فيها عدد المسلمين.

غـــير أن الكلام فيها طال حتى صار كتاباً آخر قائماً بنفسه، عنوانه (بلاد التتار والبلغار) ولذلك قصر الحديث عن روسيا كما يقصر فيها الليل عـــن النهار في الصيف وكما يقصر فيها النهار عن الليل في الشتاء ولله الأمر كما يشاء.

المؤلف

محمد بن ناصر العبودي

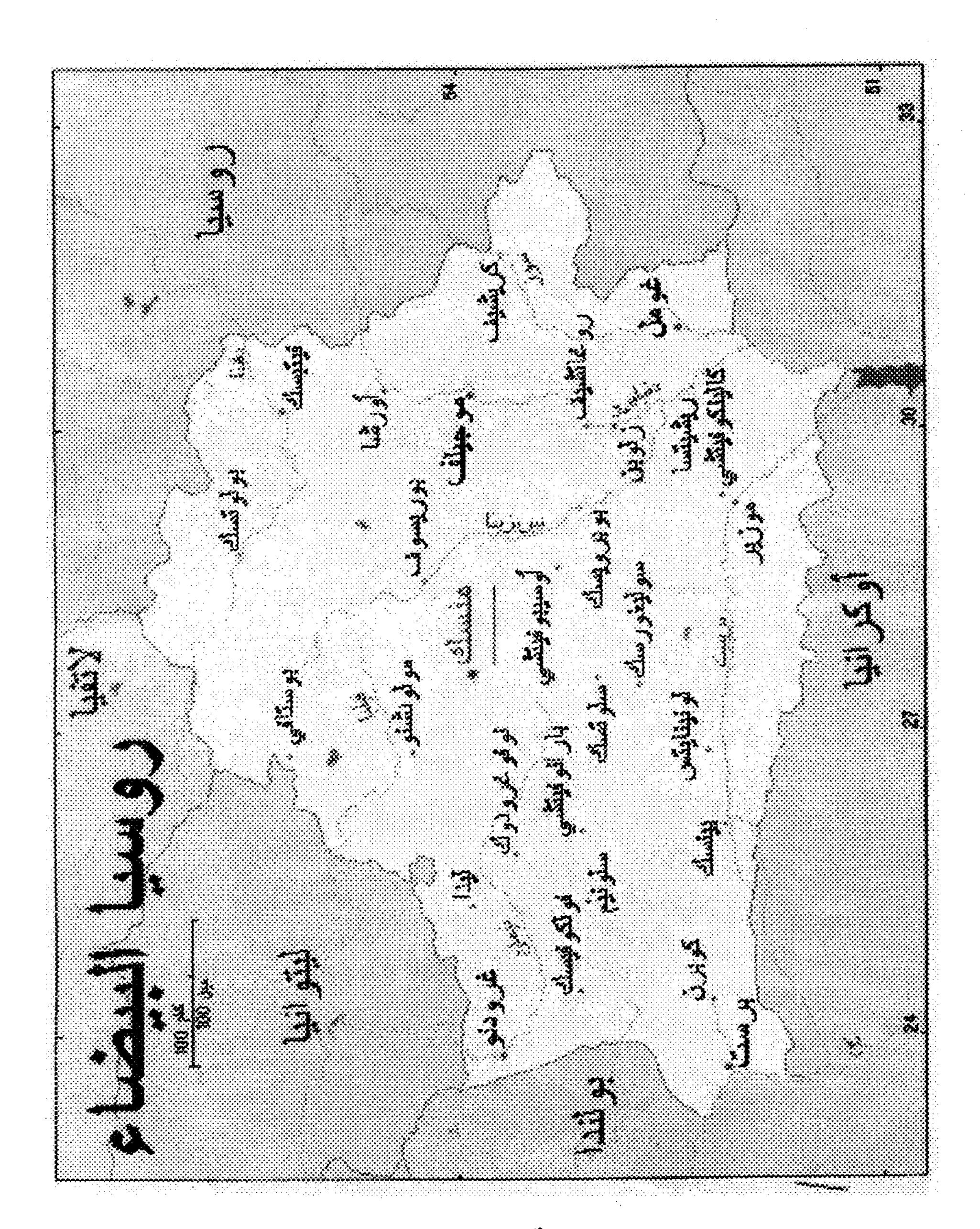

خريطة روسيا البيضاء

روسيا البيضاء Byelorussia

تقـــع جمهوريـــة روسيا البيضاء في غرب روسيا وشرق بولندا في شـــمال شرق أوروبا وتبلغ مساحتها ٢٠٧٦٠٠ كم٢ وتغطي ثلث أرضها الغابـــات والأحراش وتمتد هضاب متوسطة الارتفاع في الشمال الشرقي والجـــنوب الغربـــي وتنتشـــر فيها أنهار عديدة أهمها دفينا الغربية ونمان وبرزينا ودنيبر.

وبلـــغ عدد سكان روسيا البيضاء ١٠,٣٧٣,٠٠٠ نسمة عام ١٩٩٢م ويتكون السكان من العناصر الآتية:

الروس البيض	٧٩,٤./.
الروس	١١,٩./.
البولنديون	٤,٢./.
الأوكرانيون	٢,٤./.
اليهود	١,٤./.

والديانة السائدة هي الأرثوذكسية والكاثوليكية.

ويقـــوم اقتصاد روسيا البيضاء على الصناعة إذ فيها أكثر من مائة صـــناعة مـــنها صـــناعة سيارات الشحن والتركتورات وتكرير البترول والبتروكيماويات والسماد.

ومن محاصيلها الزراعية القمح والكتان والبنجر ويبلغ عدد المواشي فيها ٦,٣ مليون راس.

وســـبب تســـميتهم بالروس البيض قيل: إنه لكون نسائهم يلبسن ثياباً

بيضا طويلة، وقيل لبياض في بشرتهم، أي ألوانهم أكثر من بياض الروس الشرقيين الذين تغلب الحمرة عليهم.

مع أن الروس البيض شعب ينتمي إلى السلاف الشماليين ويتحدثون لهجة تختلف عن الروسية تسمى الآن (البيلوروسية) لا يعرفها بعضهم لأن اللغة الرسمية كانت هي الروسية، بل هي المستعملة في الكتابة.

كانت بلاد روسيا البيضاء مقسمة بين ليتوانيا وبولندا في العصور الوسطى، واحتلت روسيا أجزاء خلال حروبها التي بدأت مع بولندا عام ١٥٠٣ ثم أصبحت جزءاً من الاتحاد السوفيتي عام ١٩٢٢ ثم احتلها الألمان عام ١٩٤١ وبعد هزيمة ألمانيا في الحرب العالمية الثانية اقتطع الاتحاد السوفيتي شمال شرق بولندا وضمه إلى روسيا البيضاء وهكذا تكونت روسيا البيضاء التي أعلنت استقلالها بعد انهيار الاتحاد السوفيتي في ١٩٩١/٨/٢٥م.

ورغم شعورهم بكونهم من الروس السلافيين فإنهم يكرهون الاستعمار، ولذلك يحافظون على استقلالهم مع حاجتهم الماسة من الناحية الاقتصادية إلى روسيا، وبخاصة في ميدان الطاقة التي صاروا لا يستطيعون الحصول عليها إلا بالعملة الصعبة التي يعسر عليهم الحصول عليها.

وكانت جمهورية بيلاروسيا (روسيا البيضاء) تقع في الجزء الشمالي الغربي من الاتحاد السوفيتي السابق وتحدها دول: روسيا الاتحادية، أوكرانيا، ليتوانيا، لاتفيا، وبولندا.

اللغات الرسمية للدولة: البيلاروسية، والروسية.

عاصمتها: مينسك التي يبلغ عدد سكانها مليونين من النفوس.

اشتهر الشعب البيلاروسي بهدوئه الشديد وحبه للعمل، ولا يوجد لديه أي عنصرية.

تضـــررت بيلاروسيا كثيراً من الحرب العالمية الثانية وضحت بـــ ٢,٥ ملـــيون مـــن مواطنيها، ودمرت تماماً، ولذلك تعتبر كل مدنها جديدة بالمقارنة مع مدن الاتحاد السوفيتي السابق.

والحالة الاقتصادية للجمهورية غير جيدة ويبلغ متوسط الأجور ٧٠ دولاراً شـــهرياً، ويعمـــل كثـــير من السكان في الزراعة لسد حاجتهم من الخضروات والفواكه وبيع الفائض منها.

الـــنظام السياسي للجمهورية رئاسي- برلماني، ولرئيس الجمهورية صلاحيات واسعة.

المسلمون في روسيا البيضاء:

يعتبر المسلمون التتار من الطوائف المهمة في المجتمع البيلاروسي التـــي لعبــت دوراً مهماً في تاريخ بيلاروسيا (روسيا البيضاء) حيث إنهم كانوا في هذه البلاد منذ نحو ٦٠٠ عام واشتهروا خلال هذه المدة بالأمانة والصـــدق وحب العمل، كما كان لهم دور كبير في الحرب العالمية الثانية عندما تعرضت بلادهم للغزو النازي من قبل أوروبا الهتلرية.

يشـــكل المسلمون في الوقت الحالي أقل من ٠.١٪ من مجموع سكان روســيا البيضـــاء، ويشـــكل التتار المسلمون أكثريتهم، وهم أكثر تنظيماً بالمقارنة بالمسلمين من الفئات الأخرى، ويبلغ عدد المسلمين التتار خمسة عشـــر ألفـــاً، وهناك عشرة آلاف من قوميات غير التتار ومن الذين كانوا رعايا للاتحاد السوفيتي السابق كأهل أسيا الوسطى وبلاد القوقاز.

ويوجـــد للمسلمين في الوقت الحاضر ٢٥ جمعية دينية موزعة في أنحاء بيلاروسيا المختلفة، منها ١٩ مسجلة تسجيلاً رسمياً، وتنضوي هذه الجمعـــيات تحـــت لـــواء الإدارة الدينية في مينسك التي يرأسها إسماعيل مصـــطفى الكسندروفتش، وهو مهندس مدني متقاعد- نشيط يحب الإسلام ويعمل له كل ما في طاقته.

ويقـــوم بمســـاعدته ٩ من أعضاء الإدارة الدينية، كما توجد جمعية ثقافـــية للســـلمين التـــتار تسمى (الكتاب) ويرأسها أبوبكر شعبان- مدير مدرســـة متوســـطة حكومـــية- وهو رئيس تجمع الأقليات ومساعد وزير التعليم لشئون الأقليات.

وكثـــير مـــن المسلمين من الطبقة المثقفة، وبالأخص في العاصمة مينسك

حيث يوجد منهم الاطباء والمهندسون والمحاضرون في الجامعات والمعاهد البيلاروسية، وفي مختلف التخصصات، كما نجد اشتغال أهل القرى من المسلمين بالزراعة، كما هو الحال في جميع أنحاء روسيا البيضاء.

الغالبية العظمى من المسلمين بعيدون كل البعد عن فهم الإسلام والعمل به، وإن كانوا قد حافظوا على هويتهم طوال الفترة الماضية من التسلط الشيوعي، كما يعود جهلهم بالإسلام لقلة عدد المساجد في روسيا البيضاء حيث يوجد مسجد واحد فقط تقام فيه الصلوات في بلدة ايفيا تركته السلطات السوفيتية ليكون متحفاً.

بدأ العمل الإسلامي في هذه البلاد في نهاية ١٩٩٢ وبداية ١٩٩٣، وكان التركيز على مدينة مينسك في البداية ثم انطلق ليشمل كل المناطق وينحصر العمل الإسلامي في الآتي:

- تأسيس وتنظيم وتسجيل الجمعيات الدينية في مناطق تواجد المسلمين في أنحاء الجمهورية.
- تأسيس مدارس الأحد في مناطق تواجد المسلمين لتدريس الدين الإسلامي واللغة العربية (عددها في الوقت الحاضر سبع ويقوم بالتدريس فيها طلاب عرب).
- تنظيم الدورات والمخيمات الدعوية للأطفال والشباب.
- إصدار مجلة شهرية وهي (مجلة الإسلام) باللغة الروسية.
- تنظيم القوافل الدعوية والطبية.
- تنظيم المؤتمرات الإسلامية.

- تنظيم مشاريع "إفطار صائم" و"مشاريع الأضاحي".
- توزيع وترجمة الكتب.
- إحياء المناسبات الإسلامية.
- إيجاد ممولين لبناء المساجد والمراكز الثقافية.
- وليس للجمعية مقر دائم أو مستأجر.

هذا وسوف تأتي في اليوميات أحاديث وكلمات عديدة توضح أحوال المسلمين الحاضرة نتيجة لمشاهدتنا ذلك على الطبيعة، كما سيأتي الحديث عن المساجد التي استعادوها والتي يسعون إلى استعادتها بإذن الله.

كما سيأتي حديث لمفتي روسيا البيضاء عن أحوال المسلمين فيها في الوقت الحاضر آثرنا إبقاءه في محله محافظة على طابع المشاهدات والأحاديث المتعلقة بها في الكتاب.

يوم الجمعة: ١٤١٥/٤/١١هـ- ١٩٩٤/٩/١٦م:

الطريق إلى روسيا البيضاء:

ذهبـــنا إلى مطار (تالين) عاصمة جمهورية استونيا للسفر منه إلى منسك عاصمة روسيا البيضاء، ولم نره في القدوم لأننا كنا قدمنا إلى تالين بالطريق البري من ريقا.

ومن انفراداتهم فيه أن كل موظفة من موظفات الترحيل في المطار قد وضعت منديلاً حريرياً خفيفاً على أعلى كتفيها قد ربطته بمشبك.

والشيء الغريب أننا وجدنا صفاً طويلاً من مكاتب الترحيل ربما كان ثمانية مكاتب، وليس عليها أي راكب واحد، أي أن كل من مكاتب لا تعمل الموظفـــات فـــيها وإنما ينتظرن من يجيء من الركاب رغم كون رحلتنا وحدها قريبة الإقلاع.

والشــــيء الثانـــي الذي لم نتوقعه أن الموظفة عند ما رأت تذاكرنا ســـعودية، ولم تكن رأت مثلها من قبل كلمت مرافقنا الأخ علي خراسوف قائلـــة: إنها ستذهب إلى الإدارة تسألهم عن صحة هذه التذاكر، فذهبت مع أخرى إلى داخل المكاتب ثم عادت تقول: إنها صحيحة.

وكذلـــك الأمـــر بالنســـبة إلى جوازاتنا فقد صارت الموظفات يري بعضـــهن بعضـــاً جوازاتـــنا استغراباً لها، ولكن ذلك كله كان بأدب جم، وتصرف لائق.

وقلت للموظفة أرجو أن يكون مقعدي بجانب النافذة لأنني أسلك هذا الطريق لأول مرة وأريد أن أراه من الطائرة فذكرت أنه لا يوجد أرقام في مقاعد الطيارة ولم أكن عرفت نوع الطيارة.

ثــم ودعنا المرافقين ومنهم الأخ (ولي الله فاتح أوغلو) وعمره ٧٣ سنة ولكنه نشيط، وقد حج في عام ١٩٩١م ضمن الحجاج الذين أمر خادم الحرمين الشريفين باستضافتهم عندما تيسر لهم الحج لأول مرة، وذكر أن حجه كان عن طريق موسكو إلى جدة، إلا أن اللافت للنظر أن عدد الذين حجوا من استونيا لا يزيد حتى الآن على أربعة أشخاص.

وقــد تكرر ما رأيناه في هذه المنطقة البلطيقية من قبل وهو منظر امرأة ذات شعر أسود، فكان منظر شعرها غريباً وسط هذا الجو الأبيض الأشــقر الشــعر، ومــا شبهت منظرها هنا إلا بمنظر المرأة ذات الشعر الأصفر في بلادنا في إلفات النظر.

دخلنا إلى منطقة المغادرة وهي صغيرة حتى البوابة التي ذكروا أن طائرتــنا ســتطير منها وهي بوابة تفضي إلى دهليز من الأسمنت المسلح الثابت بارز من المبنى تقف عنده الطيارة لكي يدخل منه الركاب إليها.

وهــذا فــيه خطــر كبير على الطائرة إذا ربما اصطدم به جناحها، بخــلاف الدهاليز المعتادة التي هي متحركة تقترب من الطائرة إذا وقفت حتى تلاصقها.

وحــتى بوابــة الخروج كانت غريبة في صغرها إذ ليس في القاعة التي تسبقها التي يجتمع فيها الركاب في العادة إلا ١٢ كرسياً كان نصيب العــرب منها ثلثها إذ وجدنا عربياً وهو أخ فلسطيني قادم من السويد ذكر أنــه يقيم الآن في أوكرانيا لأنه كان قدم للاتحاد السوفيتي في الأصل من أجــل الدراســة ثــم بقي يعمل في التجارة فيه، وفيما بينه وبين الأقطار المجــاورة له وهــو شاب ومع ذلك ذكر أنه ولد في البرازيل وعاش في

بلـــدان عديـــدة منها السويد، بحيث أنه صار يعرف اللغة السويدية ولكنه يقول: إنه لن يستقر الاستقرار النهائي إلاّ في فلسطين.

ولم يكن الحديث يسمع في هذه القاعة الصغيرة عند بوابة المغادرة من مطار استونيا القصي إلا بالعربية إذ كان بقية الركاب وهم قلة صامتين.

ثـــم نـــادوا علينا بالخروج من دون مكبر للصوت فركبنا حافلة كبيرة ونحن ١٢ وهم جميع الركاب فوجدنا الطائرة نفاثة روسية صغيرة أظنها من نـــوع (باك) ومدخلها من خلفها حيث تكون رائحة المحركين غالبة- كما هي العـــادة فـــي الطائرات الروسية الصغيرة وهي بهذا تشبه طيارة (دي سي٩) التي أوقف صنعها في البلدان الغربية، وأوقفنا نحن استعمالها منذ دهر.

وفوجئـــنا بصـــغر الطـــيارة لأننا وجدنا أنه ليس فيها إلا ٢٤ مقعداً موضـــوعة فـــي ٨ صـــفوف من المقاعد في الجهة اليمنى مقعدان وفي اليسرى مقعد واحد وبينهما ممر.

ومع ذلك لم يكن فيها إلا نصف مقاعدها مشغولاً.

وجدنا في الطائرة مضيفة جميلة رقيقة من أهل البلاد الأصلاء الذين يتمـــيزون بمـــا ذكـــرته، فوقفـــت المضـــيفة أمام الركاب وصارت تعلن المعلومات عن الرحلة من دون مكبر للصوت لقلتهم وصغر الطائرة، فكان ممـــا قالـــته: إن المســـافة إلى منسك عاصمة روسيا البيضاء هي ٧٣٠ كيلومتر سوف تقطعها طائرتنا في ساعتين إلا ثلثاً على وجه التقريب.

والطائـــرة تابعـــة لشركة (استونيا اير) وقد ركبنا في الصف الأول حيث شغلناه كله ونحن ثلاثة.

وداعاً يا جنس البلطيق:

لم أجد تعريفاً بهذه الشعوب الثلاثة التي تقطن على شاطئ بحر البلطيق إلا بأن أسميها (جنس البلطيق) مع أن البلطيق بحر واسع نسبياً تقع عليه عدة بلدان تؤلف شعوباً أخرى متميزة عنها مثل السويديين والفلنديين فضلاً عن الدانيمركيين، وإنما فعلت لأنني رأيت هذه الشعوب الصغيرة الثلاثة التي هي اللتوانيون واللاتفيون والاستونيون يجتمعون في أشياء ويفترقون في اشياء كثيرة والذي يهم الغريب مثلنا هو ما اجتمعوا عليه من حسن المعاملة للغريب، ومن جمال المنظر وتيسير الإجراءات للمسافر، وخدمته الخدمة التي تتسم بالذوق وتبتعد عن التعالي والترفع، الذي اشتهر به بعض الأوروبيين الذين كان لهم ماضٍ استعماري جعلهم يشعرون بالتفوق على الآخرين لأن هؤلاء الأقوام البلطيقيين أو لنقل من الجنس البلطيقي ليس لهم مثل ذلك مما جعلني أقول والطائرة تتحرك من مجثمها في المطار: وداعاً يا جنس البلطيق.

مغادرة تالين:

أقلعت هذه الطائرة الصغيرة من مطار تالين في الثانية عشرة إلا الربع قبل الظهر متأخرة ربع ساعة عن الموعد المحدد في الأصل لقيامها الذي كان في الحادية عشرة والنصف.

ولاحظت كثرة الطائرات الواقفة أو المتوقفة في هذا المطار، وهي طائرات ورثوها من الاتحاد السوفيتي السابق الذي كان يملك طائرات مدنية كثيرة نال كل جمهورية من جمهورياته حتى الصغير منها نصيباً كبيراً من هذه الطائرات غير أن أكثرها متوقف عن العمل بسبب

اضــطراب الإدارة في روسيا التي كانت مركز الاتحاد السوفيتي بعد أن تخلى أهلها عن الشيوعية وساروا في طريق الاقتصاد الحر.

حلقــت طائرتنا فوق مدينة تالين التي تعد ستمائة ألف من السكان، فاتضـــح منظرها من الجو واسعة منتشرة بل منشورة في مساحات واسعة تتخللها المناطق الخضر حتى بالقرب من وسطها الحديث، ومن ذلك عدة حدائق رسمية ومنطقة محمية من الغابات الطبيعية العذراء.

وأنــا أحمــل فــي ذهني رغم قصر إقامتي فيها صورة جميلة من معاملة أهلها ومن حسن تصرف المسئولين فيها الذين عرفناهم في الفنادق ومراكز الحدود البرية، إلى جانب الجمال الذي أودعه الله في أشياء كثيرة فيها من أهمها وابرزها جمال الخلقة في الوجوه والألوان.

وظهر شاطئ بحر البلطيق أخضر بل كثيف الخضرة ولك أن تعجب من شاطئ بحري أخضر إذا كنت مثلنا رأيت البحار ذات الشواطئ الجرد التــي لا ينبــت فيها شجر لكثرة ما ينثره البحر عليها من أملاح ولقلة ما تجود به السماء عليها من مطر.

أمــا فــي هذه البلاد المطيرة فإن الأمطار الغزيرة تغسل شواطئها باستمراره وبرودة الشمس في أكثر أوقات السنة تمنع التبخر لذلك تقترب الأشجار بل الغابات من شواطئ البحار التي تلامسها أو تكاد.

ورأيــنا الحقــول الخضر المزروعة تلامس المدينة من دون فاصل كبــير وتمتد إلى مالا يدرك البصر له نهاية من الطائرة حيث تختلط بهذه الأرض الخضـــراء، وإن لم تكن عذراء، فهذه هي طبيعة بلادهم أن تكون فـــي مــثل هذا الفصل من الصيف والخريف خضراء منيرة لأن الأمطار تكثر بل تغزر في هذين الفصلين وإن كان فصل الخريف يتضاءل عندهم

حـــتى يصبح جزء منها جزءاً من الشتاء العنيف، أما في الشتاء فإن الثلج هو الذي ينزل عليها بديلاً عن المطر، وحتى تصبح هذه البلاد الغبراء في لـــون الصحراء إذا كانت ملحية شهباء، وهي صحراء في ذلك الوقت، بل أشـــد جدباً من الصحراء لأنه لا ينمو فيها عود ولا يجد حيوان أو إنسان فيها ما يأكل إلا ما كان ادخره من فصل الصيف أو الخريف.

ثـــم ارتفعـــت الطائـــرة فحـــال سحاب خفيف عن رؤية الأرض، وأنصرف البصر إلى داخل الطائرة فأبصر الركاب- على قلتهم- كلهم من الجـــنس الأبيض الأشقر ماعدانا نحن الثلاثة- وأقبلت المضيفة وهي تقدم شيئاً من الضيافة، وتكاد تذوب رقة، ولا تكاد ترى خجلاً، إذْ كنت عجبت ولا أزال أعجب من كون العديد من الشابات من أهل هذه المنطقة إذا رأتنا أو كلمتنا تكاد تواري وجهها الجميل عنا من الحياء إن لم نقل الخجل، ولا أدري مبعث ذلك مع أننا في سن الكهولة وما هو فوقها فأنا لم يبق عليَّ إلا شـــهران وأتم السبعين من العمر بإذن الله، فلم يخجلن؟ إلا إذا كان منظر الشيوخ الكبار- في السن طبعاً- مما تخجل منه العذارى.

ونحـــن في بلادنا نعرف أن الغانيات من بني قومنا، وبخاصة إذا كن من الحسان ينظرن بترفع واستعلاء إلى كبار السن، أو الذين دونهن في البياض.

كانـــت المضـــيفة تجتهد في خدمتنا نحن أكثر من بقية الركاب حتى إنها عندما أحضرت الجعة وهي البيرة ورددتها بادرت تحضر الكوكاكولا وشراب البرتقال عوضاً عنها.

وكانت ضيافتها كيساً صغيراً من النقل وهو اللوز ومعه قطعة حلوى كبيرة (شوكولاتة) وشراب.

ولـــم أرهـــم قدموا الخمر للركاب، ولذلك رأيت أحدهم يحضر معه زجاجات صغيرة يخرجها من حقيبته ويوزعها على رفاقه.

واســـتمرت الطائرة تحلق في لجة بيضاء من السحاب، و قد غابت السماء من فوقها كما غابت الأرض من تحتها.

وعـــادت المضـــيفة لتقدم لفافة جيدة من البسكويت وقطعة الحلوى اليابسة المغلفة وزجاجة أخرى من الكوكاكولا.

ومـــن الأشياء التي دخلت في هذه الطائرة بعد انفصالها عن الاتحاد السوفيتي أنهم أباحوا التدخين وتقديم الجعة (البيرة) فيها بخلاف الطائرات الســـوفيتية السابقة، والطائرات الروسية الحالية التي لا تقدم في الرحلات الداخلية أي شيء من الحكول ولا تسمح فوقها بالتدخين.

وكان من عادة الطائرات الروسية التي جربناها أن لا يقدموا فيها في الـــرحلات الداخلـــية إلا كأساً من الماء المعدني، أو الكوكاكولا، ونحوها ويقدمونه بكأس من اللدائن الخشنة، حتى يظن المرء أن الكأس من الفخار وليس من اللدائن السميكة الخشنة.

أمـــا هـــؤلاء فقد قدموا الشراب في كأس أبيض من اللدائن الخفيفة الشـــبيهة بالزجاج، فضلاً عن فرق أساسي في هذه المضيفة والمضيفات الروســـيات اللاتي لم يغيرن من طباعهن في الرحلات الداخلية شيئاً وهو الابتسام من هذه المضيفة الأستونية، والعبوس وعدم المبالاة بالركاب من المضيفات الروسيات.

فوق روسيا البيضاء:

ليس من عادة الطائرات الشيوعية- إن صح أن للطائرات مذاهب- أن يهـتم طياروها بحصول الركاب على المعلومات المعتادة في الرحلات كحدود البلدان، والمدن المهمة والمواقع التي تمر بها الطائرة، فلم يكونوا يذكـرون شيئاً من ذلك مثلما أنهم لا يذكرون عن أنظمة الطيران ولا عن أحزمة المقاعد ولا عن كيفية التصرف في الظروف الطارئة.

وهـذه الطائـرة الصغيرة التي ورثت الطائرات الروسية- إن صح التعبـير- سارت على هذا المنوال في هذا الموضوع، فلم يخبرونا عندما غادرنـا حدود استونيا داخلين في حدود روسيا البيضاء أو حدود لاتفيا إن كانت الطائرة تمر بها ويوزعوا خارطة توضح خطوط سير الطائرة.

ولكنـنا عرفـنا بعد أن أمضت الطائرة حوالي الساعتين إلا ثلثاً من الطـيران أننا فوق أرض روسيا البيضاء لأن الطائرة بدأت في التدني من اللجـة البيضـاء التي كانت تسبح فيها فصارت ترتج وهي تهبط ثم خيم الظلام أسفل هذه اللجة التي كانت نيرة أسافل أسفل السحاب كانت سوداء مما يلي الأرض، ما عدا الرباب وهو السحاب الأبيض، ولكنه سريع السير حتى إنه يبدو كما لو كان يركض ركضاً في الجو.

وبـدت أرض روسيا البيضاء خضراء أكثرها حقول خضر تخللها أراض صفر لكونها كانت حقول قمح قد حصدت ولم يبق إلا بعض قصبها الأصفر.

ويغلـب عدم البهجة على هذه الأرض بالمقارنة إلى منظر الأرض في أقطار البلطيق التي تركناها.

ثم اتسعت الحقول وصار المرء يرى بينها قطعاً من الغابات، ولاح طـــريق ســـريع مزدوج ليس عليه سيارات كثيرة، وبعض الطرق الريفية تـــبدو صـــفراء لأنهـــا ترابية والتربة ذات لون أصفر وكثرت التجمعات السكنية قرب الطريق في الريف.

ولـــم أر نهراً ولا بحيرة كالتي رأيتها في ليتوانيا على سبيل المثال، واقتربـــت الطائـــرة من المطار فرأيناهم غرسوا على الطريق صفين من الأشجار التي غدت كبيرة.

في مطار منسك:

هبطـــت الطائـــرة في المطار الساعة الثانية إلا الثلث وبذلك صار طـــيرانها ساعتين إلا خمس دقائق وليس ساعتين إلا ثلثاً كما ذكروه وإن كانوا قالوا: إن ذلك على وجه التقريب.

وكـــان هـــبوطها في المطار الذي هو طويل المدرج، إلا أن بلاطه متشقق شقوقاً سدوها بالقار.

ويقـــع المطار في منطقة ريفية بعيدة عن المدينة، بل لم نر المدينة منه أصلاً، عندما أقبلنا عليه، ولم يعلنوا للركاب أي معلومات عند القدوم من مثل التوقيت المحلي ودرجة الحرارة.

أمـــا ســـاحة وقـــوف الطائرة فإنها واسعة فيها طائرات عديدة من مختلف الأحجام، مما ورثوه عن الاتحاد السوفيتي السابق.

وبعض الطائرات كتبوا عليها اسم خطوطهم الجوية التي أنشأوها بعد الاســـتقلال واسمها المختصر (بيلافيا) وهي اختصار لجملة طيران روسيا البيضاء لأن روسيا البيضاء بلغتهم هي (بلاروس).

أول مـــن وصلنا إليه من موظفي المطار ضابط الجوازات بطبيعة الحـــال، وقد نظر في جوازي ملياً ثم أعاد النظر فيه وفيه سمتان للدخول إحداهمـــا من سفارة روسيا الاتحادية في جدة والأخرى حصلنا عليها من ســـفارة روسيا البيضاء في تالين وسألني بطريقة الإشارة لكونه لا يعرف الإنكلـــيزية عن أي السمتين أريد؟ فقلت له ما شئت، ولكنه لم يقتنع فأخذ الجـــواز ودخل إلى مكتب فيه رئيس له ثم عاد مع ضابط آخر وهو يتأمل الجـــواز، ولا يستطيع أن يعمل شيئاً وأنا واقف عنده مع العلم بأن جوازي (دبلوماســـي) وعلاقـــات حكومتنا طيبة بروسيا الاتحادية وفيها لنا سفارة نشطة وأما توابع روسيا مثل هذه البلاد فإنه لا سفارات لنا فيها.

ثم نهض من مكتبه ودخل للمكتب الأول وغاب عنا فترة عاد بعدها وختم الجواز.

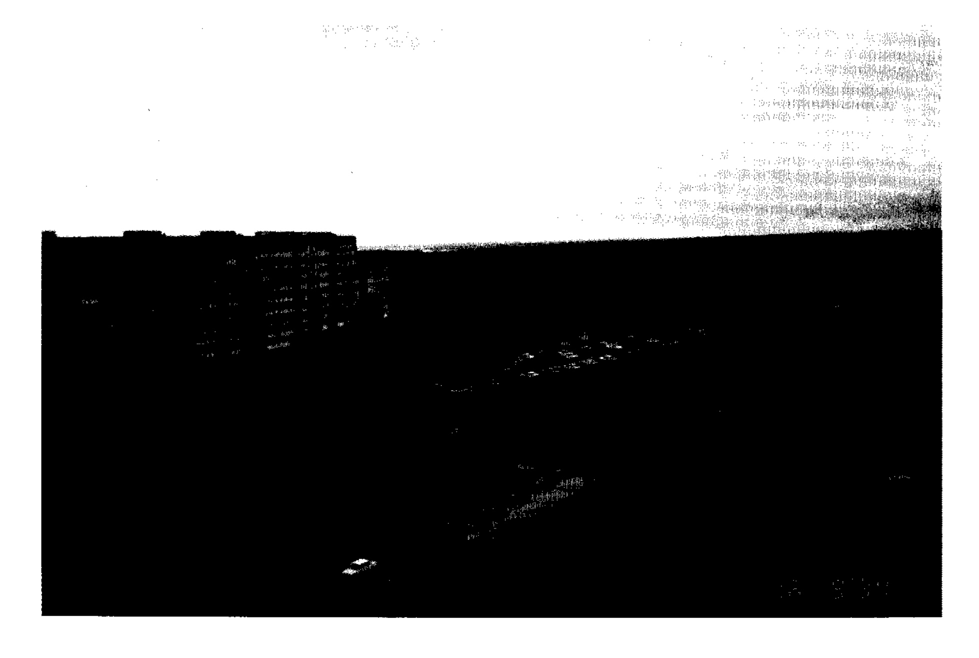

مطار مدينة منسك

ومــن عــنده انتقلــنا إلى حيث حقائبنا وحدها لأن الذين معنا كانوا فرغوا قبلنا ورأيتهم يدخلون حقائب الركاب في فاحص كهربائي ليروا ما فيها دون فتح فأريتهم جوازي (الدبلوماسي) وكذلك جواز رفيقي في الوفد الأســتاذ حســن ازميرلي هو (دبلوماسي) أيضاً فسمح الضابط لنا بمرور الأمتعة دون أن يدخلها الفاحص الكهربائي.

إلى مدينة منسك:

وجدنا في استقبالنا في المطار الأخ عمار البحر مدير مكتب (سار) وهــي مبرة الراجحي في الرياض وكنا هاتفنا مفتي روسيا البيضاء الأخ الشــيخ (مصــطفى) وهــو كمفتي استونيا ليس عنده من مؤهلات المفتي الدينــية شــيء، وإنما اختاره المسلمون هنا ليكون بمثابة رئيس الجمعية الإســلامية، مع العلم بأنه يوجد رئيس رسمي للجمعية الإسلامية في هذه البلاد سيأتي الكلام عليه.

والأخ (عمــار البحر) هو من إخواننا السودانيين الطيبين درس في هذه البلاد، وتخرج في الهندسة الكهربائية، ويعرف الروسية وشيئاً من لغة روسيا البيضاء، وهو خبير بهذه البلاد لكونه أقام فيها مدة طويلة.

ركبــنا سيارة أجرة من طراز فولقا الروسي حملتنا مع أمتعتنا وهي الطراز الروسي الكبير من سيارات الأجرة.

وسألت الأخ عمار عن السبب في كوننا لم نر المدينة ولا ضواحيها عــندما أقبلــنا على المطار، فقال: السبب هو بعد المطار عن المدينة فهو يبعد ٤٢ كيلومتراً.

فقلـــت له: إنني لم أر جبالاً ولا عوائق في المنطقة تحول دون بناء المطـــار قربها فلم اختاروه بعيداً؟ فقال: ما ذكرته صحيح، وقد ذكروا في اختياره أنه تنزل فيه الطائرات الكبيرة التي تزعج أصواتها، ويؤذي تلوثها الجو، لذلك أبعدوه عن العاصمة وهناك مطار صغير بجانب المدينة ولكنه لا يستعمل إلا للرحلات الداخلية القليلة.

انطلقـــنا مـــن المطار قاصدين العاصمة (منسك) مع طريق أسفلتي ضيق بعيد عهد بالإصلاح تحف به أشجار كبيرة نضرة إلى أن سرنا فيه ثلاثة كيلومترات فوصلنا إلى طريق سريع ذي اتجاهين بينهما جزيرة فيها حشائش برية ويسمونه هنا (استراد).

ويشـــق الطريق ريفاً أخضر إلا أن فيه جفافاً بالنسبة إلى الأراضـي التـــي جئـــنا مـــنها في بلاد البلطيق ورأيت فيه شيئين ذكراني بموضعين أولهمـــا كثرة الغربان، مما ذكرني ببلاد الهند التي تكاد تعتبر بحق (بلاد الغربان) في العالم وقدجعلهاكذلك كون العقيدة الهندوكية- نسبة إلى ديانة الهـــندوك- التـــي هـــي الديانة الغالبة في الهد تحرم قتل الأحياء، لذلك لا يقتلون الغراب مثل غيره والثاني: أن الشعب الهدي يتفاعل بالغربان على عكس العرب الجاهليين الذين يتشاءمون بها ويكرهونها.

بين مطار منسك والمدينة

والشيء الثاني أنني رأيت هنا بيوتاً ريفية خشبية ذات سقوف واقفة حادة التسنيم أي أن سقوفها علىهيئة سنام البعير إلا أنها مرتفعة التسنيم، وتكون كذلك في البلدان المطيرة الثالجة من أجل أن تنزلق عنها مياه الأمطار والثلوج عندما تسقط عليها، وقد ذكرني منظرها بمنظر البيوت القديمة المنفردة في مدينة مورمانسك الروسية القطبية التي تغيب عنها الشمس مدة في فصل الشتاء حتى لا ترى أبداً ويحتفلون بعودتها في أول شهر أبريل ويعتبرون عودتها أعظم أعيادهم ويسمونه عيد (عودة الشمس) كما أن الشمس لا تغيب عنهم أبداً في أيام من شهر يونيو وقد زرتها في ذلك الشهر في عام ١٩٩٠م عندما كانت الشمس لا تغيب عنها، وذكرت مشاهداتي فيها في كتاب (الرحلة الروسية) وهو كتاب مطبوع.

موسم جمع البطاطس:

يعتبر البطاطس هنا طعاماً رئيسياً، لذلك يزرعونه ويكثرون من زراعته فيخزنونه للشتاء ويقتاتون منه حينما تعقم أرضهم، فلا تنتج شيئاً في الشتاء، وذلك مثلما عليه الحال في بلاد باردة أخرى وهي سيبيريا، حيث يزرع الناس قطعة صغيرة من الأرض حول بيوتهم بالبطاطس فيخزنونه ويقتاتون عليه في الشتاء، تساعدهم على عدم فساده برودة الجو في الشتاء، وإن كان البرد يفسده إذا ترك في الخارج ولكنهم يخزنونه بطريقة خاصة.

وموسم جني البطاطس عندهم مثل موسم جمع الزيتون في اذربيجان، وجمع القطن في مصر، حيث يجتمع الناس على ذلك حتى أطفال المدارس.

لقد ذكرني هذا أيضاً ما رأيته في الطريق من تجمع طائفة من الناس في حقل يجمعون ثمار البطاطس منه.

هذا وقد بدأ المطر يهطل وساءت حالة الطريق لأن المطر بين عوارها، فظهرت الحفر الصغيرة التي أحدثها طول العهد أو سوء التنفيذ في الطريق وقد انماع طينها فصارت (مطبات صغيرة).

وأجمل ما حول الطريق أزهار برية تشبه أزهار الربيع في صحرائنا عندما تربع بعد الغيث العميم، فالخريف لهم بمثابة الربيع لنا.

وهذه الزهور البرية هي الزهور الوحيدة هنا فلا توجد زهور مغروسة في الطريق ولا ما حوله مع العلم بأنه لا توجد بيوت على جانبيه، لأن البلدان الشيوعية لا تسمح حكوماتها للأفراد بأن يقوموا ببناء

مساكن أو مشروعات خاصة بهم، وإنما تقوم هي بكل النشاط وهي لا تقوم إلا بأعمال كبيرة، وإنما توجد البيوت منفردة في الريف.

ورأيت أبقاراً كثيرة في هذه الحقول ترعى وسط أعشاب كثيفة.

وأكثر السيارات التي تسير في الطريق هي شاحنات وقلابات روسية خشـــنة لأن الروس يعتمدون القوة لسيارات الشحن من دون أن يلقوا بالاً إلى المرونة في السير أو الجمال في منظر الشاحنة.

في مدينة منسك:

وصـــلنا مشارف العاصمة منسك والمطر يهطل إلا أنه ليس شديداً وأطراف المدينة تكون في العادة الشيوعية بعيدة عِن قلبها، لأنهم يتركون مساحات خضراء خضرة طبيعية تفصل بين قلب العاصمة وبين الضاحية من ضواحيها، لاسيما إذا كانت مدينة كبيرة مثل منسك هذه التي يبلغ عدد سكانها مليونين ونصفاً من مجموع سكان جمهورية روسيا البيضاء البالغ عشرة ملايين نسمة.

ومـــع ذلـــك لاحظت أن الحدائق والأماكن التي فيها أشجار هي في (منســـك) هـــذه أقل منها بكثير في عواصم دول البلطيق التي قدمنا منها وبخاصة مدينة (تالين) عاصمة استونيا.

ولـــم تشـــذ (منسك) عن القاعدة العامة في جميع المدن التي كانت شـــيوعية فـــي وجود الأبنية العالية المتعددة الطوابق (العماير) التي بنتها الحكومة لإسكان المواطنين في شقق سكنية صغيرة، بل هي كثيرة هنا.

وشـــوارع المديـــنة في الضاحية التي مررنا بها هي واسعة إلا أن

الشارع لا يكون كله مزفتاً، وإنما يقتصر الزفت فيه على طريق السيارات في وسطه.

ومظاهـــر السيارات التي تسير فيها ليست جيدة بالنسبة إلى مظاهر السيارات في أقطار البلطيق الثلاثة التي قدمنا منها إلى روسيا البيضاء.

سلكنا أهم شارع في المدينة واسمه كالعادة (شارع لينين) حيث اعتاد الـــناس فـــي الـــبلدان الشيوعية ذلك إلا أنه بعد أن نالت روسيا البيضاء استقلالها عن روسيا أصبح اسمه: (شارع فرانسيسكو سكارين).

وأوقفـــنا ســـيارتنا فـــي ميدان واسع في وسط المدينة الجيد حيث كان المطـــر يهطـــل فذهـــب الرفاق للسؤال عن غرف في فندق كبير جداً اسمه (فـــندق منسك) وبقيت في السيارة مع السائق من أجل ملاحظة الحقائب حيث انـــنا نحمـــل في الحقائب المعتادة مبالغ مالية كبيرة بالدولار النقدي لإخواننا المسلمين في المنطقة وهي في حقائبنا اليدوية لأن جيوبنا لا تتسع لها.

وقد أبطأ الرفاق ولم أستطع مغادرة السيارة لأن المطر ينزل ولا أثق بالسائق لأنني لا أعرفه.

وعجبت من كونه كان يخرج من السيارة من أجل مكافحة الجلوس الطويل بالسيارة فيقف والمطر ينزل، والهواء البارد يلفح لا يهتم بذلك.

وبعـــد انـــتظار طويل جاء الإخوة بالخبر السار وهو وجود الغرف رخيصـــة في هذا الفندق الضخم من قلب المدينة ولكن كانت الإجراءات طويلـــة، ودفـــع الأجـــرة مقدماً لكون الفندق واسعاً ذا أبواب متعددة على شـــوارع عـــدة فـــلا يستطيع أهله أن يراقبوا النزيل لذلك يتقاضون أجرة الغرفة مقدماً مع أنني رأيتهم بعد ذلك يعملون ما كان الروس، بل كل بلاد

الاتحــاد الســوفيتي السابق في الفنادق الكبيرة والمتوسطة يعملونه، حيث تكون هناك نساء من متوسط الأعمار أو من المسنات يكن مسؤولات عن كــل طــابق أو ركــن في الفندق فيعرفن كل من يخرج أو يدخل يتناوبن الجلوس في مكتب فيه طيلة الوقت، وتكون مفاتيح الغرف لديهن.

وتكــون تلــك النسوة في الغالب ذوات طبع كثيف، ومجاملة قليلة أو معدومة للــنزلاء، وقــد بقيــنا فترة في الطابق قبل أن نأخذ المفاتيح، ذلك لكوننا نريد ثلاث غرف متجاورة أو متقاربة.

أمــا الغــرف فإنهــا جيدة واسعة في كل غرفة سريران وجهاز تلفزة ملــون لــم استعمله لأنه لا يوجد لدينا وقت لذلك، وفيها هاتف وحمام داخلي مجدد إضافة إلى خزانة الثياب، ومعلاق للملابس أيضاً خارج عن الخزانة.

واجرتها ٤٨ دولاراً أمريكياً وهذا جيد جداً بعد غرفة الفندق في ريقا التي دفعنا لها ١٢٢ دولاراً أمريكية مع كونها أصغر من هذه.

مطعم الليمونة السوداء:

بقــي الأخ الكريم (عمار البحر) معنا فخرجنا معه للبحث عن مطعم مناســب وهــو كمــا قدمت يجيد اللغة الروسية، ويعرف لغة (بلاروس) ويسمونها هنا (البلاروسية) بمعنى لغة روسيا البيضاء فركبنا سيارة أجرة اخــتارها الأخ عمار بعد اثنتين أو ثلاث قبلها رفضها، وذلك أن أصحابها طلــبوا أجــرة مرتفعة، أما الذي ركبنا معه فقد تقاضى ثلاثة آلاف روبل بلاروسي، ويساوي ذلك أقل من دولار واحد، ومما يجدر ذكره أن روبل بــلاروس هو غير روبل جمهورية روسيا الاتحادية التي يساوي الدولار مــنه ١٨٠٠ روبل، وهذا أي روبل هذا البلاد يصرف الدولار الأمريكي الواحد بـــ٣١٠٠ روبل.

وقد طلب أحدهم أضعاف المبلغ الذي ركبنا به، وذلك أن القوم الآن مــثلما عليه الحال في روسيا اقتصادهم في مرحلة الانتقال من الشيوعية إلـــى مرحلة الاقتصاد الحر، وقد تراخت الإدارة فيها وإن كانت لم تصل إلى مرحلة الفوضى الموجودة في روسيا في الوقت الحاضر، لذلك يخضع مثل هذا الذهاب في سيارة الأجرة لقانون العرض والطلب.

فوصلنا إلى مطعم اسمه (شورني ليمون) ومعناه بالروسية: الليمونة الســوداء لأن (شورني) سوداء وليمون، هي كلمة الليمون العربية، ويقع على شارع (ياكوبا كولسا).

وجدنا المطعم مغلقاً ففتحت لنا امرأة شابة انحنت بالتحية وفقاً للتقاليد الأوروبية العريقة التي استعادها بعض الناس بعد الشيوعية ثم اسلمتنا إلى امــرأة أخرى تقدمتنا بأدب صاعدة للطابق الثاني من المبنى القديم المجدد الذي يشغله المطعم، ثم ودعتنا بتحية رقيقة عندما جلسنا على المائدة.

ثم جاءت عاملة المائدة امرأة جميلة رشيقة في منتصف العمر على خلاف العادة التي عرفناها في المطاعم الروسية حيث تكون الخادمات من المسنات الغليظات.

والمكـــان مجمـــل جداً، وقد تعبوا في ذلك حتى إنهم فرشوا أرضه بأعشاب صناعية وعلقوا فيه أصصاً تحمل أشجاراً قصيرة مقصوصة.

وقـــال أحدهم: لاشك في أن أصحابه من الأمريكيين أو من الروس العائدين من أمريكا الذين كانوا فيها زمن الشيوعية لأن الروس لا يحسنون هـــذا حـــتى إن الملاعق والشوك مطلية بلون ذهبي، وإن لم يكن فيها من الذهب شيء.

لقد كنا نتجنب اللحم المذبوح في البلدان الشيوعية عامة، ولو كانت مسيحية الديانة في الأصل لأن الشيوعيين وهم ملحدون يسيطرون عليها، ويتولون الذبح فيها، ولم يتغير عندهم من أمر الذبح شيء حتى الآن رغم تخليهم عن الشيوعية، لذلك طلبنا سمكاً وحساء من حساء الخضار وعصير البرتقال وسلطات.

فكان أن بدءوا بإحضار السلطة التي هي أوراق من أوراق الخضرات تشبه الفجل وليست به ومعها فطر (مشروم) وطماطم وخضار وجزر، وكل ذلك مرتب في الصحن وفق ذوق رفيع، ثم جاءوا بالحساء (الشوربة).

ثم أحضروا الطبق الرئيسي وهو السمك المشوي بطريقة حديثة جيدة بحيث لم نلاحظ أنه يحتاج إلى زيادة في الشي أو نقص منه والسمك نفسه جيد خالٍ من الشوك ويسمون هذا السمك (سفارين).

وكانت قيمة العشاء كله ٣٦ دولاراً أمريكية لنا ونحن أربعة.

مع مفتي روسيا البيضاء:

غادرنا مطعم الليمونة السوداء الذي ينبغي أن نتذكر أن اسمه مأخوذ من عادة كنا نعرفها في القديم وهي أننا كنا نستورد الليمون الأسود الجاف من خارج بلادنا فنستعمله مع أبازير الطعام، إذ لم يكن الليمون الأخضر وبخاصة الكبير الحامض موجوداً في وسط البلاد، ولا شك في أنهم كانوا كذلك لأن بلادهم باردة لا ينمو فيها الليمون الصغير المسمى بالبنزهير.

وقصدنا مكتب مؤسسة (سار) وهي جمعية خيرية منبثقة عن شركة الراجحي الذي يعمل فيه مرافقنا الأخ (عمار البحر) ويقع في شقة من

إحـــدى (العمـــارات) العالـــية التي بنتها الحكومة الشيوعية شققاً تؤجرها للمواطنين بأجور رخيصة.

ويقـــع المكتـــب فـــي الدور الحادي عشر من (العمارة) وهو أعلى الأدوار، فـــيها مصعدان ضيقان، إلا أن مرافقها خربة فالمدخل قد تكسر بلاطه وكذلك حواجز الدرج الذي يصعد إليه أهل الطبقات القريبة، وحتى المصعدين يحتاجان إلى عناية فضلاً عن التنظيف وإعادة الطلاء.

كـــنا قد واعدنا الأخ (إسماعيل مصطفى) مفتي المسلمين في روسيا البيضاء لجلسة معه نتناول أمور المسلمين في هذه البلاد وتحديد حاجاتهم العاجلة التي يمكن أن تقدمها الرابطة لهم.

وللمفتي مكتب في مقر مؤسسة (سارا) هذه أعدته المؤسسة وهو في الوقـــت نفســـه مقر الجمعية الإسلامية لبلادها أي روسيا البيضاء، وذلك لكون المسلمين ليس لهم مكتب، وهم أضعف حالاً ومالاً من أن يستطيعوا أن يســـتأجروا لهـــم مكتباً خاصاً بهم، إضافة إلى أن مؤسستهم هذه حديثة النشـــأة لم تجر أي اتصالات مع الجهات الإسلامية المانحة للمعلومات في الوطن الإسلامي.

جلســـنا فـــي غرفة من غرف الشقة الأربع أمام خزانة كتب جيدة أكثرها نســـخ من كتب إسلامية مطبوعة في روسيا الاتحادية لأن القوم هنا لا يحسنون إلا اللغـــة الروســـية ولغة (بلاروس) على قلة الذين يعرفون لغة (بلاروس) من البلاروسيين وهم الروس البيض مع أنها لغتهم.

وذلـــك أن الـــروس عندما حكموا البلاد لسنوات طويلة ركزوا على تنمية اللغة الروسية ومحو اللغة البلاروسية وبخاصة في زمن القياصرة،

ولم تكتب اللغة (البلاروسية) وإن شينا ترجمة اسمها إلى العربية قلنا: لغة روسيا البيضاء أو اللغة الروسية البيضاء إلا في عهد لينين بعد الشيوعية.

ثم جاء مفتي روسيا البيضاء الأخ إسماعيل مصطفى الكسندر فيتش، والمفتـــي في هذه البلاد وفي أقطار البلطيق الثلاثة التي زرناها لا تشترط فيه المعرفة بأمور الدين وإنما يكون بمثابة رئيس المسلمين أو رئيس الذين يعملـــون فـــي الحقـــل الإســـلامي فالأخ المفتي إسماعيل لم يدرس الدين الإسلامي وليس لديه من الفقه فيه ما يستحق الذكر.

ومع ذلك فإنه لم يعين في منصبه أو لنقل لم يتم اختياره لمنصبه إلاّ في ١٩٩٤/٢/٢٢م أي منذ سبعة أشهر تقريباً.

لكن ما نقص من فقه الدين عند اختيار المفتي زاد من حبه للنهوض بالمســـلمين في العودة إلى منابع قومه التتار المسلمين وحرصه على ذلك مـــع ضعف الإمكانات، وعدم معرفة كيفية الاتصال بالحواضر الإسلامية التي قد تساعد المسلمين.

تحدث المفتي طويلاً عن أحوال المسلمين في روسيا البيضاء فكان مما قاله:

استوطن التتار أجزاء من روسيا البيضاء في عهد دولة التون أورده فـــي القـــرن الرابع عشر الميلادي ثم توافد إليها المسلمون التتار من شبه جزيـــرة القريم في القرنين ١٨-١٩ الميلاديين، ولكن لقلة المسلمين وهم التـــتار وتفـــرقهم فقدوا لغتهم، واحتفظوا بإسلامهم، وبفضل الإسلام بقوا معروفين وإلا لذابوا في خضم الأكثرية غير المسلمة.

وأمـــا في العهد السوفياتي فقد قدم إليها المسلمون الأوزبك والأذرويون

القازاق والأكراد من مختلف جمهوريات الاتحاد السوفياتي السابق كما يدرس بضعة آلاف من الطلاب العرب المسلمين في جامعاتها، ويبلغ عدد المسلمين عموماً نحو عشرين ألف نسمة منهم ٣ ألف تتاري مسلم، حافظ المسلمون التتار على دينهم وشخصيتهم الإسلامية على مر القرون، وكان لهم ١٩ مسجداً قبل عام ١٩٣٩ كما بقي مسجد في منسك حتى عام ١٩٦٢م.

ومع تغيير الأوضاع بسبب حركة الجلاسنوست والبيروسترويكا وإنهيار الاتحاد السوفياتي أخذ المسلمون يستعيدون مساجدهم في عدد من القرى والمدن كما بدأ العمل الإسلامي يستعيد نشاطه وانتهى الأمر إلى تأسيس إدارة دينية إسلامية يشرف عليها مجلس يتكون من تسعة أشخاص يرأسهم مفتي مسلمي روسيا البيضاء، وقد اعترفت حكومة روسيا البيضاء بهذا التنظيم حيث سجل في وزارة العدل برقم ٥٠ وتاريخ ٧ يناير ١٩٩٤م.

تتولى دار الإفتاء تنظيم الجمعيات الإسلامية الفرعية في المناطق التي يوجد فيها المسلمون واستعادة المساجد القديمة وترميمها وإصلاحها وفتح فصول دراسية لتعليم أبناء المسلمين وإجراء الاتصالات والعلاقات الأخوية مع منظمات إسلامية في بلدان العالم ومنها الاتصال بالإدارة الدينية التركية وإرسال عدد من الطلاب إلى تركيا وهكذا.

ثم قال: استطاعت دار الإفتاء تشكيل ١٤ جمعية إسلامية فرعية وسيصل عددها إلى ٢٥ جمعية محلية في المدن والقرى كما أن التعليم الإسلامي لأولاء المسلمين في ست مناطق حالياً ومع نهاية هذا العام سيصل إلى ثمانية أماكن مستعادة كانت لهم، لأنها كانت فيها مقبرة إسلامية قديمة وفي جانبها مسجد وساحات أخرى خالية فأعادتها الحكومة وينوون بناء

مسجد في ركن منها لم تكن فيه قبور، مع أن القبور كانت قد أتلفت كلها، ولم يبق لها أثر.

قال: وتبلغ مساحة الأرض التي أعطتنا الحكومة أمامها ٢٠ ألف متر مربع، وأكثرها كانت لنا وسوف ترونها فيما بعد أن شاء الله تعالى.

وهنا حضر الأخ (أبوبكر شعبانوفتيش) رئيس الجمعية الإسلامية في روسيا البيضاء التي لم تسجل إلاّ في هذا العام، ولم تكن هناك قبل، كما حضر معه أحد الإخوة المسلمين.

أخبرتهم أن رابطة العالم الإسلامي يسرها أن تتعاون معهم في أمور دينهم، فتقدم ما تستطيع تقديمه من مساعدات للمشروعات الإسلامية التي يودون القيام بها وسوف نبحث معهم ذلك فيما بعد على ضوء ما سوف نشاهده في بلادهم.

وفي الختام اتفقنا معهم على برنامج الزيارة والمدن التي سنزورها في البلاد ابتداء من صباح الغد.

السبت: ١٤١٥/٤/١٢هـ- ١٩٩٤/٩/١٧م:

جولة في روسيا البيضاء:

وبعض الجولة سيكون خارج العاصمة (منسك) وتشمل زيارة عدة مدن وقرى في روسيا البيضاء.

بدأت الجولة في الساعة العاشرة وكانت بصحبة الأخ (أبوبكر شعبا نوفيتش) رئيس الجمعية الإسلامية في روسيا البيضاء وينطقون بالاسم شابانوفيتش وهو مدير مدرسة حكومية ثانوية تدعمها السفارة الأمريكية لكونها تدرس اللغة الإنكليزية، وهي مدرسة لا يستطيع الدخول فيها إلاّ أبناء كبار القوم إضافة إلى كون الأخ شعبان هو زعيم الأقليات القومية في البلاد، ومعنا الأخ عمار البحر مدير مكتب مؤسسة (سارا) في روسيا البيضاء، ووجوده ضروري لأنه المترجم الذي بدونه لا نستطيع التفاهم مع هؤلاء الإخوة المسلمين ماعدا قليلاً منهم يعرف اللغة التتارية المشتقة من التركية القديمة ويعرفها زميلنا في الرحلة الأستاذ (رحمة الله بن عناية الله).

وقد ترك الأخ شعبان عمله في المدرسة قائلاً: غياب يوم عن العمل لا يضر به لا سيما أنني حضرت إلى المدرسة في أول الصباح أما مجيء إخواننا الضيوف من مكة المكرمة فإنه لا يكون في كل يوم، وكان يخاطب بذلك الأخ عمار البحر.

وأبعد هدف للرحلة مدينة (قرودنا) التي تبعد ٢٧١ كيلومتراً عن منسك للقاصد غير أننا سنمر بعدة قرى ومدن في أيمن الطريق وأيسره لذلك ستكون مسافة طريقنا إليها بعيدة.

خرجنا من وسط المدينة الذي يقع فيه فندقنا (فندق منسك) مع ضواح

جـيدة، أجمـل ما فيها أنها منثورة نثراً وليست مزدحمة بحيث تظن أنك خرجـت من المدينة لأنك تكون وصلت إلى منطقة من الساحات الخضر كأنها الريف البعيد من المدينة ثم تفاجأ بأنك لا تزال داخل المدينة، إذ ترى منازلها وأحياءها لا تزال موجودة.

وكـان خروجـنا مـنها مع شارع واسع ذي اتجاهين اسمه (شارع دزرجنسك) وبين اتجاهيه جزيرة خضراء واسعة غير أنها ليست مجملة.

وسـعة هذا الشارع لا تخرج عن القاعدة العامة في سعة شوارع مدينة منسك، وبخاصة منها شوارع الضواحي والأحياء البعيدة عن قلب المدينة.

ريف روسيا البيضاء:

ويمكـن أن يسمى الريف الروسي الأبيض لولا أنه ليس أبيض وإن كانـت تسمية البلاد بسبب بياض أهلها بالنسبة إلى الروس الآخرين الذين يميل لونهم إلى الحمرة.

وقعنا في الريف ونحن نسير مع هذا الطريق المزدوج.

ورأيت مما استرعى انتباهي جماعة من الناس ما بين رجال ونساء وقـد جلسـوا على الأرض ون وقاية أو فراش على القسم الترابي بجانب الطـريق الأسـفلتي ينـتظرون من يحملهم إلى الأماكن التي يقصدونها، وأخـبرنا المرافقون أنهم قد يجلسون مدة طويلة، وذلك لكونه لا يوجد نقل عـام منـتظم إلـى الجهة التي يريدونها فينتظرون الحافلة الحكومية التي تتأخر أحياناً، كما أنه لا توجد سيارات أجرة تحمل الناس بأجرة للشخص الواحـد إلـى المكان الذي يريدونه ولو وجدت لم يستطيعوا دفع أجرتها بموجـب الأسعار الحالية لأجور السيارات، ولرواتب المواطنين ودخولهم

المتدنـــية، مع العلم بأن القوم مظهرهم مظهر الأوروبيين الشماليين الذين وقـــر في أذهاننا وأمثالنا أنهم من الأغنياء، أو على الأقل من غير الفقراء فهم بيض الألوان، شقر الشعور في الغالب.

ويســـمى هذا الطريق (طريق برست) لأنه يمتد إلى مدينة (برست) التي تقع على حدود بولندا.

مسجد أثري:

عرفـــنا أننا الآن نحاذي منطقة فيها مسجد قديم اعتبرته الحكومة في الوقـــت الحاضر من الآثار القديمة التي لا يجوز التصرف فيها فضلاً عن هدمهـــا ويقع في قرية (نوفيو تشسكيا) وتقوم الحكومة الآن بترميمه لهذا السبب أي لكونه أثراً قديماً.

وقـــد طلبت أن أراه فاعتذر الإخوة بأن الطريق إليه من هذه الناحية غـــير مزفلت ولذلك لا تستطيع مثل سيارتنا الواطئة أن نسير فيه، كما أنه يعوقنا عن إتمام جولتنا هذه في الوقت المقرر.

منسك القديمة:

يبعد المسجد عن مدينة (منسك) الحالية التي هي عاصمة جمهورية روسيا البيضاء بـــ١٨ كيلومتراً، ومع ذلك ذكروا أنه يقع في مكان منسك القديمـــة لأنهـــا بنيت هناك أول مرة أي ابتداء البناء فيها وسكنت فترة ثم انتقلـــت إلـــى مكانها الحالي، وانتقل معها اسمها، وهنا يخطر على الذهن الســـؤال عن مفتي كلمة (منسك) وقد سألت عنه بالفعل فأجاب من سألتهم بـــأن معناه (مكان التبادل التجاري) أي ما يمكن أن يترجم بجملة (السوق

التجاري) لو لا أنه لم يكن فيها في أول الأمر سوق تجاري، وإنما هو مكان يقصده الناس ليتبادلوا فيه البضائع مع الآخرين.

وقيل: سميت بهذا الاسم لكونها واقعة على ملتقى الطرق التجارية ونهر (منكا) الذي صار يسمى الآن (نهر جن).

وأكثر ما في هذا الريف ظهوراً هو أشجار التفاح الأبيض الذي تنعكس أشعة الشمس الصباحية عليه فيبدو ناصعاً أو كالناصع بين الأوراق الداكنة النضرة.

ويعتبر هذا الشهر الذي هو سبتمبر والشهر الذي بعده وهو شهر أكتوبر شهرا التفاح في هذه البلاد، وذلك لكثرة انشغال الناس بتصديره إلى ما كان يسمى بالاتحاد السوفيتي سابقاً، إضافة إلى خزن ما يمكن خزنه منه، على ضعف وسائل تخزين الفاكهة عندهم.

وهذا مثلما أن هذا الوقت هو موسم جمع البطاطس وقد ذكرني هذا منظر أناس مجتمعين في حقل غير كبير في الريف يجمعون البطاطس لأنهم يعتمدون عليه في الغذاء ويحسنون خزنه،بطرق قديمة ساروا عليها من أجل أن يأكلوه في الشتاء حيث تعقم الأرض عن الإنتاج.

ورأيتهم يجمعون ورق البطاطس ينتفعون به علفاً جيداً للماشية.

والمنطقة كلها حقول خضر تتخللها مساحات صفر هي التي كانت زرعت قمحاً حصدوه وبقيت أجزاء كبيرة من قصبه صفراً.

وتحف بالطريق نفسه أشجار كثيفة.

الطريق الواسع في روسيا البيضاء

ثـــم مررنا بمزرعة واسعة من مزارع التفاح أظنها حكومية وبعدها حقل واسع فيه جماعات كثيرة من الناس يجمعون أو قل يقلعون البطاطس.

وقد أخبرنا المرافقون أن موسم جمع البطاطس هو من أهم المواسم عندهم حتى إن طلاب المدارس يشتركون فيه لكون البطاطس غذاء شعبياً ويخشى عليه من الأمطار إذا ترك في مكانه بعد نضجه.

وقـــد تصورت موسم الجداد عندنا الذي هو قطع عذوق التمر من النخل عندما يحين ذلك، إذْ يكون موسماً للفلاحين يجتمعون عليه ويعمل معهم فيه من لا يملكون تمراً فيشبعون منه، وينالون نصيباً ولو قليلاً يدخرونه.

بلدة درزجينسك:

مـــر الطريق ببلدة صغيرة اسمها (درزجينسك) هي التي أشرنا إليها

عندما ذكرنا الطريق الذي يخرج من العاصمة اسمه (طريق درزجينسك) لكونـــه يمر بها، ويبلغ عدد سكانها ٣٠ ألفاً وليس فيها مسجد، بل إن عدد المسلمين فيها قليل.

وقد فسد الطريق بمحاذاتها فصار ضيقاً تحاصره الأشجار الضخمة، وهـــذه عادة رأيناها في مدن الاتحاد السوفيتي السابق حيث يكون الطريق واسعاً قبل الوصول إلى القرية أو البلدة الصغيرة حتى إذا دخلها ضاق ثم إذا فارقهـــا اتســـع، وذلـــك لكونهم لا يهدمون البيوت لئلا تكون الحكومة مضطرة لبناء بيوت لأهلها تعويضاً لهم عن هدمها.

وقد اتسع الطريق بالفعل بعد مفارقة (درزجينسك) إلا أنه أصبح ذا اتجاه واحد يفصل بين السيارات المتقابلة فيه خط أبيض.

أوراق الخريف المبكر:

الأشجار التي لوحها الخريف في الطريق من منسك إلى نوفو غرودك

هذه المنطقة التي نسير فيها كانت منطقة غابات ملتفة في الماضي، ولكـــن أهل البلاد قطعوها من أجل التوسع في الحقول الزراعية، وبقيت منها على حافات الطريق وفي أماكن ضيقة قطع من الغابات الكثيفة، وقد اســـترعى انتباهي منها أوراق حمر وصفر في أطراف الأشجار وبخاصة مـــا كان منها تلقاء الرياح الشمالية، إذْ بدأت فيها الصفرة وأحياناً الحمرة التي تصيب أوراق الأشجار قبل الصفرة التي تعني موتها ثم سقوطها.

وذلـــك يكـــون في الخريف في البلدان الباردة، ولا شك في أن هذا خريف مبكر، ونحن الآن في شهر سبتمبر فالتقطت لها هذه الصورة.

وقـــد مـــررنا بأرض منخفضة فيها أشجار وحشية وهي البرية التي نمـــت دون غـــرس وليســـت من أشجار الأخشاب، فسألت المرافقين عن السبب في كون الناس لم يغرسوا بدلاً منها أشجار التفاح المثمر؟ فضحكوا قائليـــن: إن الأرض كلها كانت مملوكة للحكومة في زمن الشيوعية، وإن الـــناس لا يملكـــون مـــنها شيئاً، والحكومة لا تجد من الفراغ ومن محبة المصـــلحة العامـــة ما يجعلها تدقق في مثل هذه الأمور، إضافة إلى كون الأراضي الصالحة لغرس أشجار التفاح واسعة ومتوفرة في أنحاء البلاد.

هذا وقد عاد الطريق مزدوجاً واسعاً يفصل بين قسميه جزيرة واسعة غير معتنى بها، فالسيارات الآن قليلة في الطريق.

وبمناســـبة كـــثافة الأشجار قال لنا الإخوة المرافقون: إنه في فصل الشتاء كله وأكثر فصل الربيع وأقل الخريف تكون هذه الأرض ثالجة أي يســـقط علـــيها الثلج، أما الصيف وأكثر فصل الخريف فإنها مطيرة تنزل عليها أمطار كثيفة.

منطقة ستولبسي:

منطقة اسمها (ستولبسي) تبعد عن مدينة منسك ٧٠ كم، وعلامة وصولنا إليها لوحة كالتمثال الرث كتب عليها اسمها.

ولا يزال الطريق واسعاً ويسمونه هنا (اوستراد) وذلك لكونه طريقاً دولية تذهب إلى أكثر من دولة وكان يسمى طريق بولندا، وكانت المنطقة كلها تحت النفوذ المطلق لروسيا في الماضي، ولم يكن أحد يدور في خلده أن روسيا البيضاء ستستقل، وهي التي يعرف الناس أنها تمت بصلة القرابة السلافية للروس. ولا بأن نفوذ الاتحاد السوفيتي الطاغي سينحسر عن المنطقة فتتخلص منه بولندا التي طالما اشتكت بأن الروس قد اقتطعوا أجزاء من أرضها وألحقوها بأراضيهم وإن كانوا لا يستطيعون أن يجهروا بذلك من أجل نفوذ روسيا القوي من جهة ومن أجل أن يقاوموا نفوذ ألمانيا التي تدعي أن أجزاء من أراضيها قد اقتطعت وألحقت ببولندا.

ورأينا قطعانا من الأبقار كثيرة العدد فأخبرنا الإخوة أنها تابعة لأحد الكلخوزات وهي المزارع الجماعية التي أنشأها الشيوعيون ولا يزال بعضها موجوداً حتى الآن، وذلك لكون الأهالي لفقرهم لا يستطيعون أن يقوموا بالمشروعات الاقتصادية الكبيرة التي تتطلب رساميل ضخمة في الوقت الحاضر.

ومع كثرة الأبقار في المنطقة فإنني عندما أمعن الطريق في الريف ورأيت كثافة الأعشاب والمراعي الجيدة فيه شعرت بأن المواشي هنا قليلة بالنسبة إلى هذه الإمكانات الضخمة لتربيتها، وإن كنت أعرف أنها تحتاج إلى خزن مقادير من الأعلاف والأعشاب الصالحة لها لفصل الشتاء الطويل الذي تنزل فيه الثلوج بكثافة، ولا تستطيع الأبقار ونحوها أن ترعى فيه كما ترعى الآن.

ولــم أستطع أن أفهم شيئاً من اللافتات الموجودة على الطريق لأنها بالحــروف السريلية المعروفة عندنا بالحروف الروسية يسمونها الحروف السلافية، ويذكرون أنها جاءتهم من بلغاريا.

أمــا الأرقام فإنها أرقامنا العربية التي يعرفها الأوروبيون، بل العالم كلــه بهــذا الاسم ونحن نسميها الأرقام الأفرنجية، كأنما لتبرأ من شرف إهدائهــا إلى العالم، مع أنها الآن هي الأرقام المستعملة في شرق الأرض وغربها مثل الصين واليابان وروسيا، فضلاً عن العالم الغربي كله.

نهر نيومان:

مــر الطريق فوق جسر على نهر صغير اسمه (نيومان) يذهب إلى بحــر البلطيق، إذ يخترق جمهورية روسيا البيضاء ثم يصب في البلطيق على مسافة ٦ كيلومترات من الحدود.

وممــا يذكر بهذه المناسبة أن جمهورية (روسيا البيضاء) تعتبر من البلدان المغلقة التي ليس لها سواحل وشواطئ بحرية.

ويشــق هــذا الــنهر أرضــاً خضراء جميلة غارقة بالأعشاب النضرة، وبالحقول التي تشرب كلها من مياه الأمطار ولا تحتاج إلى الري من الأنهار.

وقد اعترض الطريق جسر تمر فوقه السيارات وهو رديء المظهر لا يدل على القوة لذلك عجبت من تحمله مرور السيارات فوقه.

مدينة مير:

عدلــنا مــن الطريق الدولي السريع الذي يسمونه الأستراد، فسلكنا طريقاً ازفلتياً ينطلق جهة الشمال وكنا متجهين جهة الغرب قبل ذلك.

وسنذهب مع هذا الطريق إلى مدينة (مير) التي كان فيها مسجد قديم أحرقه الشيوعيون وهجرها أكثر سكانها من المسلمين حتى لم يبق فيها منهم الآن إلا أربع أسر، ولكننا سنتعداها إلى مناطق أخرى فيها مساجد سيأتي ذكرها.

مما يجدر ذكره أن الحكومة لا تمانع في إعادة بناء المسجد، أو بناء مسجد جديد، ولكن ذلك يحتاج إلى تأليف جمعية رسمية لا يقل عدد أعضائها عن سبعة أشخاص، ثم إلى قدرة مالية على البناء، والأهم من ذلك الرغبة القوية والحافز الفعال لبناء المسجد.

لم يستغرق الوصول إلى مدينة (مير) طويل وقت، ومعنى اسمها: السلام بالروسية وهي أول مدينة في منطقة (نافاغرودك) التي سنزور أماكن فيها في جولتنا هذه بإذن الله.

تقع مدينة (مير) في واد خصب تحيط به تلال عالية وغير حادة الارتفاع، وأول ما استرعى انتباهنا فيها وجود آبار عديدة في هذا الوادي مرفوعة عن الأرض على هيئة التنانير القديمة مما ذكرني بالآية الكريمة (حتى إذا جاء أمرنا وفار التنور) والمراد والله أعلم فورانه بالماء، لأن هذه الآبار مرفوعة قليلاً عن الأرض ومغطاة بأغطية تمنع وقوع الأطفال فيها.

والحقيقة أن وجود الآبار في هذه الأرض الخضراء أمر غير متوقع وإن كانت آباراً صغيرة مخصصة لمياه الشفة وليس للزراعة.

وأما الخصب في التربة والخضرة في الأشجار فحدث عنه ولا حرج ومن ذلك أشجار من أشجار التفاح الأبيض مثقلة بثمارها رأيت واحدة منها قد وقع جزء من تفاحها في الأرض فلم يجد من يأخذه لكثرة التفاح ورخص ثمنه في هذا الوقت، وقد التقط أحد الإخوة المرافقين هذه الصورة لي بجانبها.

الحصن الأحمر:

مــن معــالم هــذه المدينة حصن عظيم أحمر الطلاء بني في العهد الليتواني أي عندما كانت مملكة ليتوانيا وبولندا تحكم هذه المنطقة.

وقــد حــافظوا علــيه، بــل رمموه وأصلحوه ورأيتهم حتى الآن يعملون في إصلاح جانب منه لكونه أثراً تاريخياً يجلب للمنطقة سياحاً من الداخل والخارج.

وجمــيع أراضــي المدينة مزروعة بكثافة، ويسترعي الانتباه شكل بيوتها الخشــبية الشــهباء وقد أحالها تعاقب العوارض الجوية وتكرار سقوط الأمطار والــثلوج علــيها ذلك اللون الأشهب الرمادي، ولم يكن لأهلها من القدرة المالية ما يجعلهم يطلونها ويواصلون طلاءها حتى تظهر بالمنظر المناسب.

ويمر بالمدينة نهير صغير لا تحتاج إليه.

ولا تعتبر مدينة كبيرة إذْ لا يزيد سكانها دون ملحقاتها على ٣٥ ألف نسمة.

وهــي مديــنة زراعية ليست فيها مصانع، ولذلك تبدو متسعة، لأن قسماً من أرضها مزروع بالحقول المتسعة.

وقد استرعت انتباهي في هذه المدينة عدة مناظر منها منظر سيارة من سيارات النقل الكبيرة فوق ظهرها قصب كالتبن الخشن من دون غطاء وهــي تســير فتذروه الريح في الطريق وما حولها حتى كأنما تقوم بنشر القمامــة علــيه، ولا شك أن هذا من علامات استرخاء الإدارة بعد الحكم الشيوعي إذْ لو كان سائق السيارة يعلم أنه سيؤاخذ على فعله لما فعله.

ومنظر فروق وهي الجماعات من البط الأبيض الكبير وهي تتبختر علــى الطريق وفيما حوله ببرود كأنما تتحدى السيارات بل كأنما تتحدى عصــر السرعة كله، ومنظر امرأة راكبة على محراث يجره حصان في

حقـــل ضيق جداً مما يدل على أنه لأسرة واحدة وليس للدولة أو للمزارع الجماعـــية، وخيل غلاظ والغليظ من الأناسي والحيوان هو الذي أعضاؤه كبيرة ضخمة من غير سمن ظاهر وإنما من أصل خلقتها.

وذكرنـــي منظر هذه الخيول بخيل المغول التي رأيتها في بلاد المغول في منغولـــيا الداخلية التي تتبع الصين الشعبية، وفي جمهورية منغوليا المستقلة التي عاصـــمتها (أولان باتور)، مما قد يدل على أن هذه الخيول لأصلها صلة بخيول المغول الذين استولوا وأنسالهم على هذه المنطقة فترة من الوقت.

ويلاحـــظ أن الـــناس هـــنا لا يـــأكلون لحوم الخيل بخلاف المغول والقـــازاق والأقـــوام التركية الأخرى الذين يأكلون لحوم الخيل ويشربون ألـــبانها وقد قدموا إليَّ من ذلك في عدة مناسبات ذكرتها في عدة كتب لي منها كتاب (في مهد الترك) وكتاب (ذكريات من الاتحاد السوفيتي).

وقـــرية صـــغيرة رأيت فيها منظراً تكرر مثيله في عدة أماكن وهو تجمـــع طوائف من الناس على جمع البطاطس، ولاحظنا أن بعض البيوت مبنية من لبن الأسمنت وليست من الخشب إلا أن سقوفها كسقوف البيوت الخشبية مسنمة تسنيماً واقفاً وذات منظر غير جيد.

ولم نقف في هذه القرية بخلاف مدينة (مير) وإنما واصلنا سيرنا في ريـــف معمور كله، من المناظر اللافتة للنظر فيه جرار مليء بالبطاطس الـــذي جمع لتوه وأكوام ضخمة من أكوام التبن المتخلفة بعد ذري القمح، ورجل ممسك وزوجته بمحراث يجره حصان وهو يحرث أكتاف الطريق الترابـــية، وذلك لكون الطريق مرفوعاً عن الأرض وبقيت بقية من الأرض منخفضـــة يحرثونها لأن زراعة الأرض لا تتطلب منهم سقياً وإنما ذلك على المطـــر، وحـــتى الـــثلج ينفعهم فيبذرون القمح قبل سقوط الثلج وينتفعون بما

يخـــرج مـــنه من علف حتى إذا سقط عليه الثلج وغطاه مات الورق، وبقي الجـــذع حـــياً لا يـــنمو ولا يفسد حتى إذا ما ولى البرد وحل الربيع عاد إلى النمو قوياً وافراً تمده أمطار الصيف بما يحتاجه من ري إن احتاج إليه.

ثـــم رأيـــت رجـــلاً آخر يحرث كتف الطريق الواقع ما بين الزفت وأشجار الطريق.

بلدة كاريلنشي:

وصـــلنا إلى بلدة كتب اسمها في لافتة على مدخلها (كاريلنشي) وقد قـــرأه لنا الإخوة المرافقون، وإنما الشيء المهم الذي قرأناه هو أنهم كتبوا بجانبه تاريخ إنشائها أي ابتداء العمارة فيها وأنه في عام ١٣٩٥م وهو أمر مهـــم جـــداً، وطريقة رأيتها متكررة هنا ولم أرها في أي مكان من العالم وهو أن يكتب ابتداء تاريخ البلدة مع اسمها عند مدخلها.

إنها فكرة جديرة بالبحث، بل بالتطبيق وما ألطف أن يعرف الشخص الـــذي يدخل إلى مدينة تاريخ ابتداء العمارة فيها من اسمها المكتوب على مدخلها حتى ولو كانت كبيرة مثل القاهرة وبغداد.

ولا شـــك أن ذلـــك ممكن بالنسبة إلى المدن غير العريقة وهي التي يعـــرف تاريخ عمارتها على وجه التحديد أو على وجه التقريب أما المدن العـــريقة جـــداً مـــثل دمشق وبيروت فإنه يمكن أن يكتب ذلك على وجه التقريب، وحسب ما تفيده النصوص التاريخية على أن يختار تاريخ واحد هو أقرب التواريخ إلى الحقيقة.

وبالنســـبة إلـــى هذه المدينة الروسية البيضاء (كاريلنشي) فإن لفظ اســـمها قد يوهم بكونها منسوبة إلى (كارل) ماركس أحد مؤسسي المذهب

الشـــيوعي غـــير أنهم ذكروا أن اسمها هذا قديم من قبل كارلس ماركس وعهده وإنها منسوبة إلى قبيلة سلافية اسمها (كاريل).

ويـــبلغ عـــدد سكان هذه البلدة (٢٥) ألفاً ليس فيهم مسلمون إلا عدد يتراوح ما بين ١٠ أو ١٥ نسمة فقط.

ولك أن تتذكر تاريخ إنشائها المكتوب على مدخلها وهو عام ١٣٩٥م وتعجب لقلة سكانها، مما يدل على قلة نمو السكان في هذه المنطقة، وربما كانت خربت في وقت من الأوقات أو حدثت لأهلها هجرات في السابق مع أنها في منطقة زراعية خصبة.

مدينة نوفو غرودك:

تركنا بلدة (كاريلنشي) وسرنا ٢٥ كيلومتراً وصلنا بعدها إلى مدينة (نـــافو غرودك) ومعناه: المدينة الجديدة، ولها أهمية تاريخية إذْ كانت أول عاصمة لهذه المنطقة إبان حكم لتوانيا عليها.

ويبلغ عدد سكانها (٣٦) ألف نسمة فيهم (١٧٠٠) مسلم من المسلمين التـــتار الذيـــن حافظوا على اسمهم الإسلامي طلبة القرون وإن كانت قد ضاعت منهم الأعمال والأفعال الإسلامية فضلاً عن ضياع العلم في الدين بســـبب انقطاع صلتهم بالمسلمين، وسقوط دولتهم، وتقاعس المسلمين في الحواضر الإسلامية عن زيارتهم في بلادهم ومساعدتهم على أمور دينهم إلـــى أن جاءت الطامة الكبرى وهي الحكم الشيوعي الملحد الذي حارب الأديان وحرم كل تعليم إسلامي.

سبقنا إلى المدينة ريفها الخصب الذي كثرت فيه الأبقار السائمة في مظهـــر خصـــب وقد أشرقت الشمس بل صفت حتى صارت في صفائها كأنما هي شمس الصحراء العربية الصاحية في فصل الشتاء.

وصلنا منطقة المدينة في الثانية عشر ظهراً فرأينا لافتة كبيرة تبين ذلـك وإن كـان المقصود منه المنطقة التي تتبع المدينة نفسها بمعنى أنها تابعة لبلدية المدينة، ولذلك ظلت السيارة تسير مسرعة لبعض الوقت حتى وصـلنا مدخـل المديـنة الذي تعلوه اللافتة المعتادة تحتها ابتداء تاريخها بالأرقـام العربية الإفرنجية التي نعرفها ١١١٦م فهي إذاً مدينة قديمة ولا أدري معنى جدتها وهي بهذه العراقة إلا إذا كان ذلك التاريخ القديم للمدينة القديمـة وبنيـت هذه على أنقاضها أو في جانب منها بعد خراب حصل للقديمـة وقد ذكروا لنا أن أول من بنى هذه المدينة حاكم ليتواني بناها في هـذا المكان لتكون مركزاً للدفاع عن ليتوانيا ضد مملكة روسية محدودة عندما كانت روسيا تتألف من ممالك وإمارات متعددة.

وانحدرنا إلى المدينة مع طريق تغلقه الأشجار الباسقة، وحتى ما بعد أشجار الطريق هو غابات ملتفة، ولكنها غير مثمرة مع صلاحية المنطقة لأشـجار الفاكهـة، كمـا أخبرونا وإن كانت فاكهتهم منحصرة في التفاح والكمثرى والخوخ والكرز وأما فاكهة المناطق المعتدلة كالبرتقال والعنب فإنها لا توجد.

وعـند مدخـل العمـارة في المدينة بدأت أشجار التفاح المحملة بل المثقلة بالثمار تظهر.

وفي مدخلها رأينا خرافاً من غنمهم الصغير الحجم الأغبر اللون وإن كانت غبرته تميل إلى البياض وقد أخبرونا أن الناس لا يقبلون على لحمه إلا إذا كـانوا من الفقراء لأن الشحم فيه كثير وقال لي أحدهم: إن أكثر ما في خرافنا الصوف والشحم.

دخلـنا المديـنة مـع ضاحية غارقة في الأشجار بل الخضرة كلها

فوصـــلنا مباشرة إلى القسم القديم منها وهو في وسطها فكان مما استرعى انتباهـــي كـــثرة الأبنـــية المطلية بطلاء اصفر اللون من الأبنية المتعددة الطوابـــق وإن تكن طوابقها قليلة، ثم تكررت رؤية الطلاء الأصفر حتى على الأبنية ذات الطابقين.

في مدينة نوفو غرودك:

ســـرنا في شوارع المدينة غير المزدحمة فحتى منازلها متباعدة فيما عدا قلبها الضيق فكان أهم ما يميزها في نظر القادم من بلد جافة مثلي هو الخصوبة في الأرض والخضرة التي تطالعك في كل اتجاه.

وأهلها هم الأوربيون البيض الذين نعرفهم في بلادنا وفي أوروبا إلا أنهـــم أوربيون فقراء يظهر ذلك عليهم من دون تأمل، وتبعد هذه المدينة عن حدود بولندا ٦٠ كيلومتراً.

منظر من قلب بلدة نوفو غرودك

تركنا قلب المدينة إلى ضاحية أشبه بالقرية الريفية لأن البيوت فيها بيـــن البســـاتين فوقفنا عند أحد البيوت، فكان المنظر غريباً إذ هو أخضر زراعي خصب ولكن المظاهر ليست مظاهر غنية فيه فالبيوت من الخشب المحـــدد السقوف بمعنى أن سقوفه مسنمة تسنيماً حاداً، وأكثرها قد غيرته التقلبات الجوية فصار ذا لون أغبر أو رمادي غير بهيج، وأسوار البيوت التـــي تكون معها أرض ضيقة يزرعها صاحب البيت هي من الخشب أو مـــن الحديـــد، والأطفـــال الذين رأيناهم رغم قلتهم هم أطفال الأوروبيين الشقر، وقد صورت طفلين عندما وقفنا عند البيت.

رئيس الجماعة الإسلامية:

هـــذا البيت الذي وقفنا عنده هو بيت الأخ (علي شهيتو فتش) وأصل شهيتو: شهيد العربية، وحرفت على ألسنتهم ثم حرفها الروس أيضاً فسموه بالروســية (علـــي شغيد وفيتش)، واستقبلنا الأخ علي هاشاً باشاً وكأنما لا يكاد يصدق وصولنا إليه، والأخ علي متقاعد وكان يعمل قبل ذلك في أحد المصانع وليس معنى كونه متقاعداً أنه لا يعمل شيئاً، فهو يعمل بالزراعة ولكن العائد من الزراعة قليل، حتى بالنسبة لمن يتفرغون لها.

وقـــد أســـرع الإخـــوة المرافقون يقولون: إن الأخ علي نشيط في العمل الإسلامي، ولذلك اختاره المسلمون رئيساً للجمعية الإسلامية في هذه المدينة.

وســـمعت بعضـــهم ينسي أو يتساهل: فيقول الجمعية التتارية، وهم يفعلـــون ذلـــك من منطلق أن اسم تتاري ومسلم مترادفان فالتتار مسلمون وهـــم الجماعة المسلمة الرئيسية في المنطقة وأغلبهم قدماء في هذه البلدة، كما سبقت الإشارة إلى ذلك.

وفد الرابطة مع الأخ علي شهيتوفيتش رئيس الجماعة الإسلامية التتارية في نوفو غرودك وقد زيَّن كتفيه بالأنواط والأوسمة

دخلنا إلى بيته من باب سور خشبي قصير ثم دخلنا باب المنزل الذي يقع إلى داخل أرضه وليس على الشارع كما هي العادة عندنا فاستقبلتنا زوجته واسمها حليمة وهي مسنة مثله، ولم أر في البيت ولا ما حوله أحداً من الأولاد، إذ ذكروا أن لهم ولدين متزوجين يعيشان بعيداً عنهما، ولا من الحيوان إلا دجاجاً كبير الحجم قد أطلقوه في أرضه التي يقع فيها بيته وهي مزرعة صغيرة.

أجلسنا في غرفة الاستقبال التي هي ذات آثاث خشبي مثل البيت نفسه الذي هو من الخشب ولكنه يبدو في مظهره من الخارج كأنما هو

مبني من الأسمنت لأنه مكسو بالورق الجيد الذي يبدو كأنه الطلاء المتقن.

والغــرفة صـــغيرة مثل مستوى البيوت الريفية في هذه البلاد التي كانـــت شيوعية، ومع ذلك هي أوسع وأفضل كثيراً من بيوت سكان المدن التي تكون من شقق ضيقة محدودة المساحة، ولك أن تعجب إذا عرفت أن نصـــيب الفرد في مدينة (لينين قراد) الكبيرة التي عاد إليها اسمه القديم: (بطـــرس بـــورج) يتراوح ما بين سعة أمتار مربعة وستة أمتار، هذا هو قانونها التي لا يستطيع الشخص ولو كان معه الأموال الطائلة أن يستأجر غـــيره، لأن الذي يؤجر البيوت هي الدولة، فهي التي قررت هذا، وأغلب سكان المدن السوفيتية السابقة على هذا المنوال.

وفـــي غرفة الجلوس عدة لوحات عربية، رغم كونهم لا يوجد فيهم مـــن يفهـــم العربية إحداها فيها البسملة (بسم الله الرحمن الرحيم) وأخرى سورة (ياسين) وكلها بمظهر جيد معتنى به.

حضر اللقاء مع رئيس الجمعية اثنان من العاملين فيها فبدأت الكلام معهـــم عـــن الغـــرض من مجيئنا إلى هذه البلاد وأنه من أجل الاجتماع بـــالإخوة المســـلمين والإطلاع على أحوالهم، ومعرفة ما يمكن أن تتعاون الـــرابطة بـــه معهم، وكان الأخ (عمار البحر) يترجم ما أقوله إلى اللغة الروسية التي لا يعرفون غيرها لكونهم ضيعوا لغتهم التتارية.

المسلمون في نوفو غرودك:

تحدثـــوا عن المسلمين في هذه المدينة فذكروا أن عددهم ٣٥٠ أسرة من عـــدد ســـكانها البالغ ٣٦ ألف نسمة، وأن المسلمين الأصلاء فيها هم من التتار، وكـــان فـــيها مسجد قديم جيد صادره الشيوعيون منهم في عام ١٩٤٧م وجعلوا

فـيه ست شقق حيث قسموه إلى طابقين لأنه عالي السقف وأسكنوا فيه ست أسر وأسرتين في المدرسة الملاصقة له التي هي جزء من مبناه.

والغريـب فـي أمـر هـؤلاء الشيوعيين أنهم يصادرون المساجد والمـدارس الإسـلامية بحجة أن الشعب يحتاج للسكنى فيها من دون أن يكلفـوا أنفسـهم أبسط النظريات المعروفة التي تلزم الدولة بأن تنظر في مصـالح المواطنيـن، ومـن أهمهـا توفير السكن لهم، ولكن الشيوعيين يضـيفون إلـى مصادرة البيوت سيئة أخرى وهي قولهم: إن المساجد لا لزوم لها لأن سياستهم تقوم على الإلحاد الذي ينكر وجود الخالق، وبالتالي يعتبر أن عبادته مضيعة للوقت.

هكـذا يعتقدون ولو كانوا منسجمين مع ما يعلنونه من حرية الشعب وديمقراطـية الحكـم لأبـاحوا للمتدين أن يتدين، وأن يفعل ما يملي عليه ضـميره، وأباحوا لغير المتدينين، أن يعتقدوا ما يريدون كما تفعل الدول الغربية في أوروبا وأمريكا.

قـالوا: وظـل هذا المسجد تقطنه ست أسر حتى أفلس الشيوعيون وسقطت الشيوعية وسقط معها الاتحاد السوفيتي فسعوا لاستعادة المسجد، وتم لهم ذلك في العام الماضي ١٩٩٣م.

ثـم أرونـا صورة المسجد قبل أن يستولي عليه الشوعيون، وكانوا يحتفظون بها في حرز حريز عندهم خوفاً عليها في زمن الشيوعية.

وتحدثوا عن الظروف التي يعيش فيه المسلمون في الوقت الحاضر، فذكـروا أنهم يعيشون في سلام مع الأكثرية من مواطنيهم غير المسلمين، وأنهم لا يعانون من أية تفرقة أو عنصرية.

إلا أن المشكلة الرئيسية عندهم هي عدم وجود المال وهذه حالة عامة لجميع أنحاء البلاد لا تقتصر على المسلمين دون غيرهم، وإنما الذي يشغل بالهم حسبما أوضحوه هو نقص المعرفة بالإسلام قالوا ونحن العاملين في الجمعية كلنا من المسنين، ونريد أن نهيئ جيلاً من المسلمين الشبان يواصلون العمل للإسلام عن علم ومعرفة لأننا لا نعرف شيئاً عن الإسلام.

فتحدثت معهم عن المنح الدراسية التي يمكن أن تقدمها رابطة العالم الإسلامي للمسلمين في هذه البلاد، وأخبرتهم أننا مستعدون لتقديم بعض المنح على أن تتكفل الرابطة بكل ما يلزم لذلك من نفقات ابتداء من تذكرة السفر، ثم نفقات الإقامة.

وعن أديان المواطنين غير المسلمين في هذه المدينة وناحيتها، ذكروا أن الأكثرية من البروتستانت يليهم الأرثوذكس ثم أقلية من الكاثوليك.

ومن طريف ما عرضوه علينا صورة بقرة يذبحها المسلمون في عيد الأضحى ونوهوا بأنهم يوزعون لحمها على المحتاجين.

وهذا من الشعائر الدينية التي كانت ممنوعة إبان الحكم الشيوعي لأن الاحتفال بالأعياد الدينية كلها ممنوع.

مرحاض ما وراء النهر:

أردت دخول الحمام بعد السير الطويل الذي لم نتوقف فيه فتقدمني صاحب المنزل الأخ (علي شهيتو فيتش) فخرجنا من المنزل إلى الحديقة الصغيرة المحيطة به وظللنا نسير فيها بعيداً عن المنزل فعرفت أن عادتهم هذه مثل عادة المسلمين في بلاد ما وراء النهر الذي صار يسمى الآن في الاصطلاحات الدولية، وسط آسيا وإن يكن هؤلاء الإخوة من أوروبا وليسوا في آسيا.

فالعـــادة التـــي رأيناها هناك أن يبعدوا المرحاض عن البيت بحيث يكـــون منفصلاً عن أبنيته يفصل بينهما فناء مكشوف مع أن بلادهم باردة تنزل درجة البرودة فيها في الشتاء إلى ٢٠ درجة تحت الصفر، والمظنون أنـــه في مثل هذا الجو البارد لا يستطيع الشخص أن يذهب بعيداً دون أن يصاب بالبرد لاسيما إذا كان قد خرج من مكان دافئ.

وقـــد ذكـــرت بهذه المناسبة أننا كنا في بلادنا نفعل مثل ذلك فنبني المرحاض من الطين ونجعله في ركن من فناء الدار (الحوش) فنعاني من الذهاب إليه في الشتاء مشقة من البرد.

ولكنـــنا لـــم نكـــن نستعمل الاستنجاء بالماء في المراحيض في ذلك الوقت وإنما كان الناس يمسحون بالمدر وهو الطين اليابس والحجارة، ثم يستنجون بالماء عندما يريدون الوضوء.

وهؤلاء الإخوة المسلمون فيما وراء النهر يستنجون بأخذ ابريق من المـــاء يســـتعمله من يفرغ من قضاء حاجته ولا شك أن وقوع الماء في المرحاض يجعله له رائحة كريهة، ويجلب الذباب في الصيف لذلك أبعدوه عن المنزل.

ومرحاضهم غالباً ما يكون من الخشب على هيئة غرفة صغيرة في أرضها حفرة مفتوحة هي مكان قضاء الحاجة.

وقـــد اســـتنتجت من حالتهم أنهم لا يترددون على المراحيض بكثرة لأن بلادهـــم تقـــل فيها الخضرات والفاكهة في الشتاء بل إنها كانت تعدم بالكلية قبل انتشار الزراعة بالبيوت المحمية لذلك يكثر الإمساك فيهم وعدم الحاجة الكثيرة إلى تكرار الذهاب إلى المراحيض في اليوم الواحد.

وقــد قرأنا في تاريخهم شيئاً يشهد لذلك وهو انتشار مرض القولنج الذي هو المرض الذي يصيب القولون لهذا السبب.

أما المزروعات في حديقة المنزل أو لنقل مزرعة المنزل لأنها على صــغرها مــزروعة بأشياء نافعة فإنها مزدهرة معتنى بها وأكثر ما فيها أشــجار الــتفاح المثقل بالثمار، وكذلك الطماطم والقرع فيه ثماره بكثرة، وقالوا: نأكل منها ونعطي أولادنا.

التفاح المطبوخ:

استرعت انتباهي كومة من التفاح الساقط على الأرض بدون انتظام فقلت لهم: إن هذا تفاح طيب كيف تتركونه على الأرض؟ فذكروا أنه سقط مــن شــجره وأنه كثير عندهم ولم يكونوا قدموا لنا منه شيئاً رغم كثرته، وذلــك لظــنهم أنه مما لا يستحق أن يقدم، فأسرعت الأخت حليمة تدخل البيــت وتخرج ومعها صحن مليء بتفاح مطبوخ، فأسرعنا نأكل منه من أجل الإطلاع فكان لذيذاً أكلنا منه حتى شبعنا وعندما غسلوا لنا من التفاح الطازج لم نكثر منه لأننا أكثرنا من هذا التفاح المطبوخ الذي طبخوه من دون تقطيع، بل إنك تأكل منه وتحرص على أن تحافظ عليه بين إصبعيك لأن قشره قد انسلخ عنه قليلاً.

وهــذه أول مرة آكل فيها تفاحاً مطبوخاً خالصاً، وإنما كنت أعرف الفطائر بالتفاح وهي التي يوضع التفاح بينها.

وقد ذكروا أنهم يكثرون من صنع الفطائر بالتفاح هذه.

وقــد صــورت بيــتاً قريــباً من بيتهم هو من الخشب الذي غيرته العوارض الجوية حتى أسود وقد وضعوا على سقفه شراعاً مشمعاً كاللباد الخفيف، ذكروا أنه من أجل وقايته من المطر.

إلى المسجد الجامع:

انتقلـــنا بعد ذلك إلى جامع (نوفو قرودك) مع الإخوة المرافقين على سيارة الأخ (شعبان) التي جئنا بها وسيارة أخرى واحد الإخوة كان يتبعنا علـــى دراجـــة له، فحدثونا عن أن الشيوعيين كانوا صادروا الكنائس من أهلهـــا وأبقوا لهم كنيسة واحدة، ولكنهم الآن بعد الشيوعية استعادوا جميع كنائسهـــم ويعـــيدون الآن ترميمها من التبرعات المحلية والخارجية، أما المسلـــمون فإن المسجد الوحيد في المدينة هو هذا الذي صادروهِ واسكنوا فـــيه عـــدة أسر، وتركوا المسلمين بدون مسجد ربما كان ذلك لقلة عددهم وهوانهم عليهم.

مسجد بلدة نوفو غرودك (تحت الترميم)

وأهـــم ما عملوه من التغيير فيه أنهم هدموا منارته وأزالوها بالكلية بحيث لم يبق منه ما يشعر بأنه كان مسجداً ذا منارة إمعاناً منهم في محو الأثر الإسلامي في المبنى.

ويقع المسجد على شارع اسمه (لينين٢٨).

وجدنا المسجد غير واسع إلا أنه عالٍ رفيع البناء، ورأيناهم أخرجوا الأســـر الســـاكنة فـــيه وكـــان فـــي المدرسة وحدها ثمان أسر وقد جعله الشـــيوعيون طابقين بحيث قسموه ما بين سقفه وبين الأرض بسقف لأنه عالـــي السقف وأسكنوا فيه الأسر المذكورة، وهو مبني من الخشب ومع ذلك هو قوي بحيث لم يتأثر بسكنى هؤلاء السكان.

ومن العجيب الغريب أنه وهو مسجد لا توجد فيه حمامات ملاصقة بطبـــيعة الحـــال وإنما توجد محلات الوضوء منفصلة عنه فصار هؤلاء الســـكان كلهـــم مع أطفالهم يخرجون إليها من أماكنهم، ينزل من الطابق الثاني من هم ساكنون فيه ويخرجون إلى العراء في الشتاء الشاتي ليذهبوا إلى الحمامات أو محلات قضاء الحاجة.

إضافة إلى الضيق الذي يعانونه من ضيق المسجد نفسه، ولكن هذه هـــي جنة الشيوعيين التي وعدوا بها الناس في الدنيا أما الأخرى فإنه لا أخرى لهم كما يزعمون!

وتقـــع المدرسة ملاصقة للمسجد من جهة الشمال وهي أيضاً مبنية بالخشب من طابقين، ولكنها ليست واسعة.

وعندما رأيت المسجد خيل إلي أنه أضير من جراء الإسكان الظالم فـــيه وإنه ربما لا يستطيع الصمود فذكر الإخوة المسلمين أنهم استشاروا

منهدسين مختصين قبل البدء في ترميمه فأفادوا أن حالته جيدة، وأنه يتحمل الإصلاح والسكن.

وقد جعلوا قسماً من مبنى المدرسة وهو الطابق الأعلى منها مدرسة أحضروا إليها بعض المقاعد الدراسية والثاني خصصوه لصلاة النساء لأن المسجد غير واسع، إذ تبلغ مساحته مع مساحة المدرسة ٢٠٦ أمتار مربعة.

جلسنا في المدرسة على مقاعد الدراسة لاستكمال المعلومات منهم عن هذا المسجد ومن أجل أن ندفع لهم بعض المساعدات المالية الفورية التي نحملها معنا من أجل هذا المشروع وأمثاله، وتبين لنا أن المسجد بغاية الحاجة إلى مساعدة فالمسلمون فقراء وهم في مكان ناءٍ لا يصل إليه القادرون على التبرع من إخوانهم المسلمين في العادة.

مع علي شاهيتو فيتش يساره المؤلف
والأشجار في حديقة المسجد متقلة بثمار التفاح

حضــــر الجلسة من بين من حضر محاسب المسجد وهو شيخ مسن اســـمه (موســـتى إبراهيمو فتيش) ومعنى موستى: مصطفى، وهو دكتور ينادونه بذلك لأنه طبيب متقاعد.

ومـــع أنه شيخ مسن وأنه يعرج بإحدى رجليه، بحيث لا يمشي إلاّ متوكأ علـــى عصــــا فإنه كان مليئاً بالحيوية والنشاط مثله في ذلك مثل رئيس الجمعية الإسلامية الذي يعد مسنّاً ولكنه قوي البنية مؤمن بوجوب العمل للإسلام.

وقد دفعنا إليهم مساعدة لم يكونوا يحتسبونها وهي كبيرة بالنسبة إلى التبرعات التي اعتادوا على تسلمها وبخاصة أنها جاءت إليهم معجلة غير مؤجلـــة، وهـــي أربعة آلاف دولار أمريكية نقداً، ثلاثة آلاف دولار منها للمساعدة على ترميم المسجد وألف دولار من أجل إصلاح المدرسة.

لقـــد كان الإخوة وبخاصة رئيس الجمعية يبكون وهم يتسلمون هذه المـــبالغ علـــى قلتها، وكان معنا الأخ (أبوبكر شعبانوف) رئيس الجمعية الإسلامية في روسيا البيضاء، فسر لذلك غاية السرور لأنه الذي أحضرنا إليهم فكان له نصيب من أجر هذا التبرع.

تكلمـــت فيهم بكلمة بينت الغرض من مجيئنا إلى بلادهم، واعتذرت إليهم بأننا لا نحمل مبالغ كبيرة من المال لأن المسافر لا يحمل عادة أموالاً كثـــيرة، وإنـــه يمكنهم إذا أنفقوا النقود كلها ولم تكف لترميم المسجد لأن العمل كان كثيراً فيه، أن يكتبوا إلينا في الرابطة بوساطة الأخ عمار البحر الذي هو حاضر معنا الآن أو بوساطة الأخ أبوبكر شعبا نوف أو بوساطة مفتي روسيا البيضاء الأخ (إسماعيل مصطفى) والأفضل أن يصدق على كتابهم أكثر من واحد من هؤلاء وسوف ننظر في طلبهم ونسعى لإرسال مبلغ آخر يكفي للترميم.

كمـــا أخـــبرتهم وأنا أعرف ضحالة معرفتهم بالإسلام وعدم وجود متعلميـــن تعلمـــاً إسلامياً منهم أنهم إذا وجدوا شخصاً قد حصل على قدر كافٍ ولو قليلاً من المعرفة بالدين الإسلامي وهو يعرف لغتهم كأن يكون إماماً في روسيا أو في تتارستان فإننا سوف نخصص له راتباً في الرابطة لأجل أن يتفرغ لإمامتهم في الصلاة وإرشاد كبارهم وتعليم صغارهم، لأننا يصـــعب علينا الآن أن نعثر على مثل هذا الشخص وبخاصة أن إخوانهم المســـلمين التتار الموجودين في دول البلطيق الثلاث يحتاجون مثلهم إلى مثل ذلك المرشد.

وقد سروا سروراً عظيماً ورأيت بعضهم قد اغرورقت عيناه بالدموع.

وبعـــد ذلـــك قمنا بجولة على الأرض الواقعة بجانب المسجد وهي أرض تابعـــة له منذ بنائه قبل عهد قديم لا يعرفون تاريخه بالضبط فرأينا الأرض بســـتاناً خصباً قد تشابكت الأعشاب الريانة والخضر فوق أرضه حتى إنني لم أستطع أن أسير فوقها لألتقط صورة على بعد مناسب للمسجد لشـــدة التفاف العشب ووجود بعض الأعشاب الشائكة بينها والتي هي ذات أغصان عالية تصل إلى الساق التي لا يغطيها الحذاء.

وفي هذه الأرض أشجار مثمرة أكثرها ظهوراً أشجار التفاح الأحمر والأبيض، مع أن التفاح الأحمر عندهم قليل.

في بيت المحاسب:

ألـــح علينا أخونا الدكتور (موستى إبراهيمو فيتش) محاسب الجمعية الإســـلامية فـــي أن ندخل بيته ونشرب فيه شيئاً أو نطعم طعاماً، ولم يكن

الوقـــت يســمح بذلك ولكن الإخوة المرافقين ألحوا أيضاً أن نجيب دعوته بحيث نبقى في بيته ولو دقيقة واحدة فهكذا طلب.

دخلـــنا بيته الذي هو مثل أكثر البيوت هنا من الخشب محاط بحديقة أو مزرعة صغيرة فيها تفاح قد أثقلته ثماره، والتقطنا صورة تذكارية معه ومع ابن له رجل في حدود الثلاثين ثم جلسنا في غرفة جلوس داخل البيت حيث أحضر مقداراً كبيراً من التفاح أصر على أن نحمله معنا وقد حملناه بالفعل بعد أن غسله وأكلنا منه في الطريق.

حدثـــنا الأخ الدكـــتور (موستي) أو مصطفى وهو يكاد يطير فرحاً بدخول إخوة له قدموا من جوار الكعبة المشرفة إلى بيته بأنه طبيب بشري حـــارب أثـــناء الحرب العالمية الثانية وكسرت رجله أثناء الحرب فصار يعرج من أثر ذلك وهذا هو سبب عرجه.

ونـــوه الأخ الدكـــتور بأنه كان قد حصل على نياشين عديدة تقديراً لبطولـــته وما أداه من خدمات وأسرع يحضر النياشين المذكورة لنلتقط له صورة تذكارية معنا من مصورة له ومن المصورة التي معنا.

فالتقطنا له صوراً منها هذه.

إلى بلدة إيفيا:

ودعـــنا الإخـــوة الكـــرام أهـــل (نوفو غرودك) وانطلقنا مع طريق يغادرهـــا كمـــا دخلها وسط غابات ملتفة والأخ (أبوبكر شعبانوف) رئيس الجمعية الإسلامية هو الذي يسوق السيارة وهي يابانية من طراز (مازدا) يســـوقها بنفســـه ربما كان حصل عليها بسبب كونه مدير مدرسة ثانوية عصرية تدرس اللغة الإنكليزية.

وكـــان يسرع بسيارته حتى إنني كثيراً ما أترك مقتضيات المجاملة فأرجوه أن يخفف من سرعته.

وتـــبلغ المساحة من (نوفو قردوك) إلى (إيفيا) ٣٧ كيلومتراً، وهي مســـافة قصـــيرة غير أن الوقت عندنا محدود ولدينا برنامج للوصول إلى مدينة أخرى تبعد ١٥١ كيلومتراً عن العاصمة منسك.

مـــررنا بجسر آخر فوق نهر (نيومان) فوقفنا عليه إذ التقطنا صوراً تذكارية فيه.

وقـــد ذكـــر الأخ (أبوبكر شعبانوف) وهو من أهل المنطقة، أن هذا النهر رغم كونه لا يعد من الأنهار الكبيرة وإنما هو متوسط السعة فإن فيه دوامات خطرة قد تهلك من يقع فيها إذا كان ماء النهر كثيراً.

هذه إيفيا:

وصلنا مدينة (إيفيا) وقد أشار مرافقنا الأخ أبوبكر شعبانوف إلى أنها بلدتـــه الأصـــلية فقـــد ولد فيها ثم انتقل للعمل في العاصمة منسك وأشار أبوبكـــر إلـــى بـــيوت عديدة في الشارع الذي دخلنا منه إلى المدينة يقول باعـــتزاز كلهم مسلمون ويشير بذلك إلى أهل هذه البيوت، وليس إلى أهل (إيفـــيا) كلهـــم، إذ تبلغ نسبة المسلمين فيها نحو ١١./. فعدد سكانها تسعة آلاف نسمة فيهم ألف نسمة من المسلمين.

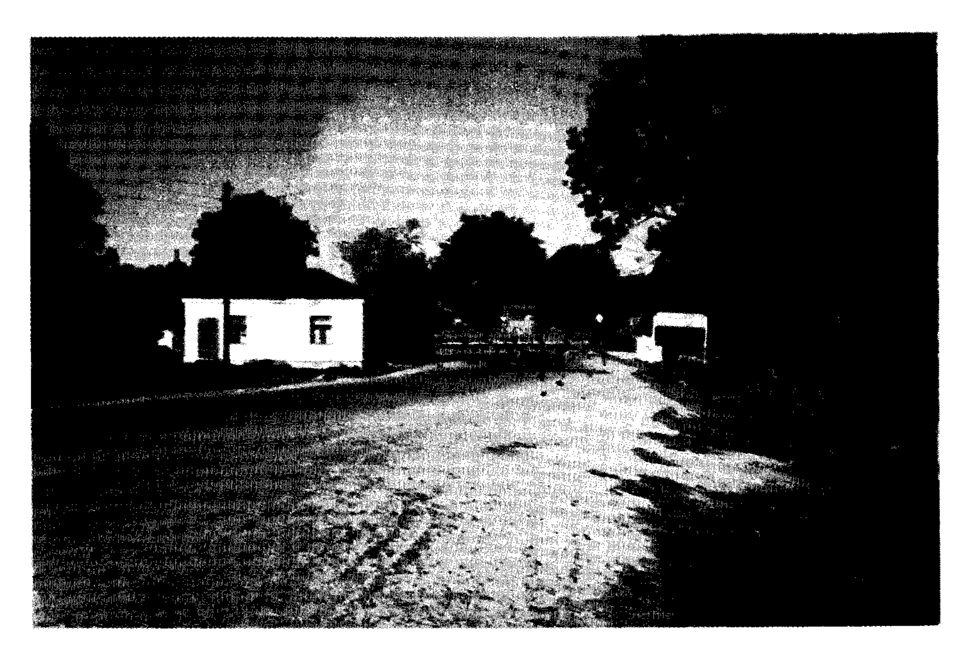

مدخل بلدة إيفيا

وقفـــنا عـــند بيت أخي مرافقنا الأستاذ (أبوبكر شعبانوف) وهو بيت جمـــيل مـــن الخشب الجديد أو المجدد تحيط به حديقة صغيرة فيها زهور متعددة الألوان، وقد ظللنا فترة ننتظر وصول الأخ وذلك في شارع البلدة الـــذي تغســـله الشمس الحارة في هذه البلاد الثالجة فقد كان الجو صاحياً، لحسن حظنا منذ أن فارقنا منسك، وذلك مكنني من التصوير عن بعد ومن التجول في أي جهة أردت.

ومن الطريف في موضوع الجو أننا كنا نرتدي بدلات الصوف خوفاً من بـــرد أصـــابنا أمس وإذا بأحد المارة من أهل البلدة يمر وليس عليه من ملابسه إلا ســـروال وحـــيد فلـــيس على جسمه الأعلى شيء وربما كان سبب ذلك أنه يتطلب أن يتزود جسمه من الشمس قبل احتجابها أو برودتها في الشتاء.

مسجد إيفيا:

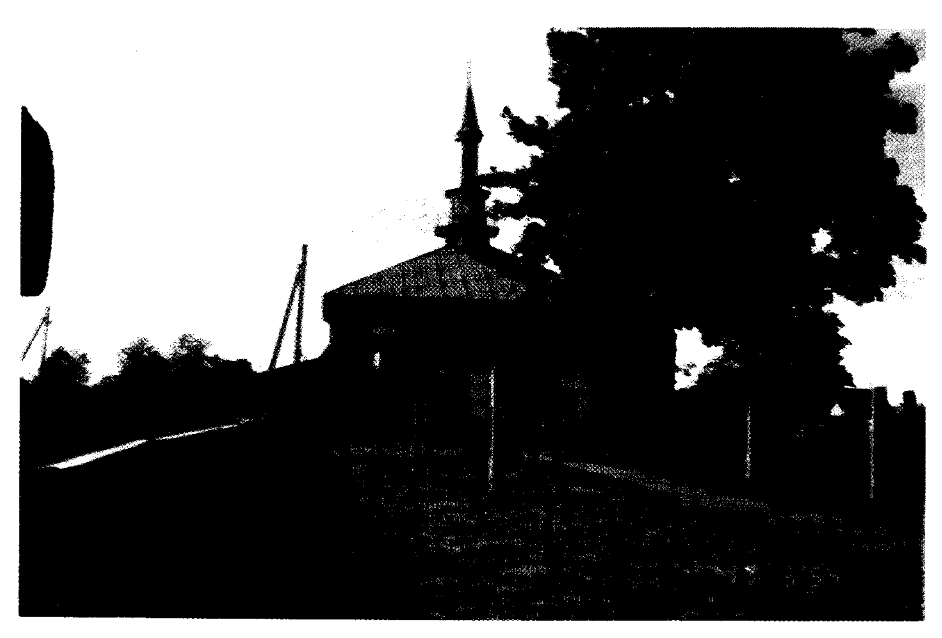

مسجد إيفيا ومقدمته الواسعة

مــررنا ببيت إمام المسجد (سليمان صموئيل عاليافيتش) ورئيس الجمعية الإسلامية في (إيفيا) (مصطفى باكا فلافيتش) وذهبنا إلى رؤية المسجد.

رأيــنا المســجد علــى البعد ظاهر الشعار، شامخ المنار، وليس ذلك من ارتفــاع بمئذنــته، وإنما السبب ارتفاع موقعه هو ومنارته أعلى منه وقد طليت بطــلاء من المعدن الأبيض أما سائر طلائه فهو أخضر، ويدخل إليه من بوابة خارجــية لفناء له طويل جداً مسور بسور حصين فظللنا نسير على أقدامنا حتى وصلنا المسجد فإذا بتاريخه مكتوب عليه في لافتة، باللغة الروسية تقول:

(وزارة الــثقافة في بيلاروس السوفيتية تذكار معماري مسجد، بني عام ١٨٨٢م وبقي على حالته هذه إلاّ أنه جدد في عام ١٩٤٧م).

أخبرونا أن الحكومة هي التي رممته لأنه من الآثار القديمة التي يقل

وجودهـــا فـــي بلادهم، واعتبرته من الآثار التي لا يجوز أن يحدث فيها شيء من تغيير أو تحوير إلا بإذنها.

وهـــو الآن مســـجد معتاد من الداخل عامر تماماً، بل لا ينقصه أي شـــيء إلا التدفـــئة التي تحتاج إلي نفقة كبيرة نسبياً من أجل تجديد أنابيب البخار الحار فيها إضافة إلى المحابس والخزانات إلخ.

المســـجد مـــرتفع الســـقف بحيث إن أرتفاع سقفه أكثر من ارتفاع طابقيـــن، ومجمل من الداخل وقد كتبوا على محرابه (لا إله إلا الله الملك الحـــق المبين) ولا فتة أخرى (الله جل جلاله) وثالثة الآية الكريمة ﴿ **كُلَّمَا دَخَلَ عَلَيْهَا زَكَرِيَّا الْمِحْرَابَ وَجَدَ عِنْدَهَا رِزْقاً**﴾

وفـــي أنحاء المسجد لافتات عربية جميلة لم أر معها لافتات في لغة أخـــرى غير العربية، ورغم بعد هذه البلاد عن البلدان العربية، وانقطاع الصلة بينها وبين البلدان العربية منذ قرون.

في محراب مسجد إيفيا مع رئيس جمعية المسجد
على يميـــني وعلى يســـاري حســـن أزمـــيرلي

وقد قلت في نفسي بهذه المناسبة إن العرب الذين لا يسعون لنشر الدين الإسلامي وتسهيل اعتناقه يقصرون في حق قومهم وثقافتهم ولغتهم، لأن من دخل في الإسلام يتعلم أشياء من العربية كصلاته وعباداته، بل يصبح تعلم اللغة العربية له هدفاً سواء استطاع ذلك أم لم يستطعه.

ومن اللوحات في المسجد لوحة غريبة مكتوبة بالعربية لم أر مثيلاً لها إلا في مسجد في مدينة في ليتوانيا ذكرت ما شاهدته من أمرها في كتاب (دول البلطيق).

وتقول اللوحة بالعربية: لا إله إلاّ الله، جبرائيل ملك الله، لا إله إلاّ الله آدم صفي الله، لا إله إلاّ الله، إبراهيم خليل الله، لا إله إلاّ الله يوسف صدّيق الله، لا إله إلاّ الله داود خليفة الله، لا إله إلاّ الله عيسى روح الله.

ومنبر المسجد من الخشب القديم المجدد أي الذي طلي بطلاء جديد فأصبح جميل المنظر وفي خلفه وهي الجهة الشمالية له شرفة إضافية يصعد إليها بدرج ويصلي فيها الرجال إذا امتلأ بهم المسجد وخلفه مكان لصلاة النساء، ومن الأشياء اللافتة للنظر أننا رأينا في المسجد سلة من الزهور الجميلة، ولم يكونوا وضعوها من أجل زيارتنا إذْ لم يكونوا يعلمون بها بدليل أننا لبثنا فترة ونحن نبحث عن إمام المسجد في بيته ليفتحه لنا لأننا وجدناه مغلقاً، كما أن رئيس الجمعية الإسلامية لم يكن لديه علم بوصولنا.

وفي المسجد صف من الكراسي يصلي عليها العاجزون من الرجال عن الركوع والسجود بسبب عجزهم عن ثني أرجلهم.

وهذه عادة رأيتها شائعة في مساجد البلدان الباردة وهي أن طائفة من المسنين الذين هم كانوا رواد المساجد على الأغلب لا يستطيعون

الـــركوع أو الســـجود على الأرض بسبب تصلب أو أوجاع في أرجلهم، وغالـــباً ما يكون ذلك في الركبة من الرجل، ولا توجد مثل هذه الكراسي في البلدان الحارة التي لاحظت أن وجع الأرجل وبخاصة الركب فيها هو أقل منه في البلدان الباردة بكثير.

وربمـــا لا يكون السبب في ذلك هو البرد البرد وحده، ولكنه النظام الغذائـــي لهـــم الذي تقل فيه الخضرات والسلطات وتكثر فيه للحوم بسبب برودة الطقس.

في المدرسة الإسلامية الملحقة بمسجد بلدة إيفيا مـــع الأستاذ سليمان صمويئل عليافيتش الإمـــام ومصطفى باكافلافيتش رئيس الجماعة الإسلامية

وانتهزت الفرصة فجلست عليها مع الإخوة رئيس الجمعية في (إيفيا) ورئيس الجمعية الإسلامية في روسيا البيضاء وغيرهم، والتقطنا الصورة التذكارية.

وقـد رأيـت دليلاً إضافياً على أن البرد يشتد في الشتاء في هذه المنطقة مـع أن ذلـك معروف وهو في أبواب نوافذ المسجد فقد جعلوها أبواباً مزدوجة أي يكون للنافذة بابان أحدهما خلف الآخر بغية اتقاء البرد الذي يأتي منها.

الشجرة المجبرة:

تجبير الكسر في عظام الإنسان معروف الآن وهو علاج الكسور في عظام الأرجل والأيدي وكنا نعرف ما لا يعرفه أبناؤنا في الوقت الحاضر وهو تجبير الأواني الخشبية، فكانت القصعة من الخشب سواء الصحفة أو القدح أو (الميقعة) تجبر إذا انكسرت بشريط وتستعمل هكذا سنين طويلة، ولا يحسن تجبير الأواني هذه إلاّ خبير.

أمـا تجبـير الشجرة فإنه ما لا نعرفه، وقد رأيته اليوم إذْ رأيت في فـناء المسجد المكشوف شجرة كبيرة قد انشقت طويلاً بسبب كونها ذات شـعبتين كبيرتين كل شعبة فيها أغصان وأوراق ثقيلة ربما كان الثلج قد ركـبها فأثقلهـا فلـم يتركوها لدهرها لتموت أو يموت أحد فرعيها وإنما سارعوا إلى تجبيرها عن طريق حزمها بحزام من الحديد!

إنهم فعلوا ذلك رغم كثرة الأشجار عندهم، بل إن بلادهم كلها تكون غابة واحدة لو لا ما قطعوه من الغابات للانتفاع بمكانه للزراعة ونحوها.

ولو كانوا في بلادنا لتركوها أو ربما قطعوها وغرسوا شجرة أخرى بديلـة عـنها، وذلـك مـن أجل الفرق الكبير بين أعمار الأشجار عندنا

وعــندهم، فالأشــجار عندهم لا تنمو إلا في فصل الصيف الذي يلتحق به قلــيل مــن وقت الربيع يبدأ في أول مايو حتى إذا حل الخريف في شهر أكــتوبر تســاقطت الأوراق، وجفت الفروع ووقف نموّ الأشجار أما في بلادنا فإن نمو الشجر يستمر طول العام وبخاصة في المناطق الحارة مثل مــنطقة مكة المكرمة وما حولها من تهامة، ولذلك تختلف أعمار الأشجار التي تتساوى في ارتفاعها عندنا وعندهم، فإذا قطعوا شجرة يمكن أن تكون في طول قامة الرجل مرتين في مدة سنة أو سنتين في بلادنا، فإنها تحتاج إلى أكثر من ضعف هذه المدة لتصل إلى ذلك الطول في بلادهم.

ويقــع المســجد في محلة المسلمين تحيط به منازل المسلمين ولكنه لــيس فيه محلات للوضوء وربما كان ذلك لهذا السبب أي لكون المسلمين المصلين يأتون من بيوتهم، قد توضأوا فيها.

منزل من الخشب في بلدة إيفيا

غير أن المشكلة واجهتنا نحن فقد كنا بحاجة إلى الوضوء لنصلي في المسجد الظهر والعصر جمعاً، لذلك ذهب المرافقون يبحثون عن بيت يجدون فيه مكاناً للوضوء وليس المراد من ذلك مكان البول، فذلك غير موجود حتى دخلنا أحد البيوت وتوضأنا من حوض المطبخ أي من المغسلة التي تغسل فيها الصحون.

وما رأيت في بلد من العالم أقل احتفاء بمحلات الوضوء ومحلات قضاء الحاجة من الدول الشيوعية، هكذا رأيت الحال في الصين، وأوروبا الشرقية والاتحاد السوفيتي سابقه ولاحقه.

ثم عدنا للمسجد الذي يقع على شارع عرضه ٦ أمتار ليس فيه تشجير وإن كان محاطاً بالخضرة فأهل البيوت كلهم قد غرسوا أشجاره في أسوار بيوتهم وقصوها من أجل ألا ترتفع أكثر من متر.

وهذا أيضاً من النقص في شوارع المدن الشيوعية ما عدا الشوارع الرئيسية والحدائق والميادين العامة فالأشجار فيها كثير، بل إن التشجير هو العام.

ومن الأشياء التي رأيتها عند باب المسجد بط كبير سائب يتبختر ببياضه الناصع وحركته السلحفائية التي يخيل إليك أنها حركة تباه وكبرياء.

ومنظر بنية في حدود التاسعة إذا رأيتها على البعد خيل إليك أنها من بنات الجميلات الباريسيات لأنها بيضاء وشعرها أصفر، ولكن لباسها لباس ساتر فهي من بنات المسلمين.

وصلينا الظهر والعصر جمعاً مع جماعة كانوا معنا يجمعون مثلنا مع آخرين صلوا العصر فقط، لكونهم كانوا صلوا الظهر في وقتها قبل ذلك.

مبنى المركز الإسلامي:

غادرنا المسجد بالسيارات إلى مبنى المركز الإسلامي الذي يعملون على إنشائه في ناحية من البلدة وذلك في الساعة الرابعة.

وجدنا مبنى المركز قوياً بالأسمنت واسعاً، يعتبر بناؤه سخياً بالنسبة إلى الوضع الاقتصادي الذي عليه البلاد.

وقد بنوه على هيئة سنام البعير ووضعوا عند قاعدة السنام حيث نضع نحن وأمثالنا السقف عادة سقفاً مستعاراً يفعلون ذلك من أجل أن تتزلق الثلوج والأمطار عن هذا السقف المسنم.

ذكروا أن أرض المركز هبة من الحكومة، وهي أرض تعتبر ريفية لأنها تقع في أرض ريفية مجاورة لمساكن المسلمين، والأرض كلها في البلدان الشيوعية ملك للحكومة.

المركز الإسلامي (تحت التأسيس) في إيفيا

وقد وجدناهم يعملون في تكملة ما أقاموه من المركز، ولم يبنوا أبنية جديدة لأن النفقة وقفت بهم عن البناء حيث انفقوا كل ما كانوا جمعوه.

وقد قدمنا لهم خمسة آلاف دولار معونة للمركز وللمسجد مع أن المسجد مكتمل، ولكنهم ذكروا أنه يحتاج إلى نظام للتدفئة.

وقد سلمناهم النقود عند المركز بحضور رئيس الجمعية وخازنها، وعدد من أعضائها، وطلبنا من مرافقنا (أبوبكر شعبا نوف) أن يكتب إلينا بعد ذلك بكيفية صرفها حتى يمكننا أن نرسل لهم زيادة من المعونة تساعدهم على بناء المركز لكننا لا نحل مبالغ مالية كبيرة في السفر.

وذكروا أن من أهم ما في المركز قاعات للاجتماعات في المناسبات العامة للمسلمين وفصولاً دراسية وقد رأيناهم بالفعل قد بنوا ذلك بصفة جيدة.

مغادرة إيفيا:

ودعنا الإخوة الكرام من أهل (إيفيا) وغادرناها في الرابعة والنصف من دون وجبة غداء معتادة ما عدا فطيرة التفاح التي كان أعطانا إياها رئيس الجمعية.

وتبعد (قرودنه) التي نقصدها الآن (١٥٠) كيلومتراً، ولم نذق أي شراب منشط من قهوة أو شاي ونحن قد اعتدنا عليها من قبل إذْ لم يدعنا أحد إلى ذلك، ولم يقدم لنا شيئاً منه، وذلك منذ أن غادرنا (منسك) في الصباح.

وكان مغادرتنا إلى (قرودنه) في الرابعة والنصف عصراً.

وقد انطلق الأخ أبوبكر شعبانوف، بسيارته بسرعة قائلاً إننا سننطلق الآن بسرعة لأننا لن نعرج على بلدة أخرى قبل قرودنه.

ومـــا يزال المحيط بنا غابات كثيفة حولها أو بينها مساحات قطعت أشجارها وحولت إلى حقول للزراعة، وذكر الأخ أبوبكر أن هذه المنطقة هي مسرح ذكرياته ومرابع صباه، فسألته عن الوحوش الموجودة في هذه الغابـــات؟ فقال: لقد قابلت ذئاباً وأيايل- جمع أيِّل وهو الشبيه ببقر الوحش العربي، إلاَّ أنه أكبر منه وأطول قرودنه.

وذكر أن الصيد هنا محدد، والأغلب عليه المنع حتى الأرانب- على كـــثرتها- ممنوع صيدها، وذكر أن الروس يعني غير المسلمين يصيدون الخنزير البري مع أنه سبع قذر متوحش يأكل الجيف والحيوانات الصغيرة مع ذلك يأكلونه على قذارته.

وذكـــرت بهـــذه المناسبة أياماً لي مضت في بولندا حينما زرتها في أواخر شهر أبريل عام ١٩٨٦م- ١٤٠٦هـــ وكان ذلك إبَّان انتشار الوباء الـــنووي المنبعـــث مـــن المفاعل الذري في شيرنوبل قرب مدينة كييف عاصـــمة دولة أوكرانيا في الوقت الحاضر، حيث كان الرفاق معنا آنذاك يـــتحدثون عـــن روسيا البيضاء وقرب حدودها من (شيرنوبل) وقال الأخ أبوبكـــر: إن (شيرنوبل) لا تبعد إلا ٨ كيلات عن حدود روسيا البيضاء، وقد كنا نقترب ونحن نسير من حدود بولندا وإن كنا لا نزال بعيدين عنها فـــي أراض كانت تطالب بها بولندا تدعى أن الاتحاد السوفيتي ضمها إلى أراضـــيه بعد الحرب العالمية الثانية، وذكر أنه لم يسمع الآن أية مطالبة لبولـــندا بـــأي أرضٍ فـــي جمهوريتهم روسيا البيضاء، وقد ذكرت حديث الرحلة إلى بولندا في كتاب (مع المسلمين البولنديين) وهو كتاب مطبوع.

لا مقاهي ولا استراحات:

أمعن الأخ أبوبكر بسيارته في الطريق وعادت الحقول الخضر سواء أكانت خضرتها خضرة الأعشاب الوحشية وهي البرية أم خضرة الحقول المزروعة تكتنفها الغابات الكثيفة أحياناً والخفيفة أحياناً أخرى.

وقد عجبت من شكوى القوم من الحالة الاقتصادية في بلادهم حيث يقولــون: إنهم ليست عندهم معادن غالية كالنفط، مع أن بلادهم فيها مما ينــتج الألبان واللحوم ويتربى عليه الحيوان الكثير، وما شبهتها إلا بأرض الدانمــارك التــي ليســت فــيها صناعات كبيرة ولكن فيها عوضاً عنها صناعات خفيفة وصناعات أو لنقل أعمال مما يعملِ من الألبان ومشتقاتها ومن لحوم الحيوان ما جعل اقتصادها من أكثر اقتصاديات الدول ازدهاراً.

ولا شــك أن المقومات والإمكانات للاقتصاد المزدهر غير موجودة فــي هذه البلاد، حيث إنها تقضي الآن ما يعتبر بمثابة النقاهة من المرض الشــيوعي الذي تخلصت منه، وإن كان القائمون على الأمر فيها أكثرهم من تلاميذ الشيوعيين وممن تربوا في كنف الشيوعية لكونهم هم الجماعات الوحــيدة القادرة على ممارسة الحكم في البلاد ويحتاج الأمر إلى سنوات مــن الجد والاجتهاد حتى يوجد رجال على علم بالإدارة الصحيحة، وعلى درجــة من التربية الوطنية تمكنهم من تغيير نمط الاقتصاد، بل من تغيير نمط الإدارة كلها في البلاد.

وقــد صـــدم كثير من عامة الناس في هذه البلاد الشيوعية السابقة ومثيلاتها من البلدان التي تخلصت من الشيوعية لكونهم تركوا الشيوعية،

ومـــع ذلك لم يصبحوا أغنياء كشعوب أوروبا الغربية، وكأنهم نسوا أو لم يعـــرفوا أنـــه لا يكفي المرء لكي يكون غنياً أن يتخلى عن الأسباب التي أفقرته، وإنما لابد أن يأخذ بأسباب الغنى، ومن أهم ذلك الإدارة الصحيحة والتدبير السليم الذي لم يتوافر لديهم حتى الآن.

وقد بحثنا عن أية علامة لوجود مقهاة أو مقصف نشرب فيه فنجاناً مـــن القهـــوة أو الشاي، أو حتى الماء المعدني النظيف ونتناول معه شيئاً خفيفاً من الطعام كشطائر الجبن مثلاً فلم نجد.

وقال الأخ أبوبكر وهو الخبير بهذه البلاد: إنه لا يوجد أي شيء من ذلك إلا بعد حوالي (٥٠) كيلومتراً وعندما وصلنا المكان الذي ذكره رأينا لافتة عليها رسم شوكة وملعقة تشير إلى طريق متفرع من الطريق فعدلنا عـــن الطـــريق الـــذي كنا نسير فيه وهو طريق دولي ينطلق من موسكو وينتظم روسيا البيضاء حتى يصل إلى (وارسو) عاصمة بولندا ثم وصلنا إلى المكان المنشود فوجدنا المقهاة المأمولة فيه مغلقة منذ وقت.

فعدنـــا إلـــى الطريق العام وواصلنا السير متجهين إلى جهة الشمال الغربـــي وأكوام الأعلاف الضخمة التي حشوها من الأعشاب الملتفة ترى بكـــثرة فـــي هذا الريف الأخضر يدخرونها لماشيتهم في الشتاء حينما لا تستطيع أن ترعى بسبب البرد والثلوج.

الريف قبل الوصول إلى قرودنه

ومـــن المـــناظر اللافـــتة للانتباه منظر فتاتين من ذوات الشعر الأشقر حـــتى لتـــبدوان أكـــثر شـــقرة من نساء باريس وهما واقفتان على الطريق ترجوان أن تجدا من يحملهما بسيارته، لأنهما لم تجدا وسيلة أخرى للانتقال.

هـــذا والأخ (أبوبكر شعبان) يضغط على صمام الوقود في سيارته فيجـــن جنونها ولكن الطريق طويل، وقد بقي الآن لوصولنا إلى (قرودنه) ٥٠ كيلومتراً ولم تتغير خضرة الريف، ولا وجود الأبقار الكبيرة الحجم، الكثيرة العدد، وقد ذكرت حينما رأيتها رابضة وسط هذا الريف الأخضر الـــريان ما كنت سمعته وأنا صغير من بني قومنا وهو قولهم في وصف العشب الغامر، والربيع الملتف بأن الماشية فيه تربض الضحى يريدون أنه

لكثرته إذا بدأت الماشية الرعي فيه في الصباح شبعت في الضحى بمعنى امتلأت بطونها منه فربضت فيه تاركة الرعي وقالوا أيضاً في مثله: (يشبع فيه البعير معقول) والبعير المعقول هو الذي ربطت يداه أو إحداهما بعقال، وهو حبل قوي يمنعه من أن يسير عليها، فيشبع من العشب وهو معقول بعقاله لا يحتاج في طلب المرعى إلى أن يسير.

وإلى جانب الأبقار رأينا على قلة بعض الخراف الصغيرة الحجم الكثة الصوف، وهي ترعى بلونها السكري الذي يشبه القهوة المشوبة بالحليب.

بلدة سكيدل:

وقبيل الساعة السادسة دخلنا بلدة (سكيدل) وتبعد عن مدينة قرودنه التي نقصدها ١٨ كيلومتراً.

وهذه البلدة فيها عدد قليل من المسلمين، هاجروا إليها منذ فترة قريبة، وليس لهم فيها مسجد، وعند مدخلها شاهدنا جماعة من الناس قد تجمعوا للقط البطاطس، لأن هذا هو موسمه كما تقدم.

وفي هذه البلدة مصنع للسكر كبير على يسار الطريق، وذلك لأن البلدة تزرع مقادير كبيرة من الشمندر الذي يستخرج منه السكر.

وعلى ذكر السكر أوضح لنا الإخوة المرافقون أن القوم هنا أي في روسيا البيضاء يسمون السكر مثلما عليه بالعربية (سُكر) بخلاف الروس الذين يقولون له بلغتهم (ساخر) بفتح الخاء.

كما رأينا عند المدينة أكوام التبن المتخلف من زراعة القمح في مقادير ضخمة.

ولـــم نقف في بلدة (سكيدل) وإنما واصلنا السير إلى مدينة (قرودنه) التـــي غـــدت قريبة فمر الطريق فوق جسر جيد، ورأينا عنده أعداداً من الـــناس واقفيـــن بجانب الطريق، ينتظرون من يحملهم إلى المدينة، وربما كانوا ينتظرون إحدى الحافلات.

ومـــررنا بعدة مصانع في أيمن الطريق، ومنها مصنع كبير للحرير الصناعي، تجهز فيه المواد الأساسية للحرير الصناعي، كما مررنا بمحطة لتوليد الكهرباء.

هذه قرودنه:

كان أول ما رأيناه من مدينة (قرودنه) أبنية حكومية عالية من التي تبنـــيها الدولة شققاً سكنية تؤجرها بإيجارات زهيدة على عمالها وموظفيها وبعضها تؤجره لسائر الناس، ولا تخلو ضواحي أية مدينة شيوعية منها، لأنها هي الوسيلة الوحيدة المتوفرة للإسكان الشعبي.

وقـــد بدت هذه الأبنية العالية المتعددة الطوابق على البعد لارتفاعها، وبعضـــها مطلي بطلاء أبيض، وعندما اقتربنا من المدينة ظهرت منازل متطامـــنة كانت مختفية بين الأشجار، وبعضها مطلي بطلاء أخضر حتى كاد يختفي في هذا الجو الأخضر.

وفي ضاحية المدينة كثر منظر الجماعات من الناس الذين ينتظرون الحافلات، ونوه المرافقون بأن وسائل النقل العام عندهم سيئة.

ثـــم دخلـــنا المديـــنة فوصلنا بسرعة إلى قلبها القديم وهو ذو بيوت أسمنتية متلاصقة وبعضها من الآجر المطلي بطلاء يظهره بمظهر البيوت الأسمنتية، وأكثرها من طبقات ثلاث.

وقفـــنا للحظـــة في ميدان في هذا القسم القديم من المدينة رأيت من كثرة الذين تجمعوا في انتظار الحافلات أو وسائل النقل العامة الأخرى ما عجبت منه والتقطت صورة لجماعة منهم فرأيتهم الأوروبيين البيض الذين نعـــرفهم مـــن قبل، غير أن أمارات الصحة والغذاء الكافي لا تبدو على وجوههـــم، بـــل إنهم يبدون على العكس، كأنما هم كلهم من الفقراء، حتى ملابس النساء التي اعتدنا على أن نرى الأوروبيات يعتنين بها، بل يتغالين في شرائها هي هنا معتادة أو أقل من ذلك وأكثرها ملابس رخيصة ولكنها فـــي معظمهـــا لا تعتـــبر مـــن الملابس المتبرجة، ما عدا بعض الفتيات الصغيرات فإنهن يلبسن ملابس قصيرة غير محتشمة.

ينتظرون الحافلات في قرودنه

والمديـــنة ذات ضـــواح مـــتفرقة لذلك لا يبدو قلبها مزدحماً مع أن سكانها وحدها يبلغون (٣٦٠) ألفاً.

وأكثر ما يميزها في نظرنا هي الحدائق العديدة الواسعة التي لا يكاد يخطـئها البصـــر منذ أن دخلنا إلى المدينة، ولا شك أن سبب ذلك سهولة اتخـــاذ الحدائـــق عندهم فهي تشرب من ماء السماء، أو من ذوب الثلوج وبلادهم كثيرة الأمطار والثلوج، إضافة إلى عدد من الأنهار.

ومررنا بالمعهد الطبي وفيه طلبة مسلمون كثير من باكستان ولبنان وســـوريا وفلســـطين يـــأتون للدراسة في هذه البلاد بسبب رخص رسوم الدراسة فيها بالنسبة إلى الدراسة في بلدان أوروبا الغربية وأمريكا.

لبـــث القوم فترة يسيرون وهو يسألون عن المركز الإسلامي الذي جئنا إلى هذه المدينة من أجل الإطلاع عليه، وعلى المؤسسات الإسلامية الأخـــرى، حـــتى دخلنا شقة من بناء مؤلف من عدة طوابق فوجدنا مدير المركـــز الإســـلامي فيها مع بعض الإخوة من الطلبة العرب العاملين في الميدان الإسلامي وقد اجتمعوا هنا لاستقبالنا.

اســـم مدير المركز الإسلامي (سرور نورالدين) لم يعلق بذهني من اســـمه غـــير هـــذا لأنه تبين أن المركز الإسلامي إنما هو اسم على غير مســـمى، وإن كان بعض الإخوة محبي الخير من العرب قد نوهوا به لقلة المراكـــز الإســـلامية في المنطقة وحاجة المسلمين الماسة إلى من يعلمهم أمور الدين، إذ ران عليهم جهل مستطير بأمور الدين بسب العزلة القاسية التـــي مروا بها منذ أكثر من خمسة قرون، ثم بسبب الحكم الشيوعي بعد ذلك الذي حارب الدين، ودعا إلى الإلحاد بسائر وسائل الإعلام التي يملكها

ولا يملــك المســلمون منها شيئاً، بل إنهم حوربوا حتى من لم يعمل منهم لمجرد أن بقوا مسلمين.

كــان الاجــتماع فــي شــقة هي مسكن الأخ الطالب إبراهيم الواديه من فلسطين وكان من بين الحاضرين الأخ محمد أبازيد من الشبان العرب العاملين فــي حقل الدعوة الإسلامية وهو ممثل منظمة (سار) في قرودنه وهي المؤسسة الخيرية التي تقوم على تبرعات شركة الراجحي المصرفية للاستثمار.

كمــا حضر الأخ الكسندر الأكسندروفيتش عضو مجلس دار الإفتاء في روسيا البيضاء ويمثل مسلمي قرودنه في المجلس المذكور.

تحــدث المجتمعون عن تاريخ الوجود الإسلامي في المنطقة فأكدوا أنــه قــد مضت على ابتدائه ستمائة سنة، وأن المسلمين الآن أغلبهم من التــتار مــن بقايــا دولة (التون أورده) المسلمة، وهذا هو المعروف عن المســلمين في هذه البلاد لكن الشيء المؤسف هو ما ذكروه أنه لا يوجد في هذه المدينة مسجد رغم كون المسلمين فيها يقدر عددهم بألفي شخص وهم غير المسلمين الذين يقيمون فيها بصفة مؤقتة مثل الطلاب ونحوهم.

ومما ينبغي ذكره هنا أن سكان مدينة قرودنه يبلغ عددهم في الوقت الحاضــر ٣٦٠ ألف نسمة، وذكروا أنه كان يوجد في المدينة مسجد قبل العهد الشيوعي، إلا أن الشيوعيين هدموه وأزالوه من الوجود، وبذلك خلت المدينة من أي مسجد.

ومــع أن هــذا أمر مؤسف حقاً فإن المؤسف أيضاً أن المسلمين لم يغتــنموا الفرصة السانحة التي وجدت بعد سقوط الشيوعية وهي السماح ببــناء المســاجد، وإلغاء الحظر على الشعائر الدينية، وهي الفرصة التي

انتهزها إخوة لهم كثير فيما كان يسمى بالاتحاد السوفيتي السابق.

ولا تقـام الجمعة إلاّ في غرفة من غرف المعهد الطبي في المدينة حيث أستأجر الطلاب المسلمون قاعة فيه يقيمون فيه الجمعة، وقال أحدهم بعـد ذلك: إنهم يصلون في القاعة بالمجان، ولا يحضر الجمعة إلا حوالي ٢٥ مصلياً، وتحدث سرور نورالدين عن المركز الإسلامي الذي ذكر أنه أسسـه، وأنـه يقـوم بعمله، فذكر أشياء هي إلى المبالغة أقرب منها إلى الحقـيقة، وتدل على ضعف المسلمين وقلة العمل الإسلامي عندهم، فذكر أن لديهـم أعداداً من المسلمين حتى من الطيارين، ولكنه أفاد عندما سألناه بأن المركز ليس فيه جمعة ولا جماعة وليس لديه برنامج لبناء مسجد، ولا يوجـد فيه تدريس للأطفال المسلمين، ولا تعليم الكبار، ثم اعترف أخيراً بأن المركز الإسلامي نفسه لم يعد موجوداً، لأنهم لم يستطيعوا أن يحصلوا على الأجرة اللازمة له بعد أن كان أحد المحسنين هو الذي يدفعها.

ومـن الطـريف أن الرجل قال: إننا نستعد لاستقبال أطفال البوسنة لـنعلمهم الإسـلام، فعلـق أحد الحاضرين على ذلك بقوله: بل ليعلموكم الإسلام- ولم يستنكروا ذلك لضحالة ما لديهم من الإسلام غير الاسم.

ونحن لا نذكر ذلك لمؤاخذتهم أو التشنيع عليهم لأننا نعرف الظروف القاسـية التي مروا بها في الماضي، وإنما لنبين حالتهم الحقيقية، ولنحث القادرين من إخواننا المسلمين على مساعدتهم للإسراع بذلك.

الضيافة العربية في قرودنه:

بـادر أخونا الطالب الفلسطيني إبراهيم الواديه، وهو صاحب البيت بإحضـار الشـاي الذي نحن بحاجة إليه وأحضر معه بعض الكعك اللين

(الكيك) فأصبنا من ذلك ما نحن بحاجة إليه، وقد مضى النهار كله ونحن الآن بعـــد غروب الشمس لم نذق فيه طعاماً أو شراباً إلا تلك الفطائر من التفاح التي زودنا بها رئيس الجمعية الإسلامية.

ثـــم صلينا معاً صلاة المغرب في البيت وجمعنا معها صلاة العشاء نحـــن ومـــرافقانا الأخ أبوبكر شعبانوف والأخ عمار البحر، واستأنفنا بعد ذلك الحديث عن أحوال المسلمين في هذه البلاد في الماضي والحاضر.

إلا أن مضـــيفنا الأخ إبراهيم الواديه غاب عنا في البيت ومعه أحد الإخوة مـــن الطلاب العرب العاملين في الشئون الإسلامية وهو من سوريا وتبين أنهما يســـعيان في عشاء جيد في هذا الجو البارد نسبياً، وعلى حاجتنا إليه ثم أحضرا العشـــاء عربـــياً فـــي إعداده لأنهما صنعاه في البيت وأهم ما فيه الدجاج الذي نوهـــوا بأنـــه مذكى، وليس مشترى من المحلات الحكومية التي لا تذبح الدجاج ذبحـــاً إســـلامياً، ومعـــه الأرز الجـــيد والـــبطاطس الذي يكثر في هذه البلاد، ويصنعون منه أنواعاً من الطعام، ثم المكرونة وبعد ذلك تفاح أحمر كبير.

ولاحظـــت أن هذا التفاح الأحمر رغم منظره الجيد وكبر حجمه هو دون التفاح المحلي الأخضر.

مغادرة قرودنه:

غادرنا (قرودنه) في التاسعة والربع على دفء وشبع، وعلى حزن أيضـــاً لعدم وجود المؤسسات التي ترعى الإخوة المسلمين في هذه البلاد الذيـــن حـــافظوا على شخصيتهم الإسلامية لأكثر من ستمائة سنة، لم تنل الســـنون مـــن ذلك، إلا أن إسلامهم الآن قد أفرغته الظروف من محتواه الحقيقي وعلينا جميعاً أن نتعاون على إعادته صحيحاً وافياً إليهم.

والمســـافة مـــن قرودنه إلى العاصمة منسك تناهز (٣٠٠) كيلومتر علينـــا أن نقطعها في هذا الليل البهيم الذي لا يرى المرء فيه من الطريق شيئاً، ولذلك لا نتوقع أن يكون في عودتنا شيء من الإمتاع، وبخاصة أننا نقصد العودة مباشرة دون توقف.

وقال الإخوان المرافقان إننا سنصل إلى منسك في الحادية عشر قبل منتصف الليل، ولكن تبين أن ذلك لم يمكن، وأننا لم نصل إلا بعد ذلك بمدة كما سيأتي.

ليلة سوداء في البيضاء:

وســـواد هـــذه الليلة هو كسواد غيرها من الليالي ولكنه بالنسبة إلينا سواد مضاعف، إذْ لا نرى شيئاً مما حولنا غير الطريق الذي يحاول سائقنا أن ينضـــبط في قطعه، لأن الأوامر الحكومية تحدد السرعة على طرقات السير في الليل، وتعاقب من يتجاوز الحد المعين.

لذلك كان سيره رتيباً رغم طول الطريق، وقد تعب بعد فترة فوقف بســـيارته ووقفـــنا معه على جانب الخط الأسفلتي في ظلام دامس، وحتى الســـيارات لا تكاد ترى منها شيئاً في الطريق وبخاصة بعد أن تجاوزت الساعة العاشرة، فالسيارات هي قليلة في الأصل، والناس لم يتعودوا على الســـهر في زمن الحكم الشيوعي، لأنهم إذا فعلوا ذلك لم يستطيعوا التبكير إلى أعمالهم كما تقضي بذلك الأوامر الصارمة، كما أن دخولهم محدودة، بحيث لا يستطيعون أن يجعلوا السهر ممتعاً لهم.

وبعـــد استراحة طويلة في وقوف متعب واصلنا السير فاستراح مرة أخرى بأن وقف وأطفأ الأنوار، وكدنا نصطدم بعد ذلك بسيارة متوقفة في الطريق من دون أنوار خلفية.

وقــد انحلــت أنــبوبة الدخان من تلك السيارة أو انكسرت، فصار للسيارة صوت مزعج.

والغريب في هذا الريف الخصب الندي أنه مظلم حقاً فلا يرى المرء أضواء حتى في القرى إلا نادراً.

والشــيء الجـيد فــي الطريق أنك ترى الإعلانات التي تدل على الانخفــاض والارتفاع فيه موجودة وكذلك اللوحات التي تبين الطرق التي يمــر بها واضحة وكثيرة إلا أن اللوحات التي تبين المسافة إلى العاصمة مــثلاً قلــيلة جــداً ومكتوبة بأرقام صغيرة بحيث تصعب قراءتها في هذا الظلام إلا إذا وقع عليها نور السيارة.

وقــبل الوصول إلى العاصمة بنحو ٤٠ كيلومتراً وصلنا مقهاة هي الوحــيدة التي رأيناها في هذا الطريق في الذهاب والإياب، وكان منظرها بهــيجاً لأنها مضاءة وعليها لافتة كهربائية واضحة، والأهم من ذلك أنهم أشعلوا أمامها ناراً بحطب جزل صار له جمر كثير في هذا الجو البارد.

وداخــل المقهاة جيد جداً فهي ذات كراس خشبية جيدة وأثاث حديث إلا أنها خالية من الناس تماماً رغم استعدادها للزوار ولم نر داخلها منذ أن وصلناها حتى غادرناها إلا شخصين في سيارة واحدة.

وكانــت الساعة عندما وصلناها هي الواحدة والنصف بعد منتصف اللــيل، وكــان ســائقنا الأخ أبوبكــر شعبان لا يزال يشعر بالتعب، لذلك استرحنا معاً في هذه المقهاة الجيدة.

لقــد ذكرت وأنا أنظر إلى النار المتقدة وسط منقل ضخم وهو الذي يوضع فيه الجمر وما ذكرت أنني رأيت شيئاً كهذا جميلاً مما جعلني أعذر

ابـــنة الخـــس إحـــدى شـــهيرات النساء عند العرب حينما وصفت نفسها بالجمـــال، فقالـــت: كنت أجمل من النار في عين المقرور، والمقرور هو الذي أصابه القر وهو البرد الشديد.

وقـــد أعدوا هذا الجمر من أجل الشواء فيستطيع من يريد شواء أن يشوي اللحم عليها لأنهم أعدوا بجانبها قضباناً حديدية لهذا الغرض.

هذا والهواء بارد، والسماء غائمة والمطر يرسل رذاذه خفيفاً.

لم نجد في المقهاة مما نحتاج إليه إلاّ الشراب الغازي البارد.

وبعد نصف ساعة من الجلوس فيها استأنفنا السير في حوالي الساعة الثانية بعد منتصف الليل، مؤملين أن نصل المدينة قبل الفجر بوقت كافٍ ولكننا وجدنا حاجزاً للشرطة أوقفنا مع سيارات أخرى، وصاروا يتكلمون وهـــم ضباط وجنود مع السائق الأخ أبوبكر بما لا نعرفه لأنهم انتحوا به ناحـــية عنا، وطال وقوفنا عندهم وقال الأخ أبوبكر شعبان بعد ذلك: إنهم يقولـــون إنني تجاوزت السرعة المسموح بها على الطريق في الليل، وإننا مررنا بشرطي مرور خابرهم بذلك.

ثـــم انصرفت السيارات التي كانوا أوقفوها، وبقيت سيارتنا ونحن لا نـــدري الســـبب وقلنا: إذا كان الأمر يتعلق بغرامة ندفعها للشرطة فنحن سندفعها ولكن لم نجد من يفهمنا بذلك، والمزعج في الأمر أن الجنود كلهم كـــانوا شـــاهرين سلاحهم، كأنما هم مستعدون لمعركة، ثم أطلقوا سراح ســـيارتنا فانطلقنا ونحن لا نكاد نصدق ودخلنا المدينة في الثانية والنصف بعد منتصف الليل.

وذكـــرت الطريق في صحرائنا العربية من بلادنا الحبيبة فرأيت أن وســـائل الراحة فيها متوفرة من المقاهي والاستراحات والأنوار الساطعة والسيارات التي تذرع الطريق وتستمر في ذلك حتى الفجر، ولكن كثيراً منا قد ألفوا ذلك فصاروا لا يحسون بجماله.

وقـــد مررنا بميدان في المدينة اسمه (ميدان النصر) وفيه شعلة تتقد ليس بقربها أحد، بل إن شوارع المدينة كلها تبدو موحشة كأنما هي خالية مـــن الأنـــيس، إلا أن الإضـــاءة في داخلها جيدة وإن لم تصل إلى درجة سطوع المدن في بلادنا.

ذكروا أن هذه الشعلة هي من عهد الاتحاد السوفيتي الهالك، ولكنها لا تزال متقدة حتى الآن، ومررنا بحديقة واسعة من حدائق المدينة العديدة ليس فيها أنيس أيضاً، فكانت الليلة سوداء في بيضاء الروس.

يوم الأحد: ١٤١٥/٤/١٣هـ - ١٩٩٤/٩/١٨م:

الحجز إلى موسكو:

بـــدأ العمل في هذا اليوم بالبحث عن الحجز إلى موسكو فسرنا من فندقنا مع شوارع مدينة منسك الواسعة، بل الضخمة التي تكون خالية في هـــذا الـــيوم الأحد يوم العطلة الأسبوعية للناس هنا، وتجلت المدينة مدينة نظـــيفة معتنى بشوارعها غاية العناية، ولذلك لم أستغرب ما سمعته بأنها كانت تعتبر ثانية مدن الاتحاد السوفيتي نظافة بعد موسكو العاصمة.

شارع في مدينة منسك

ومـــررنا كالعـــادة بحديقة عامة واسعة، ولم نكد نفارقها مع الشوارع ذات الأرصفة الجيدة حتى وصلنا حديقة أخرى مفروشة بالأعشاب النضرة.

ولا شك أن اتخاذ الحدائق في مدنهم لا يكلفهم كثيراً كما تقدم، و إنما العجب أن تسخو نفوسهم بأرضها، هذا ما كان يتبادر إلى ذهني، ثم رأيتهم اليوم كما رأيت أطراف المدينة بالأمس قد تركوا فراغات واسعة تغطيها الخضرة بين أحياء المدينة، بحيث أننا كنا نظن أننا خرجنا منها لأننا وقعنا في أرض ريفية أو تشبه الأرض الريفية، فإذا بنا نصل آلي حي أخر من المدينة.

وهذه مزية لتخطيط المدن في الدولة الشيوعية، إلا أنها ليست بدافع من العمل وإنما هي من قبيل التروك كما يقول علماؤنا من الأصوليين المنسوبين إلى علم أصول الفقه- لأنهم لا يهدمون البيوت القديمة بل لا يتعرضون للأقسام القديمة من المدن، وإنما يبعدون إذا أرادوا قيام أحياء جديدة عنها ويتركون الفراغ بينها وبينها، ثم يبدأون البناء، والذي يبدأ البناء على كل حال والذي ينهيه هو الدولة.

وأما وسائل المواصلات العامة في المدينة فإنها كثيرة ومتوفرة وأهمها الحافلات الكهربائية المسماة في مصر بالترولي باص، وكذلك عربات القطار الكهربائي (الترماي).

والقوم هنا بيض كما قدمت ولكنه بياض أقصى الشمال الأوروبي الذي يعني الشقرة وإذا رأى المرء فيهم رجلاً أو امرأة من ذوي الشعر الأسود كان ذلك لافتاً للنظر، مثلما أن الشعر الأصفر يسترعي الانتباه وجوده في بلادنا.

ورغم كونهم من الروس فإن السمات التي في أذهاننا وأمثالنا عن الروس ليست ظاهرة فيهم وهي الضخامة في الأجسام والترهل عند كبار السن، والغلظ في تقاسيم الوجوه عند الجميع، فهم هنا يبدون كما يبدو السلاف الذين يعتبرون من الأجناس الجميلة في العالم.

كنا ذاهبين إلى مكتب الشركة الوطنية للطيران واسمها (بيلافا) للحجز إلى موسكو، فرأينا ما ذكرته ومررنا بالمقر الدائم للمعسكرات الرياضية في مبنى ضخم أحمر الطلاء، وسط مساحات واسعة من الخضرة النضرة.

وخرجنا من قلب المدينة فلاحظنا أن الأبنية العامة معتنى بها حتى في ضواحي المدينة، وكل ما فيها جيد ضخم إلاَّ (العمارات الشيوعية) وهي الأبنية ذات الطوابق المتعددة التي تقيمها الحكومة من أجل الإسكان الشعبي وتقدم ذكرها، ومع ذلك فإن حالتها أحسن من حالة مثيلاتها في بعض المدن التي كانت تسيطر عليها الشيوعية.

شارع في ضواحي منسك

وجدنا مكتب شركة الطيران في مبنى المطار المحلي وهو مطار يقع في إحدى ضواحي العاصمة وهو قريب خلاف المطار الكبير الذي نزلنا فيه فهو يقع بعيداً جداً عنها.

وانتظرنا فترة قبل أن تسمح الموظفات بدخولنا المكاتب ولم أر بينهن موظفاً واحداً فحجزنا غداً للسفر إلى موسكو.

مع أعضاء الهيئة الإدارية للجمعية الإسلامية:

كـــان موعد اللقاء بالإخوة أعضاء الهيئة الإدارية للجمعية الإسلامية فـــي روســـيا البيضاء هو الساعة الثانية عشرة قبيل الظهر وقد وجدناهم مجتمعيـــن فـــي مقـــر (سارا) التي يعمل فيها مرافقنا الأخ (عمار البحر) وعددهم ١٢ فيهم سيدة واحدة وهم من كبار القوم من أطباء وأساتذة جامعة وغيرهم وكلهم ذو أصل تتاري قديم.

وقد تحدثت فيهم عن سروري وأعضاء وفد الرابطة بلقائهم والتعرف إلـــيهم وعـــن اســـتعداد الرابطة للتعاون معهم لمصلحة دينهم ومجتمعهم الإســـلامي كما حدثتهم عن تاريخهم الإسلامي المشرق وعن دولتهم دولة ألـــتون أورده وما كان لأجدادهم من دور في نشر الإسلام وتوطيد أركانه فـــي هذه الأصقاع، وعن محنتهم وتشتيتهم في أنحاء الاتحاد السوفيتي مع ذلـــك ظلوا متمسكين بإسلامهم ثم تكلمت على وجوب انتهاز هذه الفرصة والـــتعويض عما فات بتعليم أبنائهم أحكام الإسلام والاهتمام بأداء الصلاة والتعاون والصدق في المعاملة ونبذ الخلافات.

بعض أعضاء الجماعة الإسلامية في روسيا البيضاء عند اجتماعهم

وقلــت لهــم: إنكم تمسكتم بإسلامكم وحافظتم على هويتكم المتميزة طيلة القرون رغم المصاعب بل المصائب والمحن التي حلت بكم حتى إننا لا نعلم شعباً من شعوب ما كان يسمى بالاتحاد السوفيتي أصابه ما أصابكم أنتم أيها التتار، وقد حان العمل الآن لكي تجنوا ثمار هذا الصبر بالرجوع إلى دينكم والتفقه فيه، وأن نكون مثالاً للمسلمين العاملين ونحن في رابطة العــالم الإسلامي مستعدون للتعاون معكم في هذا الأمر، وذلك بالمساعدة علــى إعــادة بناء المسجد الجامع، ودفع رواتب داعية يكون في الجمعية الإســلامية مرشــداً لها، ومعلماً لكبار العاملين إلى جانب المدرسين الذين سيدرسون في المدارس الإسلامية التي قد أنشأتموها.

وشكرتهم على نهوضهم بتأليف الجمعية الإسلامية لمسلمي روسيا البيضاء، وإن كان بعضهم يسميها الجمعية الإسلامية التتارية على اعتبار أن التتار يمثلون العنصر الغالب على المسلمين في هذه البلاد وهم المسلمون الأصلاء من أهلها كما سبق بيان ذلك.

هذا وقد حضر الاجتماع المفتي، ورئيس الجمعية الإسلامية الأخ (أبوبكر شعبان) ولاحظت أنه لم يحضر معهم من النساء إلا سيدة واحدة وقور في منتصف العمر، على عكس ما عرفناه في الجمعيات التتارية الإسلامية من أن عدد النساء فيها يكون مساوياً لعدد الرجال، بل يفوقه في بعض الأحيان، وأن النساء يعملن في الجمعيات الإسلامية أكثر من الرجال وأقرب مثال على ذلك ما شاهدناه في سفرتنا هذه في أقطار بحر البلطيق وقد ذكرت ذلك في كتاب (بلاد البلطيق) وهو كتاب مطبوع.

وطرحوا في الاجتماع موضوعات تهمهم مثل أخذ أولاد المسلمين الصغار لتربيتهم في أوروبا من الأيتام والذين لا عائل لهم، وضربوا مثلاً على ذلك بأطفال البوسنيين الذين رحلوا إلى أوروبا لتربيتهم عند أسر أوروبية، مما قد يترتب عليه أن ينشأوا تنشئة غير إسلامية، وذكروا أن وجود الأطفال عندهم هو أولى وأقرب، فقلت لهم: إن ذلك صحيح ولكن عليهم أن يسعوا إلى أيجاد مؤسسات تعليمية تربوية لتربية أولادهم وأولاد المسلمين الآخرين، أما الآن ولكونهم لا توجد عندهم مثل هذه المؤسسات فإنه من الصعب عليهم تربية أولادهم تربية إسلامية فضلاً عن تربية أطفال المسلمين، فوافقوا على ذلك وذكروا أنهم سوف يسعون لتلافي هذا النقص.

من اجتماعنا بزعماء المسلمين التتار في منسك

كما طرحوا موضوعاً مهماً وهو أن يعملوا على إيجاد مورد مالي لتمويل العمل الإسلامي في البلاد مثل الشركات والأموال التي ترد إليهم من البلدان الإسلامية التي توجد فيها رساميل متوفرة، فقلت له: إن هذا جيد، ويمكن لرابطة العالم الإسلامي أن تتوسط لدى التجار ورجال الأعمال الاقتصادية لهذا الغرض ونحن مستعدون أن نقدمكم إليهم، ولكن الأمر يقتضي منكم أن تدرسوا كيفية إنفاذ المشروعات الاقتصادية التي تريدون التعاون معهم على القيام بها واستغلال ما يرد منها من أرباح في العمل الإسلامي.

وفي نهاية اللقاء بهم قدمنا لهم بعض المساعدات الرمزية العاجلة وهي ألف دولار للجمعية الإسلامية الوحيدة في منسك، وخمسة آلاف دولار للجمعيات الفرعية، كما ذكرنا لهم أننا سوف ندفع مبلغاً آخر

للمساعدة على بناء المسجد الجامع بعد أن نرى الأرض المعدة لبنائه ونشاهد المخططات والخرائط اللازمة له.

وقلت لهم: إن هذه مبالغ رمزية تعتبر تعبيراً من الرابطة عن التضامن والتعاضد معهم وتكون مبدأ للتعاون على البر والتقوى، نرجو أن ينمو ويزيد في المستقبل، وعليهم أن يكتبوا للرابطة في كل أمر يهمهم من أمور دينهم، ونحن سوف ندرس ما يكتبونه ونخبرهم بما ترى الرابطة عنه.

إلى أرض المسجد الجامع:

وكدت أقول: إلى المسجد الجامع لأن المسجد كان موجوداً هناك قبل أن يهدمه الشيوعيون ويسووه بالأرض، ويزيلوا حتى معالمه الباقية في الأرض التي تدل على أنه كان فيها.

ذهبنا إليه مع الإخوة الكرام في سيارتي أجرة اثنتين، وذلك في الساعة الواحدة والنصف، وكان المطر ينزل رذاذاً والريح تهب باردة، مع أننا لا نزال في شهر سبتمبر الذي هو من أشهر الخريف، بل هو أقربها إلى فصل الصيف، وكان الجو في الصباح أدفأ مما هو عليه الآن، وقد قالوا لنا: إن جوهم لا تؤمن بوادره فهو متقلب، سريع التغير، مع أن الطابع الغالب عليه هو البرد في أغلب الأحوال.

انطلقنا معهم إلى أرض المسجد مع ضواحٍ خضر منسقة، مما جعلني أذكر هنا ما يقال في أمثالها من أنها بستان فيه مدينة، وليست مدينة فيها خضرة، كل شيء هنا من الشوارع والميادين والحدائق واسع، أو يتسم بالسعة، ووسائل النقل العام متوفرة وجيدة، وإن كنا لم نركب فيها أما سيارات الأجرة فإنها موجودة ومتوفرة غير أنها مرتفعة الأسعار بالنسبة إلى دخولهم المتدنية.

وصلنا أرض المسجد فلم أرها تفترق عن غيرها من هذه الجنان الكثيرة، إذ هي أشبه بحديقة ذات أرض خضراء سندسية فيها بعض الأشجار غير العالية، ولذا لم أصدق بأنها هي أرض المسجد، لاسيما بعد ما سمعت منهم من أنها كانت فيها أبنية تخص المسلمين في القديم هدمها الشيوعيون وتبين أن الشيوعيين قد أزالوا معالمها كلها حتى لم يبق فيها أي معلم يدل على أنها كانت فيها أبنية أو منشآت في السابق، حتى المخلفات لم يبق منها شيء، وما قد يكون قد بقي منها من أساسات غطته الأعشاب الخضر الملتفة.

ذكروا أن هذه الأرض التي يخيل لمن يراها أنها لم تكن فيها عمارة من قبل كان فيها المسجد الجامع، وكان فيها غير بعيد منه مقابر من مقابر المسلمين أزالها الشيوعيون في عام ١٩٥٠م بالجرافات، ثم أزالوا شواهد القبور بعد أن جمعوها ولا يدرون أين وضعوها حتى محوا معالمها، بحيث لم يبق لها أثر الآن.

الأرض التي كان فيها مسجد ومقبرة للتتار في منسك

وتقــع أرض المسجد في غرب مدينة منسك القديمة في حي يسمى (فرونــز ســكي) وهذا الاسم يذكرنا بمأساة أخرى، إذ الحي منسوب إلى (فــرونزنه) وهــو قائد روسي أمعن في قتال المسلمين في آسيا الوسطى وبخاصة في منطقة (القرغيز) التي هي الآن جمهورية (قرغيزستان) لذلك أســمى الــروس عاصــمة المنطقة على اسمه (فروزنه) وبعضهم يقول (فروزني)، وبقي هذا الاسم للمدينة المسلمة سنوات طوالاً حتى عاد إليها اسمها العريق (بشكك) ولا يزال.

بســط الإخــوة أمامــنا الخــريطة التي وضعوها لإعادة بناء المسجد، وإنشاء مدرسة إسلامية بجانبه، وذلك تحت ظلال إحدى الأشجار ومن حسن الحظ أن المطر كاد يقف مما مكننا من تأمل المخططات الخاصة بالمسجد.

كان أول ما أخبرتهم به أننا لن نساعد على بناء المسجد إذا كان يقع فــي مقبرة، فنفوا ذلك وذكروا أن المسجد كان منفصلاً عن المقبرة وأنها كانت إلى الخلف منه فلا توجد في قبلته قبور.

وقــد تأكدنــا من ذلك، إذ بنوا المسجد على حافة الأرض مما يلي الشــارع إضــافة إلى أن القبور قد أزيلت منذ أكثر من أربعين سنة وعفا أثرها كما تقدم.

وتــبلغ مساحة الأرض المخططة للمسجد هكتاراً واحداً، وتقع على ثلاثة شوارع من هذا الحي الجيد.

وقد أعادتها الحكومة لهم بدون مقابل لأنها كانت ملكاً لهم مسجلاً في دوائر الحكومة قبل أن يصادرها الشيوعيون منهم.

وقد شجعناهم على المضي في هذا المشروع العظيم وأن يكون لهم شرف إعادة المسجد وتأسيس مدرسة إسلامية، أو على الأقل تأسيس فصول دراسية لتعليم أبناء المسلمين مبادئ دينهم الحنيف في أول الأمر إلى أن تتوفر الشروط لافتتاح المدرسة الإسلامية التي شرحنا لهم فكرتها وهي أن تكون مدرسة تدرس معظم المنهج الحكومي إلى جانب المواد الإسلامية والتربية الدينية.

وأعطيتهم خمسة آلاف دولار أمريكياً مساعدة من رابطة العالم الإسلامي على إعادة بناء المسجد، وقلت لهم: إنها بمثابة المقدمة لهذا المشروع المهم، وإذا أنفقوها مع ما يتيسر لهم جمعه من المال فليكتبوا لنا في رابطة العالم الإسلامي، وسوف تساعدهم بإذن الله بمبالغ إضافية، سواء من ميزانية الرابطة أو مما نحصله لهم من أهل الخير، بعد أن نتأكد من أن العمل في بناء الجامع وملحقاته يسير على الوجه المطلوب.

هذا وكان على رأس الحاضرين معنا المفتي ورئيس الجمعية الإسلامية ومحاسب الجمعية، وطلبت منهم بهذه المناسبة أن نلتقط صورة في أرض المسجد تذكارية على الأرض الخالية من البناء سوف يتذكرونها عندما يشغلها المبنى، كما حدث لي ذلك في عدة أماكن من أنحاء العالم.

كان الإخوة متخوفين من ألا يستطيعوا المضي في المشروع لضخامته، وعجزهم عن جمع المال من المسلمين لفقرهم، وضيق ذات يدهم، في هذه المرحلة الاقتصادية المتدنية التي سببتها المرحلة الانتقالية من الاقتصاد الشيوعي المهيمن عليه من الدولة، إلى اقتصاد السوق الحر، فقلت لهم: إنهم لا يجوز أن يخافوا لأن الله سبحانه سييسر أمرهم كما قال

تعـــالى: ﴿وَمَنْ يَتَّقِ اللَّهَ يَجْعَلْ لَهُ مَخْرَجاً۞ وَيَرْزُقْهُ مِنْ حَيْثُ لا يَحْتَسِبُ﴾ وقـــال تعـــالى: ﴿وَمَـــنْ يَتَّقِ اللَّهَ يَجْعَلْ لَهُ مِنْ أَمْرِهِ يُسْراً﴾ وقد جربنا في عشـــرات المرات إن لم نقل في مئات المرات أن إخواناً لنا مسلمين مثلهم خـــافوا من عدم استطاعتهم بناء مسجدهم، ولكنهم ما أن بدءوا العمل فيه حـــتى يسر الله لهم من أسهم في النفقة بما لم يكونوا يقدرونه، بل لم يكن يدور في خلدهم.

كان هنا مرة مسجد:

من الأخبار التي يروجها القصاص عن خروج ياجوج وماجوج في آخر الزمان أنهم لكثرتهم يمرون على نهر من الأنهار فيشربون ماءه كله حتى لا يبقى منه في مجراه شيء فيأتي بعدهم قوم يسألون عن ذلك النهر، فيقال لهم: كان هنا مرةً نهر!

ونحن الآن قلنا هذه المقالة: كان هنا مرةً مسجد.

وذلـــك لكون الإخوة أخذونا إلى مكان كان فيه مسجد آخر في القديم هدم الشيوعيون، وعفواً أثاره حتى لم يبق منها شيء.

وحتى الشارع الذي كان عليه المسجد قد أزالوه وأزالوا آثاره فذهب اســـمه الذي يدل على أنه كان لقوم من المسلمين وهو شارع التتار وكلمة (التتار) في هذه البلاد مرادفة لكلمة المسلمين.

في الشارع الذي كان فيه مسجد ومدرسة داخل منسك وخفي أثرها

وقـــد وقفنا على مكان للمسجد الذي لم يبق منه شيء ولا علامة من العلامـــات، فقد أزيل مع الحي الذي يقع فيه، وشق بجانبه شارع عريض اســـمه الآن شارع (ماثير روفا) وهو شيوعي كان يشغل وظيفة سكرتير الحزب الشيوعي في روسيا البيضاء ومات في حادث مروري.

كانت إزالة المسجد وشارع التتار الذي كان يقع عليه في عام ١٩٦٢م وأقام الشيوعيون فندقاً كبيراً ومطعماً على أرضه واسم الفندق (يوبلينا).

ولم يبق للمسلمين شيء يطالبون به حتى الأرض لأنها شغلت بهذين المبنيين وبرصيف واسع أمامهما.

وقد سألتهم عما إذا كان المسلمون قد أبدوا معارضتهم لهدم المسجد وما حوله وإلغاء الشارع الذي يحمل اسمهم (شارع التتار) فأجابوا بأنهم لم

يفعلـــوا ذلك خوفاً من الشيوعيين، لأن العهد في ذلك عهد إرهاب شيوعي أقل ما فيه من العقوبات القتل والتشهير.

فقلت لهم: إنكم يمكنكم الآن وقد أزال الله الشيوعية ومحا طغاتها أن تطالبوا الحكومة بالتعويض عن هذه المؤسسات كما يفعل الآن إخوانكم من المســلمين التتار في مدينة فينولس اللتوانية، فذكروا أن هذا ممكن ولكنهم الآن علـــى حالة من الضعف المادي وقلة الأنصار تجعلهم لا يفكرون إلاّ في كيفية بناء الجامع الذي بقيت أرضه دون أن يشغلها شاغل فاستعادوها كاملة من الحكومة.

والواقـــع أن هؤلاء الإخوة يحتاجون إلى عمل يرفع من معنوياتهم، كـــأن يوجـــد متبرعون يتكفلون بإعادة بناء مسجدهم، ويتحدثون إليهم عن التضامن معهم.

وقد أخبرونا كما أخبرنا الأخ السوداني (عمار البحر) أن حديثنا إليهم كـــان له أثـــر طيب في نفوسهم، وأنه أول حديث من مسئول في مؤسسة إســـلامية عالمـــية يشـــعرهم بالإخوة الإسلامية، ويعرض عليهم التعاون المخلص في ذلك.

والتعاون الذي عرضناه عليهم لم نطلب منهم فيه أن يقدموا مالاً، أو غيره من الأمور المادية لنا وإنما طلبنا منهم أن يقدموا العمل الذي ينفعهم فـــي ديـــنهم، أمـــا التعاون المالي فإنهم أعجز عنه في هذه المرحلة وهم معذورون بسبب عجزهم الذي نعرفه.

كان المطر يتساقط رذاذاً والريح تهب باردة تصفع الوجوه، وتقبض الأيدي، والإخوة الكرام لم يبالوا بذلك لكونهم قد تعودوا عليه.

وقالوا وهم يحدثوننا عن هذا المسجد الذي كان اسمه (مسجد منسك): إنه بني آخر مرة في عام ١٩٠٢م، وإنه كان موجوداً قبل ذلك منذ القرن السادس عشر.

وفي نهاية هذه المشاهد المحزنة التي شهدنا فيها مصارع مؤسسات إسلامية من بينها مسجدان ودعنا الإخوة الذين أبدوا شكرهم وامتنانهم لهذه العناية بأمورهم، وللتبرع الذي ذكروا أنه أول تبرع يأتي إليهم من خارج بلادهم.

جولة في منسك:

ذهبنا مباشرة إلى مطعم جيد اسمه (برقنينا) كان أهم مظهر فيه هو تقليد الغربيين، إذْ تقلصت الصحون والأطباق حتى صار الحساء (الشوربة) يقدم فيما يشبه (الفنجان) الكبير وفي الحساء جبن كما يصنع الفرنسيون وسلطة خضرة معتادة وفطر وسمك ونحن نأكل السمك تحرجاً من أكل اللحم في هذه البلاد التي يعرف الجميع أن الجزارين فيها لا يذكون الحيوان تذكية شرعية، ومع السمك البطاطس الموجود بكثرة في بلادهم.

ومن الطريف أنهم وضعوا قليلاً من القشدة (القشطة) على السلطة المؤلفة من الخيار والطماطم والجزر.

وكان المطعم نظيفاً دفعنا ثمن ما أكلنا ونحن أربعة ٧٦ ألف روبل ويساوي ذلك ٢٣ دولاراً أمريكياً.

القطارات الأرضية:

والمراد بها ما تحت الأرض، نزلنا إليه مع درج معتاد لمجرد التفرج برؤيته ومعرفة كيفية عمله، ولكي نركبه إلى جهة سوق مشهور في البلاد، فكان النزول إليه مع درج ينزل إلى باطن الأرض.

وعليك أن تشتري بطاقة صغيرة على هيئة تذكرة، فتضعها في مكانها من المدخل إلى حيث القطارات الأرضية، وإلا فإن باباً حديدياً قصيراً مكوناً من عدة قضبان من الحديد لا يزيد ارتفاعه على متر واحد سيضربك ويمنعك من الدخول، وذلك بطريقة آلية، ثم نزلنا مع درجة كهربائية حيث وجدنا في نهايتها موقف القطار الكهربائي الذي يحلو لبعض الناس أن يسميه المترو.

والقطار خشن المظهر، سريع الحركة، ما لبثنا بعد أن سار حتى وقف فنزلنا وصعدنا إلى ظهر الأرض مع درج معتاد غير أنه واسع معتنى به.

قطة للبيع في سوق منسك

ومن الطريف أننا رأينا امرأة تبيع قططاً صغيرة تنتهز فرصة وجود زحام من الناس من الخارجين من المحطة وهي تطلب ١٣ ألف روبل أي أربعة دولارات أمريكية للقطة الواحدة.

وهـذا من ولع الروس المعروف بتربية القطط الذي يكاد يعادل ولع الأوروبيين الغربيين بتربية الكلاب.

وكذلك رأينا عدداً من باعة الزهور، ورجلاً يبيع حماماً كبيراً ذكروا أن من يصطادها من أجل أكلها يعاقب عندهم.

سوق شعبي:

كنـت طلبت من الأخ عمار البحر أن يريني سوق شعبية من أسواقهم، وذلك من أجل أن أطلع على ما تنتجه بلادهم وعن مستوى أسعارها.

فذهب بنا إلى سوق شعبية كل البضائع فيها موضوعة على عربات مـرفوعة قليلاً عن الأرض، وأكثر هذه العربات على هيئة صناديق تفتح وتغلـق فكـان أول ما رأيناه في السوق العطور وزيوت الشعر، والدخان المسـتورد وفـي السـوق محـلات خشبية وهي الحوانيت الصغيرة من الأخشـاب أهلها من السمر الذي تتضح سمرتهم في هذا الجو الأشقر على البعد وهم من العرب والأفغان، أما العرب فهم من الطلاب الدارسين الذين يسـعون إلـى تحسين حالتهم في البيع في هذه السوق الشعبية المزدحمة، وأما الأفغان فإنهم من المهاجرين الذين تسمح لهم الحكومة بالبقاء لكونهم لا يستطيعون الرجوع إلى بلادهم بسبب القلاقل والحروب التي فيها.

وقـد لاحظـت شـدة سمرتهم هنا بالمقارنة مع السكان حتى الشعر

الأسود الذي يعلو الرأس يبدو غريباً على البصر، وقال الأخ عمار البحر: إن وجود الشعر الأسود في رأس شخص معناه في هذه البلاد أنه أجنبي.

باعة الفاكهة الطازجة في منسك

وفي ركن من السوق فيه ما تنتجه البلاد من فواكه وخضرات وأغلبه يبيعه أهله الفلاحون محافظة منهم على أن يكون ثمن ما يبيعونه يرجع إليهم، تفادياً لأجرة السمسار، والفلاحون على حالة من سوء الملبس، وقشف المنظر.

ومن الفاكهة المتعددة بل المتنوعة هنا البرقوق وهو الذي نسميه في بلادنا بالبخاري، بفتح الراء وهو هنا أنواع منوعة، ويبيعونه جزافاً في أكياس صغيرة يبلغ وزن ما يتسع له الواحد منها ثلاثة كيلوات وثمنه دولار ونصف أي أن الكيلو بحوالي نصف دولار أمريكي وهذا ثمن

رخيص بالنسبة إلى النقود في بلادنا غير أنه كثير بالنسبة إليهم وهناك الفطر المسمى بالمشروم وهو هنا أيضاً أنواع منوعة ويباع طازجاً.

والشيء المفاجئ أنني رأيتهم جلبوا نوعاً من العنب الصغير الحب يعرف عندهم بعنب روسيا البيضاء، ويستطيع العيش في البلدان الباردة بخلاف العنب الذي نعرفه فهو لا يطيق العيش في أجواء هذه البلاد وأمثالها، وعنبهم غير جيد.

وهناك تمر غير جيد أيضاً، بل لو كان عندنا لما أكلناه مع وجود التمور الجيدة والممتازة عندنا، وقد كتبوا عليه ثمنه أنه ما يعادل دولارين اثنين للكيلو الواحد وأنه مستورد من الجزائر، لأن النخل لا يمكن أن يعيش عندهم، حتى البلاد التي هي أقل بكثير برداً من بلادهم لا يثمر فيها النخل حتى وإن نما شجره مثل الطائف، وأبها، ذلك بأن التمر يحتاج لكي ينضج إلى فصل صيفي حار وهو ما لا يوجد عندهم وأمثالهم، بل إن فصل الصيف إلى برده النسبي هو فصل مطير يفسد معه التمر فيما لو وجد.

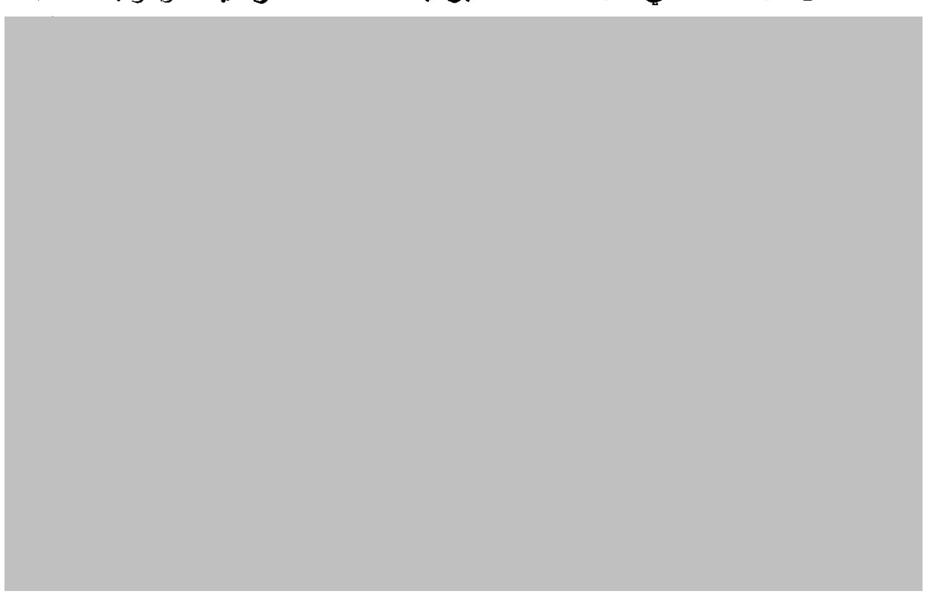

مدخل سوق منسك

ومن الطريف أن بائع التمر وضع عليه لافتة صغيرة مكتوبا عليها بلغتهم: (التذوق ممنوع) ولم أرهم كتبوا مثلها على أي شيء آخر غيره في السوق، مع أن هذا التمر ليس مظهره مما يغري بالتذوق،إلا إذا كان ذلك عندهم من قلة التمر الجيد.

ومعروف أن البلاد الباردة تحتاج إلى السكريات أكثر مما تحتاج إليها سكان البلدان الحارة، وذلك لما تكسبه للجسم من حراريات يحتاجها وبخاصة في أيام البرد.

وغير بعيد من هذا التمر المستورد من الجزائر يوجد موز مستورد أيضاً كتبوا عليه سعره بأنه ما يعادل ٣ ريالات للكيلو الواحد.

وأكثر ما رأيت في السوق من الناتج الزراعي البطاطس فهو كثير حتى إنني رأيت سيارة شحن قد نثروا فيها البطاطس عليه رجلان وميزان ويباع الكيلو الواحد منه بريال إلا ربع وهو بطاطس من المحصول الجديد.

ورأيت عندهم نوعاً من القرع أصفر شديد الصفرة يبيعون الكيلو الواحد منه بما يعادل ريالاً إلا ربعاً وقد أخبرني الإخوة هنا أن الخضرات الموجودة هنا محدودة العدد ولا توجد إلا في الصيف فمثلاً البامية والكوسة لا يوجدان هنا.

ورأيت ثوماً مما ينبت عندهم كثيراً ولكن سعره ليس أرخص من سعره في بلادنا التي تنتجه كالقصيم، والحاصل أن الموجود في هذه السوق من الخضرات والفاكهة قليل وهم يعرضونه بمقادير قليلة بل نزرة، مما يدل على قلته، وضعف القدرة على الشراء عندهم.

إلا أن الذي يسجل لهم هنا أن الباعة لا يلحون عليك بأن تشتري منهم.

وقد انقشع الغيم، وأشرقت الشمس، فزاد الدفء في هذه البلاد الباردة ولاحظنا وجود الوجوه الجميلة في هذه السوق، وإن كان بعضها يبين عليه العوز، ونقص التغذية، وانعدام التجميل والتطرية.

ثم وصلنا إلى جانب من السوق يسمونه السوق المغطى لكونه ذا سقف وفيه حوانيت أكبر مما سبقه وهو أكثر بضائع إلا أن بضائعه قليلة جداً بالنسبة إلى أسواقنا، ويقل فيها الفاخر أو غير المعتاد، و أكثر ما فيه الملابس بأنواعها من ملابس الرجال والنساء وهي كالملابس التي عليهم ليست فاخرة، بل ليست جيدة وإنما هي معتادة أو أقل من ذلك، وتدل على غلبة العوز والحاجة عندهم.

سوق منسك المغطى

وقد رأيتهم لا يزالون يستعملون آلات الحساب القديمة وهي من الخشب على هيئة صندوق صغير لا غطاء له وإنما وضعوا عليه عدداً من البكرات في قضبان معترضة من المعدن، وقد رأيت مثلها في أماكن عديدة من العالم لاسيما في الهند والصين، ومع ذلك لم أعرف كيفية استعمالها.

وحتى السوق ليس كبيراً ولا يستحق مثل هذه الشهرة إلا أن ذلك كان بسبب قلة الأسواق عندهم وقد اشتهر هذا برخص البضائع فيه.

وبين البائعين فيه نسبة كبيرة من النساء إن لم نقل إنهن في العدد مثل الرجال، إلا أنني لاحظت أن نسائهم لا يبتسمن للرجال، وأن الرجال لا يحفلون بهن حتى الجميلات فيهن لم أر شيئاً من ذلك منهن ولا ممن يقف عندهن من الرجال، ولا شك في أن من أسباب ذلك كثرة احتكاك الرجال بالنساء منذ الصغر، وقلة ذات اليد عند الرجال بمعنى قلة الأغنياء منهم الذين يحملهم غناهم على أن يبحثوا عن المرأة الجميلة، ويحمل المرأة أن تبحث عما تريده من نقود أو مال عندهم.

منسك القديمة:

فرغنا من الإطلاع على هذه السوق غير معجبين فقد كان فيه قسم لبيع المصنوعات والأواني الزجاجية والمعدنية والخزفية، وكلها من المستورد الرخيص الذي لا طابع له وركبنا سيارة أجرة مهلهلة وهي كبيرة نسبياً من طراز فولقا الذي يعد كبيراً بالنسبة إلى طراز (لادا) الذي يشبه سيارة (فيات) الإيطالية.

كانت السيارة تكاد تتبدد وهي تتحرك وكل جزء من أجزائها له حركة تنافس محركها في الضجة، وحتى سائقها هو روسي ضخم على

خلاف العادة في الروس البيض، ولعله من المهاجرين من روسيا الأصلية.

أخبرناه بأننا نريد أن نرى (منسك) القديمة، والحديث بلغة أهل البلاد وبالروسية التي يتقنها مرافقنا الأخ عمار البحر.

وصلنا منسك القديمة فوجدناها ضيقة لأنهم جددوا جانباً منها، وحتى هذا القسم القديم المباني على قدمه قد حسنوه مثلما حسنوا باقي أقسام المدينة.

وأهم ما يميزه أن شوارعه مبلطة بالحجارة وليس بالأسفلت وأن البيوت فيه ليست لها نوافذ مفتوحة على الشارع وأن شوارعه هي أزقة قصيرة ولكنها ليست بالغة الضيق بالنسبة إلى قدمها، وكلها مسنمة السقوف من أجل أن تتزلق عنها الأمطار والثلوج.

في القسم القديم من منسك

وفي ميدان ضيق منه تمثال لفتاة شابة على رأسها بومة ولا أدري ما ذا يرمز له ذلك، ولم أجد من يخبرني به.

ويكثر في هذا القسم الطلاء الأصفر للبيوت مثلما عليه الحال في بلاد باردة أخرى مثل هلسنكي عاصمة فنلندا، و(تالين) عاصمة استونيا، ولم أجد أيضاً من يخبرني بسبب كثرة الطلاء باللون الأصفر في البيوت خاصة في البلدان الباردة، وقد سألت عنه أكثر من واحد فاتفق اثنان على القول بأن ذلك لكون الأصفر طلاء جميلاً مع العلم بأن اللون الأصفر هذا يشمل البرتقالي أيضاً.

وتقع مدينة منسك القديمة على مكان مرتفع يطل على بحيرة اصطناعية صغيرة ولعلها استحدثت بعد بنائه كثير.

وقد تأنقوا في تجميل شواطئ هذه البحيرة وخاصة بالأبنية الجميلة المتعددة الطبقات البهيجة الطلاء، وبالحدائق والساحات الخضر المنسقة.

وصادفنا في هذا المكان وفداً تركياً تجارياً كان يزور (منسك) وأخبرونا كما أخبرنا من قبلهم أن تركيا هي الدولة المسلمة الوحيدة التي لها سفارة في روسيا البيضاء، وأما بقية الدول الإسلامية فإن سفاراتها في موسكو هي التي تخدم مصالحها في هذه البلاد.

في جانب البحيرة على حدود القسم القديم من منسك مع عضوي الوفد

لـــم تكـــن منســـك القديمة واسعة، ولذلك لم نطل المكث فيها، وإنما تركـــناها عائدين إلى المنطقة الجيدة التي هي قلب المدينة الحديث الجيد، وفيها فندقنا فمررنا بوزارة الدفاع وهي مطلية بطلاء أصفر وليست كبيرة.

الشيوعيون السالفون:

أشـــار ســـائق سيارة الأجرة باهتمام إلى مبنى متوسط السعة ولكنه معتنى به قائلاً: في هذا البيت عقد أول اجتماع للحزب الشيوعي في البلاد وانتهزت الفرصة لأسأله عن رأيه في حالة البلاد الحاضرة وعما إذا كان يرى أنها أحسن بالنسبة المادية المجردة إليه، فقال: الشيوعيون الآن غير موجوديـــن، وأنـــا أبغـــض الشـــيوعية ففي عهدهم لم أنضم إلى الحزب الشيوعي، لكن راتبي الآن لا يزيد على عشرة دولارات وهو مبلغ لا يكفي لأبسط حاجاتي فما هذه المعيشة؟ إن المرء هنا لا يعرف كيف يعيش الآن.

وعلـــق الأخ عمـــر البحر على ذلك بقوله كثير من الناس في البلاد

الآن مـــثله يشكون من شظف العيش، وبعضهم يقول: إن الشيوعيين كانوا يوفرون للناس الخبز على الأقل.

ساحة النصر:

تقع ساحة النصر في وسط المدينة ويسمونها (بلاشدا بابيدا) فبلاشدا: ســاحة أو ميدان وبابيدا: نصر، وتذكرني كلمة بلاشدا بمعنى ساحة بكلمة (براســا) بالبرتغالية وبما يقرب من ذلك في اللغة الإسبانية بما فهمته من وجود عدد كبير من الكلمات في اللغة الروسية من اللغات اللاتينية، وكثيراً مـــا اسعفني ذلك عندما أعجز عن وجود كلمة روسية فأذكر كلمة لاتينية أجدها موجودة بما يقرب من لفظها بالروسية، مع أن اللغة الروسية ليست لغـــة لاتينية، بل هي مختلفة عن اللغات المتفرعة من اللاتينية كالفرنسية والبرتغالـــية والإيطالـــية ولكـــن ذلك مرجعه إلى العلاقات الثقافية الدينية المسيحية بلا شك إضافة إلى التواصل الثقافي في وقت من الأوقات.

جانب من ميدان الاستقلال (لينين سابقاً) في منسك

وساحة النصر ساحة مهمة واسعة وتحيط بها أبنية فاخرة، وأهم ما يرى فيها نصب النصر وهو شاهق الارتفاع على رأسه نجمة حولها دائرة في أسفله شعلة النصر وهي نار مشتعلة لا تخبو، ولا شك في أن منظر النار في البلدان الباردة يعطي للمكان بل للمنظر كله منظراً محبباً جذاباً.

أخبرونا أن الأزواج عندما يقصدون عقد النكاح في المحكمة يأتون معاً ومباشرة إلى هذا المكان بملابس العرس، وهذه عادة لهم لا يكاد يخل بها أحد منهم.

وتصب في هذه الساحة عدة شوارع مهمة منها شارع لينين الذي هو أهم الشوارع في المدينة حيث يصب في هذا الميدان ولكنه لا ينتهي فيه وإنما يتواصل متفرعاً منه أيضاً.

وشارع يشبهه تغير اسمه بعد الاستقلال وتطليق النظام الشيوعي فأصبح يسمى (شارع سكاريني)، وهذا الشارع يمتد خارجاً من المدينة في اتجاه موسكو من جهة وفي اتجاه وارسو عاصمة بولندا من الجهة الأخرى.

وأكثر المباني المهمة المطلية على المدينة هي صفراء الطلاء ويجري بقربه نهر صغير اسمه (سفيسلتش) .

ميدان لينين الهالك:

كانت الساعة قد وصلت السادسة ومازالت في النهار بقية قضينا جزءاً منها في تمشية في ميدان لينين الهالك، والهلاك صفة للينين ولا سمه الذي كان على هذا الميدان المهم في المدينة وهو الذي يقع عليه فندقنا فقد غيروا اسمه إلى ميدان الاستقلال ولكن كثيراً من الناس لا يزالون

يســتعملون اسمه السابق جرياً على العادة وإن كانوا في جملتهم يكرهون (لينين) وما جاءهم به من الشيوعية.

بيت العالم:

وقفــنا عند بيت واقع على طرف ميدان الاستقلال كتبوا عليه لوحة فــي نصــب مــنفرد أمامه تذكر أنه عاش في هذا البيت العالم الأكاديمي (بوبوف فاسيليفيش) الذي خدم المعرفة من عام ١٩٤٨ إلى عام ١٩٥٥م.

وهذا يرمز إلى تكريم هذا العالم الذي سكن في هذا البيت.

وبجانبه مبنى أحمر الطلاء ذو طراز متميز مبنى بالآجر الأحمر له عــدة أبراج كان كنيسة صادرها الشيوعيون وحولوها إلى متحف ثم أعاده القوم بعد سقوط الشيوعية إلى صفته الأولى.

وعند مدخل هذه الكنيسة نصب حجري خشن المنظر أقاموه لذكرى أول محــرر لصــحيفة مهمة اسمها (زفردا) وتعني بلغتهم النجمة واسمه (أميلنانــيول) وقــد حصــل على لقب بطل الاتحاد السوفيتي، وليس هذا هو الــذي دعاهم إلى إقامة هذا النصب الذي أقاموه لتكريمه بكتابة اسمه عليه في هــذا الميدان المهم، وإنما ذلك لكون الجريدة المذكورة باللغة المحلية التي هي لغــة روســيا البيضــاء أو لــنقل إنها لغة الروس البيض على خلاف أكثر الصــحف والكتب التي كانت تصدر في بلادهم فهي باللغة الروسية المعروفة التي كانت اللغة الرسمية في البلاد ولغة الثقافة والتعليم الجامعي.

وقد مات هذا المحرر في ١٩٤٢/٥/٢٦ حسبما كتبوه مع اسمه.

المؤلف في قلب منسك الفاخر

ومما يجدر ذكره هنا أن لغة (بلاروس) هذه التي صدرت بها هذه الجريدة هي لهجة محلية من اللغة الروسية، ولذلك توجد فيها مقادير كبيرةمن اللغة الروسية حتى إن الروس أنفسهم في سبيل تحقير هذه اللغة يقولون: إنها لغة روسية ردئية.

البيت الذي سكن فيه هتلر:

يقع إلى الغرب من المبنيين اللذين ذكرتهما مبنى واسع جداً أبيض الطلاء مؤلف من ستة طوابق ماعدا طرفيه فمن تسعة طوابق، ذكروا أنه كان المبنى الوحيد الذي سلم من الخراب إبان الحرب العالمية الثانية، وذلك لكونه الذي سكن فيه هتلر إبان احتلال ألمانيا لروسيا البيضاء هذه وما كان عنها شرقاً من البلاد الروسية، وكان هتلر يدير المعارك الحربية في روسيا من هذا البيت.

ومما يجدر ذكره بهذه المناسبة أن أكثر مدينة منسك قد دمر أثناء تلك الحرب.

يوم الاثنين ١٤/٤/١٤١٥هـ - ١٩/٩/١٩٩٤م:

مغادرة منسك:

حملـنا أمتعتـنا على سيارة أجرة كبيرة وغادرنا فندقنا الضخم في مديـنة منسـك في السابعة إلا ربعاً صباحاً للسفر إلى المطار- إن صح التعبير- لأنه بعيد عن المدينة كما تقدم.

وقـد وجدنا الموظفة المسئولة عن الأجنحة التي نحن في أحدها من هـذا الطابق قد أعدت قائمة بأسعار المكالمات الهاتفية التي أجريناها الليلة الـبارحة ومنها مكالمة مع السفارة السعودية في موسكو، وإن لم تكن هذه المكالمـة مفـيدة لنا إذْ لم نجد السفير السعودي هناك الدكتور عبدالعزيز خوجـة، وأخـبرونا أنـه مسافر خارج البلاد، أما نائبه فلم يقبل موظف الهاتف في السفارة أن يصلنا به بناء على أوامر منه ولا يعرفنا.

ولذلـك هاتفنا مكتب هيئة الإغاثة الإسلامية لاستقبالنا في موسكو، وكـان حرصنا على ذلك مبعثه طلب الأمن لأننا نحمل مبالغ مالية نقدية بالعملة الصعبة، والأمن في موسكو الآن وفي كل أنحاء روسيا ليس على مـا يـرام، فخشينا أن يحصل في الأمر لبس وظننا ونحن معنا جوازان (دبلومسيان) أحدهما جوازي، والثاني جواز زميلنا في الوفد الأستاذ حسن أزمر لي أن الطريق الوحيدة للسلامة هو أن تستقبلنا السفارة السعودية كما تستقبل السعوديين.

وقـد تركنا رسالة لنائب السفير الذي هو ليس نائباً بالوظيفة، وإنما هو قائم بالأعمال في غياب السفير.

وسوف يأتي الحديث عن وصولنا إلى موسكو فيما بعد بإذن الله.

سـرنا مـع شوارع منسك الواسعة في هذه الساعة المبكرة فكانت

الشـــوارع خالـــية أو شبيهة بالخالية، ومع ذلك تسير فيها عربات القطار الكهربائـــي (الترمواي) والحافلات الكهربائية (التروللي باس) بكثرة رغم قلة الركاب في هذه الساعة.

وقال الأخ (عمار البحر): إن وسائل النقل العام هنا متوفرة، وليست فيها أية مشكلة إلا كونها تزدحم في أوقات الذروة في الانتقال مثل أوقات انصراف الموظفين من أعمالهم اليومية، والمناسبات العامة.

المؤلف في الميدان الرئيسي في منسك

وخرجنا من قلب المدينة إلى إحدى ضواحيها حيث بدأ الخط السريع المؤلـــف من قسمين بينهما جزيرة ترابية أحدهما للذاهب والأخر للآيب، وقد أطل قرن الشمس في السابعة تماماً، والجو بارد، قال الأخ عمار: إن الجو هنا يكون بارداً في هذه الساعة حتى في الصيف، وأرجعت في نفسي ذلك إلى بعد المدينة عن البحار المؤثرة في الجو.

ولا أدري الذي حملني على أن أسأل مرة أخرى عن حالة الأمن في

المدينة في هذه الساعة وكنت سألت عن ذلك من قبل، فقال الأخ عمار: إن مديـــنة منســك تعتبر مدينة آمنة منذ زمن قديم، ولا توجد فيها عصابات الإجرام الموجودة في مدن روسيا الاتحادية الكبيرة، وناهيك بمدينة موسكو في هذا الأمر.

ومررنا بأكوام من (العمائر الشيوعية) وهي الأبنية الكبيرة المتعددة الطوابــق التي تبنيها الحكومة شققاً صغيرة لإسكان العامة من المواطنين وسبق الكلام عليها من قبل.

ثــم خرجنا من المدينة إلى الجو الريفي الأخضر الذي سبق وصفه أيضـــاً، وقد اتسع الطريق فصار في كل اتجاه منه ثلاث مسارات يفصل بينها خط أبيض.

والجو جميل إذْ أشرقت الشمس على حين أن الريف لا يزال يسبح في ضباب خفيف مكون من بخار الماء.

ورغـــم البرد الذي كنا نشعر به وعلينا الملابس الصوفية فإن سائق الســيارة ليس عليه إلا صدري واسع من الصوف لم يحكم إزراره فظهر منه صدره وأعلى بطنه عارياً يتحدى البرد، وقال لي: أنا لا أشعر بالبرد.

وأمـــا ســيارته فإنها صارت ترتجف عندما زادت سرعتها في هذا الخط الخالي من السيارات تقريباً، وخيل إليَّ أنني شممت رائحة تدل على أنها ارتفعت حرارة محركها.

وقـــد رثيت في هذه الساعة كما فعلت أمس لأناس من أهل الريف علــيهم الملابس المعتادة وقد وقفوا عند محطات النقل العام ينتظرونها أن تمــر بهــم، وليس بأيديهم غير الانتظار، فهذه الحافلات العامة حالتها في الريف والقرى سيئة بخلاف ما كان منها داخل المدينة.

ووصلنا المطار الدولي وهو مطار كل ما فيه يتصف بالخشونة، ويتخذ طابع القوة بعيداً عن تطلب الجمال أو مقتضيات الذوق المترف، حتى الحواجز على الحدائق والأماكن فيه هي من الحديد الصدئ.

وحتى العاملات اللائي يسمين المضيفات الأرضيات هي خشنات أيضاً، وأما موظفات الترحيل فإنهن كالروسيات اللاتي نعرفهن بالخشونة، وعدم المجاملة وأحياناً عدم المبالاة بالإصغاء إلى ما يريده الركاب مما يتعلق بسفره، وأما المجاملات المعتادة في البلدان الأخرى مثل اختيار المقعد الملائم أو مثل ابتسامة الصباح فإنهن أبعد ما يكنَّ عنها.

ووجدنا عند مكتب الترحيل طائفة من النساء الخشنات أيضاً وهن طبقة جديدة من صغار التاجرات أفرزتها الأحداث التي نشأت عن انهيار الشيوعية، وإطلاق حرية التجارة فصارت النساء من هؤلاء تسافرن من دول الاتحاد السوفيتي السابق معهن بضائع صغيرة من إنتاج البلاد إلى البلدان المجاورة بالطائرات حيث يحضرن بضائع ومصنوعات لا توجد في بلادهن، أو لا توجد إلاَّ سيئة الصنع وهن في الغالب في أنصاف أعمارهن، وقد ذهب النصف الأطيب منها على حد قول الشاعر:

وإن أتوك، وقالوا: إنها نَصَفٌ   فإن أطيب نصفيها الذي ذهبا

ويتميزن بالملابس غير المعتنى بها، وبعدم الاحتفال بزينة الوجه، وبشيء آخر مؤذ وهو أن أكثرهن يدخن بشراهة حتى لا تكاد الواحدة منهن ترمي لفافة التبغ من إصبعها.

ولكن هؤلاء التاجرات لن يذهب أحد منهن مع رحلتنا لأنها ذاهبة إلى موسكو التي لا يوجد فيها ما يطلبنه من بضاعة.

حتى حقائب الأيدي:

حدث في مكتب الترحيل اليوم ما لم يحدث لي في جميع أنحاء العالم وقد طرت من مطاراته الصغيرة والكبيرة.

وذلك أن الموظفة وزنت حقائبنا وهي ثلاث ونحن ثلاثة، فليس مع الواحد منا إلا حقيبة واحدة، وذلك خلاف ما اعتدنا عليه في رحلاتنا السابقة في الاتحاد السوفيتي حيث كنا نحمل هدايا كثيرة ثقيلة كنا نعاني من حملها وإنزالها، فقد استبدلنا بها هذه المرة نقوداً أمريكية سهلة الحمل لطيفة الحجم.

وزنت الموظفة حقائبنا الثلاث فإذا بها ٧٠ كيلو جراماً فقالت: معكم وزن زائد كل واحد عنده اثنان من الكيلوات وقد عجبنا من ذلك لأن شركات الطيران صارت لا تبالي الآن بزياد عشرة كيلات أو أكثر، لاسيما إذا كانت في قطعة واحدة مثل حقائبنا.

وزاد عجبنا بل نفورنا عندما أشارت إلى حقائب الأيدي معنا، وقالت: هذه لابد من وزنها ووزنوها بالفعل فصارت ١٨ كيلوجراماً، فطالبتنا بدفع أجرة ٢٨ كيلوجراماً إضافية!!!

ذهبنا مع الأخ عمار البحر الذي يعرف لغتهم نسأل عن الموظف الكبير المسؤول الذي نشكو إليه ذلك، فوجدناه امرأة تبين أنها أكثر خشونة، وأقل لطفاً من صاحبتها، وكلمنا رجلاً فكان كذلك، وتبين أنهم يفعلون بالركاب هكذا من أجل أن يقتسموا النقود التي يحصلون عليها بهذه الطريقة فيما بينهم، وليس من أجل أن يحصلوها للحكومة أو للشركة.

وغلب التظرف الذي ليس في محله أحدنا وقال: يجب أن يزنونا نحن أيضاً ويقارنوا أوزاننا بأوزان بعض الركاب ليجدوا أننا وحقائبنا لا نساوي وزن ثلاثة من الغلاظ الشداد منهم من دون حقائب.

ومن الغريب أن رجلاً ذكروا أنه أعلى مسئول في المطار قال لنا: ليس للراكب أن يحمل إلا زنة ٢٠ كيلوجرام من ضمنها الحقيبة اليدوية.

ولم يكن جدالنا من أجل المبلغ فهو قليل ونحن ثلاثة ولكن من أجل شـــعورنا بأنهم إنما يأخذون منا شيئاً بغير حق، فدفعنا لهم ٣٦ ألف روبل عن الكيلوات الـــ٢٨ ويساوي ذلك أحد عشر دولاراً أمريكياً ونصفاً.

وجـــرياً على عادتهم في هذه المنطقة لم يعطونا بطاقة الصعود إلى الطائـــرة، وإنما طلبوا من جميع الركاب أن يبرزوا التذاكر التي معهم من أجل السماح بدخول قاعة المغادرة ثم السماح بالصعود إلى الطائرة.

وعـــند ضباط الجوازات أظهر الجميع تعجبهم من جوازاتنا، إذْ لم يـــروا مثلها من قبل، كما قالوا، وجاملونا بعدم خضوعنا نحن ولا حقائبنا الـــيدوية للفاحص الآلي، فلم نفتش من أجل الأمن وهذا خلاف المعمول به عالمياً مثلما أن أخذ الوزن الزائد من أجل الحقيبة اليدوية مخالف لما عليه العمل في مطارات العالم كلها، لاسيما إذا كانت حقيبة يدوية واحدة.

وعند الصعود إلى الطائرة أعادوا النظر في تذاكر الركاب الأصلية وأدخلوهـــم إلـــى الطائرة على أساس وجودها وليس على أساس بطاقات الصعود التي لم يعطوها الركاب.

وقد وجدنا الطائرة واقفة في دهليز متحرك خشن بمعنى أنه لم يراع فيه الجمال أو مقتضيات الذوق.

وعـــندما صعدنا إلى الطائرة وجدنا أن مكان وضع الحقائب فوق مقاعد الـــركاب هـــو رف معـــتاد لـــيس له غطـــاء ولا يغلق كما يفعل في الطائرات الحديـــثة، وهـــذا بلا شك فيه خطر من أن تسقط الحقائب اليدوية على الركاب عندما تضطر الطائرة إلى أن تميل أو عندما ترتج ارتجاجاً قوياً.

روسيا الاتحادية

لم نطل المكث في عاصمة روسيا الاتحادية (روسيا الحمراء) وذلك بسبب ضيق الوقت، ولأن لنا برامج في أنحاء أخرى من الجمهورية وبخاصة جمهورية تتارستان، وكنت على عزم أن أذكر هنا زيارتنا لجمهورية تتارستان ومشاهداتنا في بلاد البلغار التاريخية القديمة، غير أن الكلام عليها طال حتى زاد حجمه على حجم هذا الكتاب، والكتاب إذا طال صار عرضة للملال، لذلك رأيت أن أثبت هنا دراسة عن المسلمين في روسيا الاتحادية أمرنا مكتبنا (مكتب رابطة العالم الإسلامي) في موسكو بإعدادها لتكون بديلة عن ذلك.

ودراسة أخرى أصدرها (مركز التنسيق الأعلى للإدارات الدينية لمسلمي روسيا) من باب الإيضاح واستكمال البحث.

وأما الكلام على جمهورية تتارستان، وبلاد البلغار التاريخية فقد اشتمل عليه ذلك الكتاب الذي أشرت إليه وعنوانه (بلاد التتار والبلغار)[١].

(١) طبعت ذلك الكتاب رابطة العالم الاسلامي بمطبعتها في مكة المكرمة ونشرته عن طريق البيع والتوزيع والإهداء في أماكن قريبة وبعيدة.

الدراسة التي أعدها مكتب رابطة العالم الإسلامي في موسكو تحت عنوان (معلومات مفصلة عن روسيا الاتحادية وحالة المسلمون فيها)

١- **اسم الدولة:** روسيا الاتحادية.

٢- **موقعها الجغرافي:** تقع في القارتين الأوروبية والآسيوية وتتاخم روسيا في حدودها عدداً من الدول، ففي أقصى الجنوب الشرقي تجاور روسيا كوريا الشمالية، ومن الجنوب الصين ومنغوليا وقازاخستان وأذربيجان، وجورجيا والبحر الأسود، ومن الجنوب الغربي أوكرانيا، ومن الغرب روسيا البيضاء ولاتفيا واستونيا وخليج فنلندا والنرويج، وتقع محافظة كالين غراد بين ليتوانيا وبولندا منفصلة عن أراضي روسيا الاتحادية عن طريق روسيا البيضاء، ومن الشمال بحر بارنيش وبحر كارا وبحر لابتيف وبحر شرق سيبريا وبحر تشكتش، ومن الشرق مضيق بيرنج أوكسك وبحر اليابان.

٣- **اللغة:** اللغة الرسمية التي تستعمل في المنطقة هي اللغة الروسية.

٤- **مساحتها:** ١٧ مليون و٧٥ ألف كيلومتر مربع.

٥- **نظام حكمها:** الحكم فدرالي.

٦- **عاصمتها:** موسكو.

٧- **أبرز المدن:** (١) سان بطرس بورج. (٢) نيجني نوف غورد (٣) قازان.

٨- **عدد سكانها:** ١٤٧,٠٠٠,٠٠٠ نسمة.

٩- **اشهر اللغات فيها:** (١) اللغة الروسية (٢) اللغة التتارية. (٣) اللغة الأوكرانية.

١٠- نبذة عن تاريخ البلد والوضع الاقتصادي والسياسي الحالي والأحزاب والجهات والشخصيات المؤثرة واتجاهاتها نحو الإسلام:

مقدمة:

أصبح الإسلام الدين الرسمي في كامل أراضي دولة الأورده الذهبية التي كان أولها إسلام محمد بركة خان حفيد جنكيز خان ونشوء الدولة الإسلامية الأولى في الشمال البارد البعيد، وسرعان ما أخذت إمارة بلغار الموجودة ضمن أقوام الأورده الذهبية تلعب دوراً متقدماً داخل الدولة، حيث تكون تدريجياً أساس ما عرف بعد ذلك بالأمة المقبلة التي ضمت البلغار والمغول الذين يتكلمون إحدى اللغات التركية القديمة ويدينون بالإسلام .

وخلال تفكك الأورده الذهبية إلى دول متفرقة نشأت في مكان البلغار السابقة إمارة قازان التي كانت تتمتع بالأهمية الثقافية والاقتصادية الكبرى قياساً مع الإمارات الإسلامية المتكونة الأخرى على أنقاض الأورده الذهبية والتي من أهمها (إمارة سيبيريا الإسلامية، إمارة أستراخان، إمارة النوغاين وإمارة القرم)، وكان حكام موسكو (حيث لم تكن روسيا تشمل إلاّ هذه المحافظة فقط) يدركون ذلك جيداً، حيث حاولوا خلال فترة زمنية طويلة إضعاف الحكم الإسلامي في قازان.

وبعد حدوث عدة أزمات سياسية في قازان قامت قوات للقيصر الروسي "إيفان الرهيب" بمهاجمة قازان، وتم احتلال قازان والاستيلاء عليها ليضع الروس حداً لتاريخ وجود خانية قازان الإسلامية.

أثناء هذا الهجوم وبعده تم تدمير قازان عملياً وإبادة سكانها من المسلمين أو تهجيرهم من المدينة، وحظر عليهم في ما بعد الرجوع والإقامة فيها، حيث حددت المسافة التي يمكن أن يقيم فيها التتار العائدون بـ ٢٠ كلم بعيداً عن المدينة، واستمر الوضع كذلك لغاية أواسط

القرن ١٨، ولم يسمح للتتار بالرجوع إلى قازان إلا في عهد الإمبراطورة "يكاتيرينا الثانية" وتحديداً في الأعوام ١٧٦٦-١٧٧٠م.

بقيـــت قازان محافظة روسية لغاية ١٩٢٢م عندما تولى الشيوعيون الحكـــم بعـــد الثورة البلشفية حيث منحت قازان والمدن المجاورة لها اسم جمهورية تتارستان وحصلت على الحكم الذاتي إلى وقتنا الحاضر.

ومـــن أبـــرز وأهم ما جرى خلال حكم الأورده الذهبية أي ألتون أورده هـــو تأســـيس موسكو كعاصمة للدولة الروسية فقد أشار كرازمين (كاتب روسي مشهور) إلى أن موسكو مديونة بعظمتها للخان الذي كانت تتبعه أيام سلطة الأورده الذهبية عليها.

وفـــي نهايـــة القرن الخامس عشر تم عقد اتفاقية دفاع مشتركة بين روسيا القيصرية وشبه جزيرة القرم ومع أن هذه الاتفاقية كانت ذات أهمية كبرى إلا أن روسيا القيصرية قامت بعدة محاولات لاحتلال جنوب القرم.

ففـــي ســـنة ١٥٥٢م ســـقوط إمـــارة قازان وفي ١٥٥٦م سقطت إمارة أســـتراخان-وهما إمارتان إسلاميتان- لذلك كان سقوط إمارة القرم أمراً متوقعاً، وفـــي هـــذه الفترة نشطت روسيا في محاصرة القرم ووصلت قواتها إلى جنوب أوكرانـــيا وبـــدأت فـــي عدوانها على أراضي القرم سنة ١٦٧٨م، حيث قامت روســـيا بالضغط على الأتراك لإجبارهم على التخلي عن القرم "التي كانت في هـــذه المـــرحلة تابعة للخلافة العثمانية"، وقد سعت روسيا باحتلالها شبه جزيرة القرم للسيطرة على مداخل البحر الأسود وبحر اوزوفسكي.

ولـــم يتمكـــن قيصـــر روسيا "بيوتر الأول" من احتلال القرم رغم المحاولات العديدة وفي سنة ١٧٣٦م في عهد "انا أونوفنا" قام فيلدا "مرشال

مينـــيخ" باحتلال المناطق الشمالية وحرق المدن والقرى ووصل إلى "خان ســـراي"، وقام بحرقها وحرق قصور الخانات والمكتبات والكتب والوثائق والأرشيف الذي كان رمزاً تاريخياً للشعب التتاري.

وفـــي ســـنة ١٧٣٧م قامــت الجيوش الروسية مرة أخرى بقيادة المارشال "لآسي" بمطاردة التتار في السهول والجبال وقتل وحرق وتدمير القرى والمدن، وفي سنة ١٧٧١م قام الجيش الروسي بتطبيق نظرية تقول: (مـــن غـــير رجوع أو انتظار يجب محو التتار من هذه الأرض لأنهم لا تـــرجى منهم فائدة أو مصلحة) قام القائد الروسي "دولقاروكافا" بتكرار ما قـــام بـــه فيلدا مارشال مينيخ وفيلدا مارشال لآسي حيث قام بقتل وحرق التتار وتدمير القرى والمدن والمعامل والمزارع وتسليمها للنصارى الذين قاموا بعمل تمثال له في مدينة سيفاستوبول تقديراً وشكراً له.

وفـــي يونيو ١٧٧٤م تنازلت تركيا عن القرم لروسيا حسب الاتفاق الموقع بينهما، وفي عام ١٧٨٣م وقع القرم تحت السيطرة الروسية التامة وكانت هذه الخطوة الأولى في برنامج الإمبراطورية الروسية، أما الخطوة الثانية فكانت تهجير وطرد التتار الذي أصبحت أمامهم خيارات إما الهجرة والإبعاد أو الرضا بحياة الدون.

بعدهـــا قامـــت الســـلطات الروسية بمصادرة الأراضي من التتار وأغلبهم أعطوا جوازات الهجرة، وفي أراضيهم أسكنوا الأسياد والمقربين مـــن القيصـــر والموظفيـــن الروس، أما التتار الذين لم تنلهم يد التهجير الروســـية فقـــاموا باستئجار أراضيهم من الروس، إلاّ أن الروس لجهلهم بالظـــروف الطبيعية للقرم أصابهم الفقر وعادوا إلى روسيا، الشيء الذي

جعل الروس مجبورين على إبقاء التتار في بعض المناطق لفلاحة الأرض ولكن من غير حق التعبير أو الرأي أو ممارسة أي شعائر أو عادات، وعلى الرغم من أن السلطات عملت وبجدية على القضاء على الحياة الدينية وطمس معالم الثقافة التتارية إلاّ أن الشيوخ والقضاة والمعلمين واصلوا مسيرة التعليم رغم أن ذلك كان يشكل خطورة كبيرة على حياتهم، وكثير منهم تعرضوا للإبعاد إلى سيبيريا بسبب نشاطهم في مجال التعليم .

إن الضغوط المتواصلة من جانب السلطات الروسية على التتار واتهامهم بالتواطؤ والعمالة لصالح تركيا، إضافة إلى ما لحق بهم من خراب ونهب من جانب اللصوص وقطاع الطرق جعل التتار الباقين يلجئون إلى الهجرة الجماعية ومغادرة أراضي القرم وهذا جاء متمشياً مع السياسة الروسية التي نشطت في هذه الفترة وقامت بتشجيع الروس وتقديم المساعدات لهم للسكن والاستقرار في القرم ، مع استمرار السلطات الروسية في سياستها المناوئة للتتار عبر الجرائد القيصرية التي ظلت تصف التتار بالجهل والتخلف والكسل والعمالة لجهات أجنبية.

ثم حصل النفي الجماعي لتتار القرم إلى آسيا الوسطى وسيبيريا على يد طاغية الشيوعية جوزيف ستالين.

الوضع السياسي والاقتصادي الحالي:

كان القياصرة يلغون أحياناً الندوات الشعبية ومؤتمرات الإقطاعيين والبرلمانات بالرغم من أنها كانت تساعدهم في تثبيت سلطتهم وتقويتها لأنهم كانوا يدركون عدم فعالية تلك الممارسات، وجاء البلاشفة إلى الحكم.. وأقاموا مجالس السوفييت الشيوعية ولكنها في حقيقة أمرها كانت

مجالس صورية تردد نعم أو لا عند الضرورة. وابتكروا مجلس السوفييت الأعلــى لــيخدم السلطة التنفيذية التي كانت تمثل اللجنة المركزية للحزب الشيوعي السوفييتي والمكتب السياسي.

وبعــد إعــلان "البيرســترويكا" و "الغلاسنوســت". انتهى حكم مجالس الســوفييت الأعلــى وأصبح نواب الشعب الموجهون لغرس التقاليد الديمقراطية عــام ١٩٩٠ رهائن القوى التي اندفعت للاستحواذ على السلطة المطلقة ونعتقد أن هــذه الظاهــرة تــتكرر مع كل تشكيلة لبرلمان جديد في روسيا وهي التي تؤجــل أو تغــتال روســيا الديموقراطية، ولقد تبنى دستور روسيا الجديد الذي أعلن في ديسمبر ١٩٩٣ إقامة نظام برلماني جديد، لكنه ذو صلاحيات محدودة جداً بعد أن كرس سلطة الرئيس.

ولو عدنا إلى الوراء وجدنا مجلس السوفييت الأعلى حتى في أوقات الحكــم المطلق للجنة المركزية للحزب الشيوعي يمتلك سمعة ونفوذاً في المجــتمع الروســي. أما سمعة البرلمان الروسي الجديد ونفوذه فلم تتكونا بعد. ليس للبرلمان أي تأثير على الوضع في روسيا إذ أن السلطة التنفيذية تسيطر على الدولة على المستوى الفدرالي وفي الجمهوريات والمقاطعات والمناطق. وأظهرت التجربة الماضية بأن السلطة عاجزة ومتناقضة فيما بيــنها وغــير قابلة على الفعل الاستراتيجي، إذ يعمل التناقض الظاهري للحكــم المطلــق المعــروف من قبل علماء القانون والسياسة عمله بحيث تكون الســلطة التنفــيذية غــير قــادرة علــى تأميــن الاستقرار السياسي والنهوض الاقتصــادي والاجتماعي والأمن الوطني والشخصي. ويبقى خفياً التنوع الكبير للمصــالح السياســية والاقتصادية والقومية والاثنية وغيرها وينخفض إلى الحد الأدنى الحوار الاجتماعي والتعاون والنقد البناء ومراقبة مؤسسات الحكم.

تــم إضــعاف النظام البرلماني في روسيا المعاصرة ليس بسبب إخراج الســلطة التنفيذية من مراقبة المجلس الفدرالي فحسب، بل التقسيم الاصطناعي. حيــث لا يوجــد فــي روســيا الآن بــرلمان واحد ذو أهلية كاملة، بل يوجد (الــبرلمان) الــذي يغص منذ تشكيله بالخلافات والتناقضات بين الكتل الحزبية فيه و (الاتحاد) الذي تسيطر عليه مصالح موظفي الدولة الكبار.

ويحــق لنا أن نطلق على برلمان كهذا "برلمان الجيب"، لأنه مستعد فــي أي لحظــة اتخــاذ القرار الملائم لصاحب مقام رفيع في الدولة لأنه مســؤول عن النائب وظيفياً أو إفشال أي قانون إرضاء له، ولا توجد آلية تظهــر إرادة الــنواب وتســاعدهم على تحقيقها وهذا يؤدي إلى عاقبتين خطيرتين : تخفيض فعالية سلطة الدولة ويعود بالضرر على وحدة روسيا السياسية-الحقوقية.

ولا بــد لكــي نحــدد مصير النظام البرلماني في روسيا أن نأخذ ناحيتيــن مــن المشــكلة: تنحصر الناحية الأولى في تقويم دور البرلمان وإمكاناته في صورته الحالية.

إن نفــوذ البرلمان غير مرئي بالمقارنة مع سلطة الرئيس والسلطة التنفيذية، ونضع مثالاً على ذلك عندما تم إهمال مجلسي البرلمان والاتحاد فــي مســائل حــيوية كشن الحرب على الشيشان وإصدار المراسيم التي تــتجاهل رأي الــنواب مثل المرسوم الخاص بمرحلة الخصخصة النقدية الثانية والخروقات التشريعية الأخرى.

أمــا الناحــية الثانية من المشكلة هي سلطة الرئيس المطلقة و "فيتو" الرئيس علــى قــرارات البرلمان بمجلسيه. إن سلطة الرئيس ضرورية لروسيا، ولكن ليس على حساب صلاحيات البرلمان والانتقاص منه ومعاملته باستخفاف.

أهم الأحزاب والجهات والشخصيات المؤثرة:

* **الكريمليـــن وإدارة الرئـــيس:** بالنســـبة للرئيس الجديد فلاديمير بوتين مقارنـــة مـــع الرئـــيس السابق يلتسين فإنه يمتاز نوعاً ما باستقلالية اتخاذ القرارات أما بالنسبة لعلاقته نحو الإسلام فحسب تصريح بعض الأشخاص أن المشـــكلة تكمن في غياب جهة رسمية لتزويده بالمعلومات الدقيقة حول الإســـلام وهو الشيء الذي يؤثر في اتخاذ القرارات رغم تصريحاته الدائمة باحترامه للدين الإسلامي واعترافه به كدين ثان في روسيا.

* **الحزب الشيوعي:** هو وريث الحزب الحاكم في عهد الاتحاد السوفييتي ومـــا زالت له قاعدة قوية في جميع أنحاء روسيا مكونة من المسنين وبخاصـــة الفقـــراء وقدماء الجيش الأحمر السوفييتي وله ٣٥% من مجموع مقاعد البرلمان الحالي.

* **حـــزب الوحـــدة :** تكـــون قبل الانتخابات البرلمانية والرئاسية الأخيرة من طـــرف إدارة الكريمليـــن لضـــمن الأصـــوات للرئـــيس الجديد ومن أجل الحصـــول علـــى برلمان موال للحكومة، وتزعمه وزير الطوارئ (سيرجي شـــيبو) وعـــن طريقه تمكن حزب الرفاه الإسلامي (الروسي) من الحصول علـــى أربعـــة مقـــاعد فـــي البرلمان، أما حزب الوحدة فبعد حصوله على المرتـــبة الثانـــية في البرلمان انضم إليه عدد من الشخصيات الكبيرة منهم رئيس الحكومة السابق فيكتور شيرنوموردين.

* **اتحـــاد حركتي الوطن وكل روسيا:** يتزعمها رئيس الحكومة السابق ووزير الخارجـــية يفيجيني بريماكوف، وهو من المستعربين وله علاقات جيدة مع الـــدول العربـــية، وهـــو مـــن أنصـــار صداقة روسيا مع العالم الإسلامي

والرجل الثاني في الحركة هو عمدة موسكو يوري لوجكوف.

- **حـــركة يـــابلوكو- وتعنـــي بالعربـــية التفاحة:** وهي حركة ليبرالية ديمقراطـــية تعتمد على اقتصاد السوق، زعيمها غريغوري يفلينسكي والرجل الثاني في الحركة سفير الاتحاد السوفيتي الأخير في أمريكا.

* **الحـــزب الليبرالي الديمقراطي:** زعيم الحزب فلاديمير جيرينوفسكي- السياســـي المشهور بتصريحاته الشاذة والمتناقضة ومفاجآته الساخرة الغريـــبة التـــي يقوم بها بين الحين والحين، وهو من أصدقاء الرئيس صدام حسين، ومن المعادين لأمريكا وإسرائيل.

* **حركة اتحاد القوى اليمينية:** يتزعم هذه الحركة مجموعة من الشباب المواليـــن فكرياً وأيديولوجياً لأمريكا وتوجهاتهم رأسمالية غربية بحتة وهـــم ضـــد أي علاقة مع الشرق أو العالم الإسلامي، أهم شخصيات الحركة (بوريس نمتسوف، أناطولي تشوبايس، إيرينا خاكمادا، ورئيس الوزراء السابق، كيرينكا) وهم يهود أو متعاطفون مع اليهود.

الوضع القانوني الحالي للإسلام:

بالنســـبة لروسيا الاتحادية فهي تعتبر دولة علمانية، أما بخصوص الأديان فحســـب القـــانون الفدرالـــي الذي أقره مجلس الدوما في السابع من يوليو عام ١٩٩٥ حـــول الأديـــان والنشاط الخيري فإنه ينص على أن الدولة تحترم جميع الأديـــان، ولها نفس الحقوق ولا تميز ديناً عن آخر، لكن هناك نص في القانون يـــنص علـــى أن الحكومة الروسية تعتبر الدين النصراني الأرثوذكسي على أنه الديـــن التقلـــيدي لأغلبـــية مواطني روسيا وتحترم الدين الإسلامي الذي تعتبره الديانة الثانية رسمياً لشعوب روسيا نسبة لعدد معتنقيها.

لكن تطبيقياً فأجهزة الحكم تولي أهمية كبرى طبعاً للكنسية الأرثوذكسية على الديانات الأخرى لاجتناب الصراع معها.

كذلك رغم أن اليهود قلة لا يزيد عددهم عن ٠,١,٥/. من مجموع عدد سكان روسيا إلا أنهم لاستحواذهم على وسائل الإعلام والإمكانات المالية والاقتصادية الهائلة يلعبون دوراً كبيراً في توجيه المسؤولين الروس ضد الدين الإسلامي وخاصة بعد الحرب الشيشانية الثانية.

النظام والقوانين التي تحكم الأنشطة التعليمية والإسلامية والدعوية:

بالنسبة للأنشطة التعليمية فإن القوانين والنظم تسمح بفتح مدارس خاصة (إسلامية، مسيحية، يهودية) فإذا كانت المدرسة تريد أن تمنح شهادات معترفاً بها من وزارة التعليم الروسية فيجب على المدرسة أن تتحصل على شهادة تسجيل من وزارة التعليم، أما إذا كان الهدف هو توعية الناس أو مجرد عمل دعوي من دون منح شهادات فيمكن المدرسة أن تشتغل تحت تغطية جمعية دينية أو مسجد.

أما الأنشطة الإسلامية والدعوية فهناك قانون فدرالي حول حرية الاعتقاد، أي أن كل مواطن له الحرية الكاملة في اعتناق أي مذهب أو دين، لكن بالنسبة للنشاط الدعوي فلا يوجد قانون محدد حول كيفية النشاط، لذلك نجد عدداً كبيراً من المؤسسات الدعوية والمراكز تواجه مشكلات مع الأجهزة الأمنية لمجرد نشر كتاب فيه فقرة غير مفهومة أو جديدة، باتهامهم هذه المؤسسة أو المركز بمحاولة نشر الفتنة والتفرقة بين القوميات.

عدد المسلمين ونسبة المسلمين فيها:

تتراوح نسبة المسلمين من ١٥- ٢٥./. من مجموع عدد السكان.

روسيا دولة أوروبية آسيوية تبقى الطائفة الإسلامية فيها هي الطائفة الثانية من حيث تعداد السكان، ووفق تقرير "راوول عين الدين" رئيس الإدارة الدينية لمسلمي الإقليم الأوروبي لروسيا فإن موسكو وحدها يسكنها ٨٠٠,٠٠٠ مسلم، أما روسيا بعامتها فيسكنها ما بين ١٨ إلى ٢٢ مليون مسلم، هذه المعطيات يوردها تحديداً "إغناتينكو" الدكتور في علوم الفلسفة وخبير مجلس دوما الدولة، وهناك معروف آخر في علم الإسلاميات وهو "مالاشينكو" يذكر أن تعداد المسلمين يتراوح بين ١٣,٥- ٢٣ مليون نسمة وطرق الحساب مختلفة: فبعضهم يسجلون في عدد المسلمين الشعوب الإسلامية بعاميتها مضيفين إليها النساء اللاتي تزوجن من المسلمين.

ويفسر غياب الإحصاءات الدقيقة- بجانب الأمور الأخرى- واقع أنه عند القيام بتسجيل المواطنين حسب أسمائهم الدينية في روسيا، لا يشار إلى الانتماء الديني للمواطنين في أي وثيقة رسمية.

وعادة ما تبنى حسابات عدد المسلمين على أساس المعطيات الخاصة بعدد السكان الأصليين فيما يسمى الأطراف الإسلامية في روسيا الاتحادية، بينما لا يوجد طرف واحد من أطراف روسيا الاتحادية ليست فيه جاليات إسلامية كبيرة أو صغيرة، وينظر إلى بعض الجمهوريات الداخلية في قوام روسيا بموجب التقليد باعتبارها جمهوريات إسلامية مثل: "تتارستان وباشكيريا- وداغستان وأنغوشيا والشيشان".

أصولهم وجنسياتهم وأماكن تمركزهم :

يتألف المسلمون في روسيا الاتحادية من عدد كبير من القوميات بحيث تختلف كل قومية عن الأخرى من حيث العادات والتقاليد واللغات ، ويوجدون في مناطق مختلفة في جميع أراضي روسيا ويمكن تلخيص كل ذلك فيما يلي:

١. القوقاز الشمالية (جمهوريات داغستان وشيشان وانغوشيا وأوسيتيا وقباردين- بالكاريا وقاراتشاي- شركاسيا واديغيا)، وفي هذه المناطق يوجد عدد كبير من القوميات حيث إن جمهورية داغستان وحدها توجد قوميات كثيرة، لكل قومية لغة على حدة.

أما الجهوريات الأخرى فكان الشيشان يمثلون أكبر عدد من المسلمين قبل الحرب في جمهوريتهم وذلك بمليون نسمة ثم يليهم الأفاريون بـ (٦٠٠٠٠٠) نسمة ثم القراتشاي والشيركس والشعوب الأخرى.

٢. (بقية سائر الأراضي (حوض نهر الفولغا، منطقة جبال أورال، سيبيريا)، كما يمكن أن تنسب إلى هذه المناطق أيضا المحافظات الروسية أصلا معظم المسلمين المقيمين في هذه الأراضي من التتار (حوالي ٧ ملايين) وهناك الباشكيريون ١,٥ مليون والقازاقيون ٥٥٠ ألف- وهم جميعا يمثلون (أكثر من ٥٠%) من نسبة جميع المسلمين في روسيا- وهم الشعوب الإسلامية الأكبر تعداداً في أراضي روسيا الاتحادية.

مع أن أكثرية هذه الأراضي هي أراض إسلامية في الأصل، فإن المسلمين لا يشكلون اليوم أكثرية السكان في أية جمهورية أو محافظة من الجمهوريات والمحافظات التي تكون هذا الإقليم.

وأكبر عدد من المسلمين في هذا الإقليم يعود إلى جمهوريتي تتارستان وباشكرستان (حيث يشكل المسلمون في كليهما حوالي ٥٠./.) وثم محافظات ساراتوف وبينزا وأوليانوفسك وتيومين ونجنى نوفغورود وأستراخان وفولغوغراد تشيليابينسك وييكاتيرنبورغ واورينبورغ.

لغاتهم ومذاهبهم:

تتعدد لغات الشعوب الإسلامية في روسيا بتعدد قومياتهم لذلك تم تقسيمهم حسب اللغات التي يتكلمون بها إلى:

* **اللغات الأتراكية** (ينتمي إليها شعوب : التتار، البشكير، الأوزبيك، التركمان، القازاق، البلقار، القراتشاي، الكوميك، النوغاي، القرغيز ..)، وهم كلهم سنيون على مذهب الإمام أبي حنيفة.

* **اللغات الفارسية** ((ينتمي إليها شعوب: الطاجيك، الأوسيتينيين، والأكراد)). بالنسبة للطاجيك فكلهم سنيون على مذهب الإمام أبي حنيفة أما الأوسيتينيين فمنهم ٤٠% من المسلمين أغلبيتهم سنة أحناف وقليل منهم شيعة.

* **اللغات الآديغية** : (ينتمي إليها شعوب: الشيركس ، الأديغ، الشاب سوغ، القبرداي). وهم كلهم سنيون أحناف.

* **اللغات القوقازية الأخرى:** (ينتمي إليها شعوب : الشيشان واللانغوش، الداغستانيين (حوالي ٢٠ قومية) ، وأغلبيتهم سنيون على مذهب الإمام الشافعي، وفيهم قليل من الشيعة ، لكن تنتشر فيهم الفرق الصوفية بكثرة خاصة في داغستان.

الوضع التعليمي لهم ولأبنائهم:

التعليم هو تعليم علماني . لكن في الوقت الحاضر أصبح التعليم الإسلامي في عدد من المدارس الحكومية الموجودة في المناطق الإسلامية.

مستواهم التعليمي والثقافي والاجتماعي:

قبل ثورة ١٩١٧م الشيوعية كانت لأغلبية الشعوب المسلمة كتابة لغتهم على أساس الحروف العربية لكن خلال الفترة من ١٩٢٤ إلى ١٩٢٩ تم تحويل جميع اللغات للقوميات الإسلامية إلى الحروف اللاتينية وقد فسر ذلك بالسعي إلى جعل هذه الشعوب أكثر تحضراً إلاّ أن جميع هذه اللغات تعرضت خلال الأعوام ١٩٣٧-١٩٣٩ لتغيير جديد حيث حولت إلى الحروف السيريلية (الأحرف الروسية الحالية)، ورغم أن هذه الكتابة تناقض قوانين كل لغة من هذه اللغات فإن هذه السياسة انتهجت في ظروف النظام الشمولي الذي رأى هدفه في إقامة إنسان جديد هو الإنسان السوفييتي الخالي من الصفات القومية ولهذا لم تؤخذ اعتراضات العلماء بعين الاعتبار.

وهكذا أصبحت كل الأدبيات المكتوبة بالحروف العربية بلغات الشعوب المسلمة ليست في متناول الأجيال الجديدة الأمر الذي جردهم تلقائياً من تاريخهم الإسلامي الحافل وحولهم إلى متخلفين قليلي الثقافة، ونجد اليوم أن قضايا تغير الكتابة بالنسبة للكثير من لغات الشعوب الإسلامية هي قضايا سياسة ، وتميل جميع النخب الحاكمة لهذه الشعوب إلى إدخال الأبجدية اللاتينية وليس العربية.

واللغة الروسية هي اللغة السائدة في أراضي البلاد وما زالت

الإمكانيات موجودة لبعث لغات الشعوب الصغيرة في الجمهوريات القومية، علماً أن مواقع اللغات الأصلية قد نسفت بشكل ملحوظ حتى في عهد الحكم الشيوعي.

أما مشكلة المسلمين الذين يعيشون كأقليات في المدن الروسية الأخرى فإن أغلبيتهم نسوا لغتهم الأم حتى عند الكلام ناهيك عن الكتابة والقراءة، في حين تتضمن لغات الشعوب الإسلامية ثروة ثقافية غنية جداً، بضمن ذلك الصلة التي تتصل مع الإسلام، الأمر الذي تخلو منه اللغة الروسية طبعاً.

واللغات القومية تتضمن الأسماء الإسلامية والكلمات المأخوذة من القرآن والسنة النبوية باعتبارها كلمات أصيلة في هذه اللغات في حين تكون تلك الكلمات غريبة على اللغة الروسية ولا تجد فيها الجهاز الاصطلاحي المناسب.

إن تعليم الأطفال والناشئين باللغات القومية في المدارس والمعاهد القومية في المدن الروسية الكبرى يبدو اليوم أمراً قليل الاحتمال ، لكن لا يمكن بدون ذلك الحديث عن المحافظة على الأصل الإسلامي لهؤلاء الناس واستمراره.

خلال عقود السلطة السوفييتية كان ينظر إلى الانتماء القومي على أنه مؤشر مهم للغاية وإن كان غير معلن على سبيل المثال، كانت تخصص لممثلي الأقليات القومية حصص معينة غير معلنة في الوزارات. والهيئات الإدارية ووسط المجموعات العلمية والعسكرية وما إلى ذلك، مع العلم أن هذه الحصص كانت تحدد في كل حالة ملموسة وتتبع جملة من

الظروف. فمثلاً تمتع الداغستانيون بميزات عالية بالمقارنة مع الشيشانيين والأنغوش، ولم يكن بوسع تتار القرم أن يأملوا في شغل أي مواقع مرموقة في حين كان تتار الفولغا ينتسبون إلى أعلى هياكل الدولة في أحيان كثيرة.

وفي النتيجة نجد أن العائلة المسلمة المعاصرة الساعية لتأمين مكانة كريمة لها ولأطفالها في المجتمع، لا تستطيع حتى أن تأمل في التقدم السلم الاجتماعي المريح لأنها قد تلقى مقاومة ليس بسبب الكفاءة والمواصفات المهنية بل بسبب الانتماء الديني والقومية.

كما أن لروسيا مشاركة فعالة في قمع الحركة الإسلامية في طاجيكستان حيث وقفت إلى جانب النظام الشيوعي، وكذلك إبان الحرب في البوسنة والهرسك وكذلك حرب البلقان الأخيرة حيث وقفت مع الصرب ضد أهل كوسوفو، وكل هذه المشكلات تؤثر سلبياً على مسلمي روسيا.

ورغم كل هذه المشكلات إلاّ أنه يوجد وسط المجتمع الروسي عدد كبير من الذين تحولوا من الديانة النصرانية إلى الإسلام، خاصة أن هناك شريحة كبيرة من الروس لا يؤمنون بجميع التعاليم النصرانية فيما يتعلق بتقديس المسيح كإله.

كذلك هناك فئة أخرى تؤمن بأن الرسول محمد صلى الله عليه وسلم رسول نبي من أنبياء لكنهم يكسبون مضمون النبوة غير الوارد في الإسلام، بحيث يعتبرونه أنه مرسل للعرب فقط، كما يعتبره آخرون أنه من معجزات هذا العالم، خاصة أن كلمة نبي باللغة الروسية تعني "المتكهن" أو الموهوب غير العادي، ومن ناحية المعيشة نجد أن الكثير من

الـــروس لا يحـــبذون أكل لحم الخنزير لكن ليس لدوافع دينية، كما يعجب الكثير بالتقاليد والعادات الإسلامية.

ويشـــعر المـــرء في السنوات الأخيرة أن مقدمات قد نضجت لنشر أوسع للأفكار الإسلامية وسط المجتمع الروسي علماً بأن الدعوة الإسلامية الموجهـــة لغير المسلمين لا توجد بصفة منظمة وعملية بالقدر الذي يطمح إليه كل مسلم غيور.

وهـــناك مشـــكلة اللاجئين من المناطق الإسلامية من آسيا الوسطى والقوقاز والأماكن الأخرى الذين يحتاجون لتدبير أمورهم المعيشية والذين يثيرون نفورا لدى السكان الأصليين من الروس وغيرهم.

مشـــكلة مطـــاردة المســـلمين المقيميـــن فـــي روسيا حتى حاملي الجنسيات الروسية من قبل الشرطة والأجهزة الأمنية على أساس انتمائهم القومي والديني.

ومشكلة استحالة الاستفادة الكاملة من القدرات العلمية بشقيها الديني والدنـــيوي والقدرات الأخلاقية والاجتماعية للمسلمين بسب المقاومة غير المعلنة ضدهم.

مشـــكلة الـــتوجه المعـــادي للمســـلمين عادة للمجتمع الروسي أثناء الـــنزاعات العسكرية والسياسية بمحاذاة حدود روسيا الاتحادية، مما يقيم متاعب إضافية في وجهة الجاليات المسلمة بالبلاد.

مسألة اعتناق الروس الإسلام، حيث تؤدي هذه الخطوة إلى مصاعب فـــي أماكن عملهم وفي علاقاتهم مع أقاربهم ومعاملة المجتمع لهم معاملة سلبية.

الخصـــائص التـــي تتمـــيز بها هذه الدولة سلباً وإيجابياً عن دول العالم وعن بقية دول أوروبا بالتفصيل والأمثلة الوقائع والعوامل المؤثرة التي تجب مراعاتها عند التخطيط الدعوي:

تعتـــبر روسيا الاتحادية وريثة الاتحاد السوفيتي السابق- الذي كان يمـــثل القطـــب الثانـــي من العالم من حيث التأثير الأيديولوجي والسياسي والاقتصادي العلمي- قوة علمية كبرى إذا ما نظرنا لجميع النواحي بغض النظر عن المشكلات الاقتصادية والسياسية والاجتماعية المنبثقة بعد انهيار الشـــيوعية فـــي هذا البلد، وهو الشيء الذي جعل أغلب دول العالم وفي مقدمـــتها الغـــرب يولـــي روسيا أهمية قصوى باعتبارها قوة استراتيجية ونووية كبرى تؤثر في اتخاذ القرار الدولي.

ويتجلى هذا الاهتمام العالمي بروسيا في الدراسات المكثفة التي تقوم بها أكبر مراكز الأبحاث حول طبيعة سكان روسيا وقومياتها المتعددة التي تـــتجاوز ٢٠٠ قومية، وحول المسار الاجتماعي والسياسي المستقبلي لهذا البلد من أجل اتخاذ الإجراءات اللازمة وتوجيهها في صالحهم.

أمـــا إذا نظـــرنا للخارطة الجغرافية والسكانية لروسيا فإننا نجد أن معظـــم أراضي روسيا الشاسعة موجود في الشرق بحيث تمتد من أوروبا الشرقية عبر آسيا الوسطى إلى أقصى الشرق عند حدود اليابان والصين، وإذا مـــا نظـــرنا لهـــذه المســـاحة الشاسعة نجد أن أغلبيتها محاذية للعالم الإســـلامي، وهـــو الشيء الذي يحسب له الخبراء الغربيون ألف حساب، زيـــادة علـــى ذلك أن ما يقلق الغرب كثيراً هو أن روسيا كانت دائماً ولا تزال دولة أوروبية آسيوية تبقى الطائفة الإسلامية فيها هي الطائفة الثانية من حيث تعداد السكان.

فكـــل هـــذا يمكـــن أن تعتـــبره خصائص إيجابية إضافة إلى عقلية المواطـــن الروســـي، حيث نجد أن أغلبية الروس يعادون الغرب واليهود لأنهم يعتبرونهم السبب في جميع الويلات التي حلت بالروس.

لكـــن في نفس الوقت نجد أن هناك خصائص سلبية مثلاً بعد انهيار الاتحاد السوفيتي استولى اليهود على جميع المراكز الحساسة في الاقتصاد الوطنـــي والإعلام، والذي يستغلونه اليوم في توجيه الرأي العام الروسي إلـــى صالحهم، فمثلاً عندما بدأت الحركات الروسية المتطرفة في تفجير المعابد اليهودية وتهديد بعض الرؤوس الكبيرة في البنوك والقطاع المالي تم إبراز الحرب الشيشانية الأولى والثانية، على أنها السبب.

لذلك فإن الذي يجب وضعه في الحسبان ومراعاته عند التخطيط لأي عمل دعوي أو نشاط هو الإعلام بصفة عامة.

أنواع الأنشطة الدعوية القائمة وترتيبها من حيث الأهمية:

- التدريس في المدارس الإسلامية وفي المساجد.
- ترجمة وتوزيع الكتب الإسلامية.
- بناء المساجد أو ترميمها.
- إلقاء المحاضرات.
- الدورات الشرعية الصيفية.
- المخيمات الصيفية.
- الدعوة عن طريق الإنترنت.

أنواع الأنشطة الدعوية الغير موجودة ودرجة أهميتها وأسباب عدم وجودها:

- استغلال الإعلام الإلكتروني (التلفاز والراديو).

- استغلال المساجد للدعاة المخلصين بسبب محاربتهم من أئمة الحكومة الجاهلين خوفاً من تأثيرهم الإيجابي على المواطنين.

أنواع الأنشطة الدعوية الأكثر جدوى في ذلك البلد ومختصر عنها وأسباب أهميتها:

- الاهتمام بالشباب وبالمسلمين الجدد بعيداً عن الشخصيات الرسمية، وذلك عن طريق عقد ملتقيات ونشاطات للشباب.
- استغلال الطلبة العائدين (بالعلم الشرعي) من المملكة والدول العربية.
- الاهتمام بالعنصر النسوي، حيث إن عنصر المرأة في العمل الدعوي يكاد يكون مغيباً.

أهم الجمعيات والمؤسسات الإسلامية:

تجدر الإشارة إلى أن الخلافات الداخلية في وسط الأئمة تحمل طابعاً شخصياً بالدرجة الأولى، وتتعلق بطموحاتهم لبسط نفوذهم، وتزامن مع هذه الخلافات والانشقاقات بروز مجموعة من رجال الأعمال المسلمين إلى الحياة الدينية (الإسلامية)، وهم من أغنياء التتار والداغستانيين وغيرهم الذين كسبوا ثروة طائلة في مجرى إعادة توزيع ملكية الدولة، واستطاعوا بتمويلهم السخي للمشروعات الخيرية أن يكسبوا ود الكثير من رموز العمل الإسلامي في المنطقة، وخاصة في ظل الأزمة الاقتصادية الخانقة التي تمر فيها المنطقة، وأيضاً توقف الدعم المالي القادم من الخارج، مما أجبر الأئمة والمفتين على التعامل مع رجال الأعمال، رغم ما يشاع ويدور حولهم من التهم والأقاويل، على سبيل المثال أصبح "رشيد بيازيدوف" زعيماً لجزء كبير من أئمة روسيا خلال فترة قصيرة حيث

ظهر كممول سخي وراع لقضايا المسلمين، بينما استفاد رجال الأعمال من ذلـــك إظهار نشاطاتهم التجارية بمظهر العمل الديني، وذلك للاستفادة من الإعفـــاء الجمركـــي والضريبي الذي تتمتع به الإدارات الدينية، ومن أهم المؤسسات العاملة في الساحة:

- **مؤسسة الهلال:**

فـــي أواخـــر عام ١٩٩٦ أقام (يازيدوف) اتحاداً دينياً للمسلمين في موســـكو يدعـــي (ياردم) وكذلك أنشأ صندوقاً خيرياً لتنمية التراث الثقافي التتاري (هلال) على أساس الاتحاد المذكور.

قـــبل ذلك الوقت لم يكن (بايزيدوف) معروفاً سوى لدى دائرة ضيقة مـــن الـــناس، حيث كان قد شيد بأمواله مسجداً في قريته كامكا بمقاطعة (نيجنـــي نوفغورد) وقام بتمويل بناء مسجد ومدرسة إسلامية في (نيجني نوفـــو غـــورد)، وتشـــييد المبنى الإداري للإدارة الدينية لمسلمي المنطقة الأوروبية الوسطى لروسيا، ثم المسجد الجامع في موسكو.

وقامت المؤسسة خلال فترة قصيرة ببناء ما عرف بعد ذلك بالقدس الجديـــد ويضـــم مسجداً، ومركزاً ثقافياً، ومبنى للخدمات الدينية، وكنيسة أرثوكسية، ومعبداً يهودياً.

ويشرف على المجمع بعض الأئمة والمفتين الذين انشقوا عن كل من طلعت تاج الدين وراوول عين الدين.

هـــذا وشـــرعت الجمعية (هلال) في تمويل بناء مسجد في مدينة (إفانوفا) واســـتئناف بـــناء مجمـــع إســـلامي فخـــم في مدينة (أومسك)، وتمويل جريدة (الأنـــباء) التـــتارية (موسكو) وجريدة (نوغان ياك) مقاطعة (نيجي نوفغورد)،

وتمويل الفرق الموسيقية التتارية وإجراء الأعياد القومية، وغير ذلك.

وأسفرت أعمال الجمعية عن انشقاق كبير وسط أئمة روسيا، حيث بدأ يستولي على مجموعات المسلمين التابعة للشيخ (راوول عين الدين) ذلك أن أغلبية التتار الموجودين في موسكو هم من الميشاريين أي التتار المنحدرين من محافظة (نيجي نوفوغورد)، وهم دائمو الصلة بوطنهم الصغير.

- **المركز الثقافي الإسلامي الروسي:**

تأسس عام ١٩٩١، يرأسه (عبدالواحد نيازوف) ونائبه (دامير سراج الدينوف) ونشاطات المركز تتسم بخصوصية فائقة، وقد نال المركز قطعة أرض في حي (كونكوفا) لبناء مسجد منذ ١٩٩٤م، ولم يشرع في البناء حتى كتابة هذا التقرير.

- **المجلس الإسلامي الروسي:**

هو مؤسسة اجتماعية مستقلة غير حكومية مقره في موسكو عاصمة روسيا الاتحادية، تم تسجيله في ١٩٩٢م في وزارة العدل الروسية.

أقسام المجلس الإسلامي:

- القسم التربوي.
- قسم الدعوة.
- قسم الإعلام.
- قسم العلاقات العامة والخارجية.
- القسم الخيري.
- القسم المالي والاستثماري.
- قسم التدريب والتأهيل.

- **النور:**

كانــت تسمى مؤسسة (الكوثر)، و بعد التسجيل الرسمي في وزارة العدل الروسية في بداية سنة ٢٠٠١م سميت بجمعية النور وهي داخلة في قــوام الإدارة الدينــية لمسلمي القسم الأوروبي من روسيا بموسكو والتي يترأسها المفتي راوول عين الدين.

وهي مؤسسة خيرية تقع في حي كوزميكي، تركز على مشاريع بناء المســاجد بمساعدة المؤسسات الإسلامية الأجنبية والإدارية الدينية يترأس الجمعــية (ذي الــنور حسانوف)، ومن أهم نشاطات الجمعية الآن إقامة الــدروس الإســلامية في منطقة كوزمينكي بموسكو في إحدى المدارس الحكومية التي تستأجرها المؤسسة في أيام العطل الأسبوعية.

- **المدينة:**

يرأســها رجــل الأعمــال (فايز غلمانوف) الذي مول إنشاء مسجد (المديــنة) فـــي قــرية المدينة بمحافظة (نيجيني نوف غورد) وهي تابعة للإدارة الدينية للمحافظة (نيجيني نوفو غورد).

- **مركز اقرأ:**

ومقــره ضاحية (دوموديدفا) ويديره الشيخ (أنور) ويتم حالياً وضع اللمســات الأخيرة على مشروع المركز الإسلامي هناك بتمويل سخي من أحد المحسنين في المملكة، وبأشراف مباشر من مكتب الدعوة في موسكو، وسيتم تقديم كامل المشروع للوزارة حال اكتماله بإذن الله.

- **مركز الفرقان:**

مؤسســـة تجارية يصب نشاطها في المجال التعليمي والترجمة، قام هــذا المركز بترجمة لمعاني القرآن الكريم، وملخص لأحاديث نبوية إلى اللغـــة الروســـية بالــتعاون مع مؤسسات إماراتية خيرية، ويدير المركز الدكتور (محمد الرشد) سوري الجنسية.

كما يوجد العديد من الجمعيات القومية للمسلمين نذكر منها:

- جمعية الثقافة التتارية في مدينة موسكو تأسست عام ١٩٩١م ورئيسها (توغيل تيل).
- اتحاد ميشقار تأسس سنة ١٩٩١م.
- نادي ميراس للشباب التتري في موسكو ويرأسه (مرات فيض الله).
- نادي المثقفين وترأسه (نظيفة كرغوفا).
- جمعـــية الـــبلغار وصندوق تطور الشعوب الإسلامية ويرأسه (غيار إسكنداروف).
- جمعـــية مرحمة الخيرية ومركز موسكو الاجتماعي التتاري ويرأسه أورال شريبوف.
- المركز التتري لعموم روسيا ويرأسه (يوسوبوف).
- مركز (ألبين سنتر) التتاري للعلاقات الدولية ويرأسه (وحيد يونوسوف).

انتهى التقرير.

الدراسة التي أعدها مركز التنسيق الأعلى
للدراسات الدينية لمسلمي روسيا ومقره موسكو

الحمد لله رب العالمين والصلاة والسلام على رسولنا الكريم، وعلى آله وصحبه أجمعين.

الإسلام في روسيا- نبذة تاريخية:

قد جاء في مقدمة كتاب (المسلمون المنسيون في الاتحاد السوفييتي) (للأكسندر بينيغسن) و(شنتال لوميريبه كيلكجاي): منذ عام ١٥٥٢م يوم أن غــزت جــيوش القيصر (إيفان الرهيب) مدينة (قازان)، وبقدر ما كانت طلائع جيوش إمبراطورية القياصرة تتوغل دوماً وبعمق أشد طوال قرون فــي الأراضـــي الآهلة بالمسلمين في (سيبيريا) وروسيا الجنوبية وسهول (القازاق)، وفي (القوقاز) وآسيا الوسطى، بقدر ما كانت هذه البلدان- في ظاهــرة غريــبة- لا تبقى جزءاً من ديار الإسلام، بل في طي النسيان؛ ينســاها إخوانها في الدين الذين ظلوا وراء حدود الإمبراطورية الروسية، وينساها أيضاً جمهور أوروبا الكبير وروسيا بالذات، وحتى المستشرقين.

ولــم يعــد أي شـــيء يذكر بمجد بخارى..، وجلال الإمبراطورية (التيمورلنكية) وبطولة سكان (القوقاز) المسلمين، ولم يعد يهتم بشأنهم في ذلــك الوقــت غــير المبشــرين الأرثذوكس المكلفين بجرفهم إلى الديانة النصــرانية، ثم شرطة (الأورخانا) المكلفين بملاحقتهم، ومع ذلك- خلف ســتار النسيان- استمرت الحياة شاقة، وانفجرت ثورات في القوقاز وآسيا الوسطى ضد الباغي الكافر.

وكان علماء مستعربون قد نشأوا في المدارس القرآنية في (داغستان)

وأخذوا يدرسون لغة القرآن الكريم في العالم الإسلامي كله، ونشأت في مطلع القرن العشرين حركة فكرية فذة.

ولقد اقتضت حكمة الباري تبارك وتعالى أن تتعاقب الرسالات السماوية، وأن يكون الإسلام خاتمها لأنه جاء ليكمل المسيرة، فهو شامل لكل الديانات السماوية التي سبقته، وهو صالح للبشر جميعاً، ومن المؤكد أن الإسلام دين كامل من الوجهة الشرعية والأخلاقية والثقافية والحضارية والاجتماعية لذلك جاء يحمل سائر ما يحتاج إليه البشر، وهو دين الهدى والشريعة، وإنه الهبة الإلهية، و الإسلام دين جلي المعالم يهتدي بنوره وضيائه جميع الناس في كل زمان ومكان.

ولقد غمر نور الإسلام العظيم أرض روسيا وبدأ ينتشر فيها بدءاً من القرن السابع وحتى وقتنا هذا، وبطرق مختلفة منها الفتوحات الإسلامية، ودبلوماسية خلفاء بغداد والإمبراطورية العثمانية، وكذلك بفضل انتشار التجار المسلمين وهجرة الشباب المسلم من الدول العربية والإسلامية طلباً للرزق أو للعلم في أراضي الاتحاد السوفيتي السابق وروسيا الحالية وبقائهم فيها.

لقد كان دخول الإسلام لبلدان ما وراء القوقاز وآسيا الوسطى في البداية نتيجة للفتح، فقد دخل العرب المسلمون أذربيجان عام ٦٣٩م وتوغلوا في داغستان في عامي ٦٤٢-٦٤٣م، ودخلوا (دربند) لأول مرة عامي ٦٥٢-٦٨٦م، ولم يستطع العرب التوغل في السهوب الواقعة ما وراء (دربند) حيث أوقف بحر قزوين و(الخزر) تقدمهم.

كما انتشر الإسلام سلماً بامتداد الطريقين الكبيرين للتجارة الدولية وهما:

- من الجنوب إلى الشمال بامتداد نهر (الفولغا)، وهو (طريق الفراء).
- من الغرب إلى الشرق، من البحر الأسود إلى الصين، وهو (طريق الحرير).

كما أن التجار والسفراء العرب قد حملوا- منذ القرن التاسع- دين الله الذي بعث به الرسول صلى الله عليه وسلم إلى مملكة بلغار الفولغا الأوسط التي هي اليوم إقليم التتار الحديثين.

وفي مطلع القرن الرابع عشر كان ملوك المغول من العشيرة الذهبية وخانات تشغتاي قد اهتدوا إلى الإسلام الذي أصبح يتقدم مستفيدا من السلام المغولي في النصف الثاني من القرن الثالث عشر، وفي هذه الفترة حدث اندفاع جديد وسع مجال الإسلام حتى (القرم) وسهوب روسيا الجنوبية في شمال البحر الأسود وبحر قزوين، وحتى (سيبيريا الغربية)، وقد استمرت هذه المرحلة من التوسع حتى منتصف القرن السادس عشر.

وانتقل الإسلام بين قبائل الشركس الغربيين وفي أبخازيا بسبب جهود خانات القرم.

واستغل الأتراك العثمانيون في نهاية القرن السادس عشر قوتهم العسكرية المتفوقة وأوقفوا تقدم المسيحية في القوقاز الأوسط، وقد ظل (الكبردينيون) يترددون طويلاً بين موسكو المسيحية واسطنبول المسلمة، لكنهم آثروا الإسلام نهائياً، وأصبحت (كبارديا) بلداً إسلامياً في مطلع القرن السابع عشر، ومنها انتشر الإسلام في بلاد (الأوسيت).

أما في فترة حكم (كاترين الثانية) فقد مر الإسلامي بمرحلة هادئة لأن الإمبراطورة كانت شخصية محبذة للإسلام، وتجده أكثر قابلية من المسيحية الأرثوذوكسية لتمدين الشعوب البدوية المتوحشة في سهول

روسيا وآسيا الوسطى الباردة.

وبدأت مرحلة بناء المساجد والمدارس الإسلامية، ثم ظهرت الجماعة الصوفية من الطريقة النقشبندية في شمال القوقاز، فكان لظهورها أن سجل الموجة الثانية من انتشار الإسلام في الإمبراطورية الروسية.

أمـــا المـــرحلة الأخيرة من انتشار الإسلام في روسيا فقد بدأت بعد إعـــلان الحـــرية الدينية في روسيا عام ١٩٠٥م، وتوفرت فرصة كبيرة للإسلام كي ينصرف إلى مرحلة انتشار جديدة انتهت عام ١٩٢٨م بعد أن بدأت مرحلة الاضطهادات الدينية من قبل الحكومة السوفيتية.

وطـــول هـــذه الفـــترة مرت على الإسلام ظروف غاية في القسوة تعرض فيها المسلمون إلى أكثر الحملات بطشاً وقوة أرادت أن تطفئ نور الحق، ولكنها لم تزد المؤمنين إلا تمسكاً بدينهم ومبادئه العظيمة.

ونســـتطيع القول بأن الإسلام في روسيا الآن بخير وازدهار مستمر رغم بعض الصعوبات التي تعترض طريق المسلمين بين الحين والآخر، وفـــي مخـــتلف المجالات، ولكن بعون الله تعالى سيستمر الإسلام ويزداد انتشاراً ورفعة في ربوع روسيا الاتحادية.

ومـــن هـــذا المبدأ، وبعون الله تعالى، سنحاول في هذه الوريقات أن نضـــئ بعض الجوانب من نشاط مركز التنسيق الأعلى للإدارات الدينية لمســـلمي روســـيا، والإدارة الدينية لمسلمي القسم الآسيوي من بلادنا في خدمة الإسلام والمسلمين في هذه البلاد الواسعة.

لقد تأسست على هذه الأراضي سابقاً الكثير من الدول الإسلامية قبل وصـــول النصـــرانية إلـــيها، وبعد الحملات القوية الشرسة التي قام بها

القياصرة الروس على الدول الإسلامية ذات الثقافات والعلوم المتطورة اندثرت هذه الدول والمدن، ولكن الإسلام بقي في ضمائر الناس وقلوبهم رغم كل شيء تعرضوا له.

أما بعد قيام الثورة الشيوعية وظهور الاتحاد السوفيتي الذي أعلن نفسه "دولة علمانية فصلت عنها الدين وحظرت تدريسه في المدارس، وأعلنوا أن الإسلام كغيره من الأديان الأخرى قضية "شخصية" والشيوعية شكلها الماركسي- اللينيني، هي أيدلوجية الاتحاد السوفيتي الرسمية، والنضال من أجلها هو أحد عقائدها، فكل دين عدوها اللدود، وإن الحزب الشيوعي ينظر إلى الإيمان بالدين كقوة معادية وعائق في الطريق المؤدية إلى الشيوعية، وعليه العمل على إخفائه وتلاشيه بالدعاية، وإن لزم الأمر بتدابير إدارية وبوليسية".

ومن الأمثلة على معاداة الشيوعية للإسلام ما جاء في مقالة (ف.أوليشتشوك) أحد زعماء جماعة الإلحاد الذي كتب باسم (اتحاد المناضلين في سبيل الكفر بالله)- والعياذ بالله- "إن المنظمات الدينية الإسلامية والجوامع هي نشاط العناصر القومية المعادية للسوفيت، إن أعداء الشعب يحيكون خيانتهم تحت راية الدفاع عن الدين، إن نشاط رجال الدين المسلمين أعداء الثورة في الاتحاد السوفيتي توجهه المخابرات اليابانية"، هذا هو المنطق الماركسي- اللينيني في نظرته إلى الإسلام وعلماء المسلمين.

ونستطيع القول بأن المسلمين في روسيا القيصرية وفي الاتحاد السوفيتي البائد تعرضوا إلى أشد الحملات القمعية بطشاً في العالم، لم ير

المسلمون لها نظيراً في أي بقعة أخرى من الأرض.

لقد حاول الشيوعيون ليس من أجل الحد من انتشار الإسلام فحسب؛ وإنما عملوا من أجل اقتلاعه من جذوره، وكانت مهمة مكافحة الدين، وهو الإسلام تقع مبدئياً على عاتق جميع منظمات الدولة والحكومة والحزب الشيوعي السوفيتي، وكانت تعطى دروس الإلحاد العلمي في الجامعات والمعامل، وحتى في إدارات السكك الحديدية، ولقد تم استخدام جميع وسائل الإعلام في الدعاية ضد الدين.

ثم تفننت الشيوعية في استخدام الكثير من أساليب ووسائل البطش والقتل والاضطهاد في حق ملايين المسلمين في روسيا (الاتحاد السوفيتي السابق).

وقد قام ذلك النظام البائد بتدمير المساجد والمراكز الإسلامية العلمية التي كان يقدر عددها قبل الثورة البلشفية بحوالي ٢٦٠٠٠ مسجد، لقد بقي من هذه المساجد في عام ١٩٨٠م أقل من ٩٠ مسجداً فقط، أما البقية فإما خربت، أو حولت إلى مطاعم، ومستودعات ومخازن، أو مصانع لإنتاج الخمور، أو غير ذلك من وسائل الترفيه غير الشرعية، وفي عام ١٩٢٤م ألغيت المحاكم الشرعية، وفي عام ١٩٢٨م أغلقت جميع المدارس الدينية الثانوية والابتدائية (الكتاتيب) وصودرت آخر ممتلكات الأوقاف، وأغلقت جميع الجوامع، إلا النادر جداً منها، ثم دأب الشيوعيون الملحدون على ملاحقة العلماء والأئمة ومضايقتهم لصرفهم عن واجبهم الديني وأداء رسالتهم الإسلامية، وقاموا بالتنكيل بالآلاف منهم، أو نفيهم إلى سيبيريا بعد إلصاق التهم المختلفة بهم، وحاولت الشيوعية أيضاً أن تطبق تجربتها في تشريد الأهالي من المسلمين الأبرياء الذين لا ذنب لهم إلى أن انخفض

عددهم انخفاضاً رهيباً.

وكانت هذه الحقبة محنة قاسية للمسلمين في هذه البقاع ونضالاً مستمراً ليحافظوا على دينهم، ونجحوا في ذلك واندحر الظالمون بينما اندمج الإسلام في ثقافة وتقاليد الشعوب المسلمة في روسيا.

وبعد تغيير النظام السياسي في البلاد تهيأت في روسيا الظروف المناسبة للنهضة الإسلامية واستطاع المسلمون أن يمارسوا شعائرهم الدينية بحرية وبدون خوف أو ملاحقة من قبل السلطات، وبدأت لأول مرة عملية إعادة بناء المساجد وتعميرها، وفتح المدارس والمؤسسات التربوية والتعليمية الإسلامية التي لم يكن لها وجود في زمن الاتحاد السوفيتي السابق.

الجمهوريات والأقاليم المسلمة في روسيا الاتحادية:

في روسيا الاتحادية تسع جمهوريات مستقلة ذاتياً مسلمة أو أغلبية سكانها مسلمون هي:

- **داغستان:** ويقطنها أكثر من مليونين ونصف المليون مسلم.
- **الشيشان:** قبل الحرب عام ١٩٩٤م كان يسكنها ما يقرب من مليون مسلم، بقي منهم في الجمهورية الآن ٧٠٠ ألف مسلم أغلبيتهم من النساء والشيوخ والأطفال.
- **انغوشيا:** ويبلغ عدد السكان فيها ٤٠٠ ألف نسمة كلهم من المسلمين.
- **كبردينا- بلكاريا:** ويبلغ عدد المسلمين فيها أكثر من ٣٠٠ ألف نسمة.
- **كراتشايفا- تشركيز:** عدد المسلمين فيها أكثر من ٣٥٠ ألف نسمة.
- **أديغيا:** يسكنها أكثر من ١٥٠ ألف مسلم.

- **أوسيتيا الشمالية:** وفيها ٥٠ ألف مسلم.
- **تتارستان:** وهي أكبر جمهورية مسلمة في روسيا، يبلغ عدد المسلمين فيها ثلاثة ملايين مسلم.
- **باشكرستان:** وتأتي بالمرتبة الثانية بعد تتارستان ويسكن فيها ما يقرب من ثلاثة ملايين مسلم.

أما العاصمة موسكو ففيها على أقل تقدير ما يقرب من مليون مسلم، وهو عدد كبير إذا أخذنا بنظر الاعتبار نسبة الولادات العالية عند السكان المسلمين بالمقارنة مع السكان من الأديان الأخرى.

وهناك أكثر من ثلاثة عشر مليون مسلم منتشرين في الأقاليم والمدن والقرى في القسم الآسيوي من روسيا، كسيبيريا الغربية وسيبريا الشرقية والشرق الأقصى، وكذلك في المدن الواقعة في الجزء الأوروبي من روسيا.

إن المسلمين في روسيا يتمتعون بوعي إسلامي متفاوت نتيجة لما عانوه أيام القياصرة والشيوعية، وعلى أية حال خلال الأعوام العشرة الأخيرة تقوى لدى المسلمين الشعور بالانتماء إلى الأمة الإسلامية وتعمق لديهم الإحساس بامتزاج مفهوم الأمة والدين امتزاجاً لا ينحل، حتى إن المسلمين يشعرون بأنهم يستوطنون ديار الإسلام.

وبدأت المؤتمرات والاجتماعات الإسلامية بالانعقاد، فلقد تم عقد المؤتمر الأول لمسلمي جمهورية باشكرستان في سنة ١٩٩٢م تنفيذاً لقرار اتخذه الأئمة ثم أسست الإدارة الدينية لشؤون المسلمين بشكل مستقل وبدون تدخل هيئات الدولة.

وتقـــوم هذه الإدارة بالاعتناء الخاص بنهضة الإسلام في هذه الجمهورية الموجودة في قلب روسيا، وتقوم كذلك برعاية أمور المسلمين فيها.

بعـــد ذلـــك عقـــدت مؤتمرات مماثلة في جمهورية تتارستان، وفي المـــناطق المجاورة لنهر الفولغا وكان هذا نتيجة لنشاط ومبادرات الكثير من أئمة المسلمين هناك.

وأصـــبحت المؤتمرات المذكورة والتي أسست فيها المراكز الدينية ذات الأصـــول الجديدة حوادث مهمة للغاية في حياة مسلمي روسيا، وكان ذلك أكبر الدوافع في مجال تطوير الإسلام والتعليم الإسلامي، حيث بدأت المـــدارس الإسلامية بالظهور فتزاحم عليها المئات من الطلاب الراغبين بتلقـــي العلـــوم الإسلامية، علاوة على ذلك أرسلت مجموعات كبيرة من شباب المسلمين إلى خارج روسيا طلباً للعلم في الجامعات الإسلامية، كما اهتمـــت ببناء المساجد الجديدة وإحياء وتعمير المساجد القديمة الباقية منذ زمن السلطة الشيوعية المستبدة.

انتهى التقرير.

عَوْدٌ إلى اليوميات

إلى موسكو:

وكـــدت أجعــل العنوان (إلى روسيا الحمراء) لو لا أن بعض الناس نسوا ما كان اشتهر في العالم من تسمية روسيا زمن الشيوعية (روسيا الحمراء).

فقــد اتخذ الشيوعيون الروس اللون الأحمر لوناً لهم فجعلوا علمهم أحمر وســموا جيشهم بالجيش الأحمر، وتابعهم الناس على ذلك فلقبوا من يظنون أنه شيوعي بالأحمر، كما لقبوا الأحزاب الشيوعية بالأحزاب الحمراء.

ولذلـــك أصـــل قديـــم عند الروس إذْ كلمة (قراسنا) في لغتهم تعني الجمـــيل كمـــا تعنـــي الأحمر، ومن هنا تسمية الميدان المهم في موسكو بالمـــيدان الأحمـــر، وهي تسمية ظن بعض الناس أنها محدثة بعد أن ساد الشيوعيون في البلاد والصحيح أنها أقدم من ذلك، وأن تسمية هذا الميدان بالميدان الأحمر هي تسمية قديمة من عهد القياصرة.

هـــذا مـــن ناحـــية الاسم، أما من الناحية الأهم وهي زيارة روسيا الاتحاديـــة، فالواقع أنها لمجرد المرور بموسكو في طريقنا إلى جمهورية تتارســـتان التي هي جمهورية للإخوة المسلمين التتار، وهم من المسلمين المعروفين بمحافظتهم على شخصيتهم الإسلامية منذ قرون.

ولذلـــك لن تجد في هذا الكتاب ما قد تتطلع إليه من حديث شامل، أو حتى طويـــل غـــير شـــامل عن روسيا الاتحادية، وذلك للسبب الذي ذكرته ولكوني تكلمـــت علـــى موســـكو ومـــدن أخرى في روسيا الاتحادية في عدد من كتبي المطـــبوعة والمخطوطة فمن المطبوع كتاب (الرحلة الروسية) وكتاب (في بلاد المســـلمين المنســـيين: بخـــارى وما وراء النهر) و"بلاد البلغار والتتار" و"إقليما ســـمارا واستراخا" و"إقليم اورنبوغ"، ومن الكتب المخطوطة (زيارة للمسلمين

في الاتحاد السوفيتي: بلاد الروس والباشقردز)، و"الشرق الأقصى الروسي" و"غرب سيبيريا" و"شرق سيبيريا" و"شمال سيبريا" و"مقال عن بلاد الأورال" و"جمهوريات القبائل الروسية".

ولنعد إلى الحديث عن سفرنا من منسك إلى موسكو فنقول: إننا دخلنا الطائرة فوجدناها تابعة لخطوط روسيا البيضاء المسماة: (بيلافيا) من طراز توبوليف الذي طالما ركبنا مثيله في أنحاء الاتحاد السوفيتي في آسيا وأوروبا.

وقد أبطأوا بعد أن دخل الركاب إلى الطائرة، ولم يغلقوا أبوابها إلا بعد نصف ساعة مع أنهم لم يوفروا للركاب في جيوب المقاعد أي شيء يمكن أن يقطعوا به وقتهم كالمجلات التي تصدرها الشركة، والمعلومات عن الرحلة أو حتى الجرائد.

وعندما تحركت الطائرة مبتعدة بهدوء عن المبنى كان يماشيها رجل على قدميه كأنما يرشد قائدها أو لما لا أدريه.

ثم كان إعلان الطائرة بالبيلاروسية ثم الروسية، ولم نفقه منهما شيئاً، ثم صار مكبر الصوت يبث في الطائرة أغاني روسية.

ولاحظت شيئاً كان من مخلفات العهد الشيوعي وهم أنهم نكسوا ظهور عدد من المقاعد في مقدمة الطائرة وهو المفضل عندهم، بل هو بمثابة الدرجة الأولى عند غيرهم، وتنكيس ظهور المقاعد معناه أنها محجوزة، واستمر ذلك من دون أن يركب عليها أحد.

ثم وزعوا جرائد روسية وروسية بيضاء صغيرة تشبه صحف الحائط، وهي في مظهرها تدل على التقشف أو الفقر، وطلبنا منهم أن يحضروا صحيفة أو مجلة بالإنكليزية، فاعتذروا بعدم وجودها لديهم.

ومما لاحظنا من الاختلاف ما بينهم وبين طائرات الاتحاد السوفيتي السابق في الطيران الداخلي أنهم جعلوا في الطائرة مضيفاً ومضيفة، مع أن العادة التي كنا عرفناها في السابق عنهم أن لا يكون في الطائرة إلا المضيفات.

إلا أن تنجيد الطائرة لم يختلف عما عهدناه في مثيلاتها في الرحلات الداخلية، فالمقاعد خشنة سيئة التنجيد، وحزام المقعد من حديد غير لامع.

أما الركاب فإنهم الأوروبيون البيض في مظهرهم لا تفرقهم عنهم، وبخاصة عن سكان أوروبا الشمالية إلا في شيء واحد هو أن ملابسهم ليست بالغالية، وأن مظاهر الصحة والرفاهية ليست على وجوههم، وشيء آخر غير معهود في الأوروبيين الفرنسيين وهو رفع أصوات هؤلاء الركاب بالكلام وعدم تزمتهم في المعاملة فيما بينهم.

وتكررت رؤية الطيارات الكثيرة في مطارهم، وذلك مما ورثوه من الاتحاد السوفيتي الذي كان يملك طائرات مدنية كثيرة.

ثم أقلعت الطائرة في الثامنة والنصف متأخرة ١٠ دقائق عن الموعد المحدد لقيامها في الأصل، فحلقت فوق هذا الريف البالغ الخضرة والخصب حتى لا يرى المرء فيه موضع قدم أو لنقل موضع محراث واحد خالياً من الخضرة، وأكثر خضرته حقول مزروعة.

ثم علت الطائرة فوق غيم خفيف ما لبثت أن تجاوزته إلى منطقة صاحية.

ثم قدم المضيفان الضيافة المعتادة عندهم وهي نصف كأس من اللدائن من الماء الغازي ليس غير، وليس هناك شاي أو قهوة أو غير ذلك.

والشيء الحسن في طائرتهم هذه أنهم منعوا التدخين وشرب المسكرات، بل سائر الكحول بها، فهم لا يقدمون منها شيئاً.

وكذلـــك دخل أحدنا حمام الطائرة وهو في مؤخرتها فوجده لم يتغير عمـــا كان عليه إبان الحكم الروسي فهو خشن مرحاضه من المعدن غير اللامـــع وفيه منشفة كبيرة معلقة، قد أعدت لكي يمسح الركاب بها أيديهم، والجـــو في الحمام بارد مع صوت شديد لهواء قليل يشعر المرء أنه يدخل إلـــى الحمام والماء في صنبوره بارد بل ثالج، إضافة إلي صوت محرك الطائرة الذي يوجد في مؤخرتها فهو مزعج لأنه يدخل إلى داخل الطائرة بقوة لم نكن نشعر بها في مقدمة الطائرة.

في مطار موسكو:

بعد أن مضت ٤٥ دقيقة على الطيران أعلن مكبر الصوت في الطائرة إشـــارة ربـــط الحزام فبدأت الطائرة تتدنى وهي تتدلى فوق سحاب أبيض ما لبثـــت أن اخترقته فصار فوقها أسود، وصرنا منه في ظلمة بعد أن كنا فوقه في ضياء، وذلك لكونه يردفه مما يلي الأرض سحاب منخفض.

وهبطت في مطار موسكو في التاسعة والنصف ودقيقتين بعد طيران استغرق ساعة واحدة ودقيقتين.

والغريـــب أن المطار بدا أقل بكثير من مطار منسك، ومن مطارات دول البلطـــيق التـــي مــــررنابها، وهي ليتوانيا ولاتفيا واستونيا من ناحية الخضـــرة والتفاف الأعشاب، ولا أدري أذلك راجع إلى كونهم حشُّوا هذه الأعشاب، بمعنى أنهم قطعوا منها بعضها أم أن هذه هي طبيعتها.

وحـــتى الأعشـــاب الموجـــودة هـــنا هي أقل نضارة من الأعشاب والخضـــرة الموجـــودة في مطار منسك، وهذا المطار الذي نزلنا فيه هو واحـــد مـــن مطـــارات خمســـة فـــي موسكو ذكروا أنه خاص بالقادمين بالطائرات القادمة من أوكرانيا وروسيا البيضاء وبعض الوفود الرسمية.

خوف ليس في محله:

اتضح لنا أن الخوف الذي كان ساورنا عند الهبوط في موسكو لم يكن في محله، فلم نجد في هذا المطار أية إجراءات رسمية، وإنما هو معتبر كالمطار الداخلي فليست فيه مكاتب للجوازات، ولا للجمرك، ولا لأي شيء رسمي يتعلق بسفر الأجانب.

وتبين لنا أن ما ذكرته لنا القنصلية الروسية في جدة من كون سمة الدخول التي تمنحها لا تخول المسافر الدخول إلى روسيا البيضاء غير صحيح، وأننا لو لم نحصل على سمة دخول من سفارة روسيا البيضاء في (تالين) عاصمة استونيا لما ضرنا ذلك لأننا سندخل إلى روسيا البيضاء بالسمة التي معنا إلى روسيا الاتحادية، ولذلك تحير موظف الجوازات في مطار منسك عند قدومنا فسألنا على أي السمتين نريد الدخول.

وجدنا في الاستقبال في المطار الأستاذ (طه سعدالدين اللبان) مدير مكتب هيئة الإغاثة الإسلامية في موسكو بالنيابة، إذْ كان مدير المكتب الأستاذ (عبدالحميد الداغستاني) خارج موسكو، وبصحبته بعض الموظفين الذين حملوا أمتعتنا بسرعة ودون عوائق، وحملونا بسيارة الهيئة، وهي حافلة صغيرة قاصدين فندق (كوزموس) في موسكو، وكانوا حجزوا لنا فيه من قبل.

سرنا إلى الفندق مع الطريق المعتاد لنا، وأهم ما استرعى انتباه مثلي عند رؤية موسكو في هذا الفصل من السنة هو أن الأشجار كلها نامية مزدهرة خلاف ما كان عليه الحال عندما زرتها لأول مرة، وكان ذلك في منتصف شهر أبريل من عام ١٩٨٦م/١٤٠٦هـ حيث كانت كلها هامدة رمادية اللون بعد السبات الشتوي الطويل في هذه البلاد.

شارع واسع في ضواحي موسكو

وطـــال الطـــريق كالمعتاد أيضاً، وكانت توجد فيه في أماكن عديدة مســـاحات من الأرض الخالية من الأبنية على خلاف ما تكون عليه الحال بالنســـبة إلـــى المـــدن الكبيرة في البلدان الحرة، حيث تكون الطريق إلى المطار حافلة بالأبنية والمساكن، فضلاً عن المصانع وغيرها.

دخلـــنا الفـــندق الكبير الواسع، وأول ما نكروه عنه أنه مملوك لإحدى عصـــابات الجريمة المنظمة التي صار اسمها الدولي (المافيا) وأنها هي التي تديـــره، وتضمن الأمن لنزلائه، من أجل الدعاية للسكن فيه، ويزين الحديقة الخارجـــية للفندق نصب عالٍ فوقه صورة صاروخ موجه إلى الفضاء رمزاً لاختيار اسم الفندق (كوزموس) التي معناها: الفضاء باللغة الروسية.

أنـــزلونا فـــي غرف في الطابق الثامن عشر متوسطة السعة، جيدة التأثيـــث، فـــي كل غرفة سريران ضيقان، وهذا من بقايا العادة الروسية

عـــندهم أن يجعلوا السرير ضيقاً مع أن أجسامهم في الغالب كبيرة، ولكن ذلك من أجل التوفير، وكان ابتغاء التوفير شائعاً في زمن الحكم الشيوعي كما أن الوسائد المربعة موجودة فيه وهي وسادة عرفناها في فنادق الاتحاد السوفيتي السابق كله في آسيا وأوروبا.

والغـــرف نظـــيفة لا تقـــل نظافة عن فنادق الدرجة الثانية ذات النجوم الـــثلاث في أوروبا الغربية، وقد صنفوه من ذوات النجوم الأربع، أما مرافقه ومصاعده العديدة الواسعة وساحاته الداخلية فإنه يستحق أكثر من ذلك.

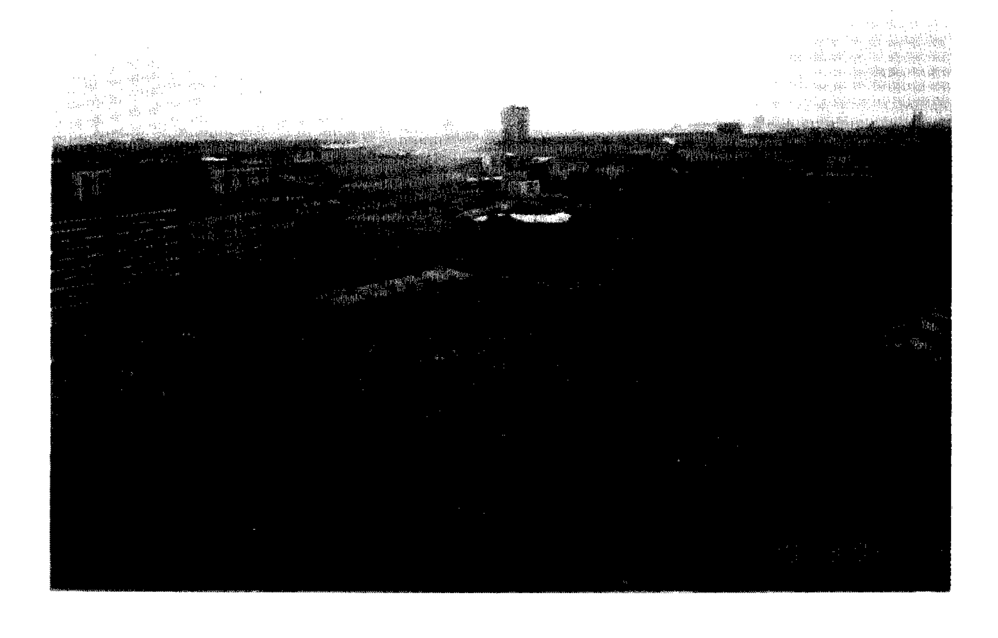

منظر لموسكو كما تبدو من نافذة الفندق

وقد أزحت ستارة النافذة في غرفتي من الطابق الثامن عشر فصارت تشرف على منطقة واسعة من موسكو غير القديمة لأن الفندق يقع خارج موســـكو القديمـــة، ويرى المرء من النافذة الأبنية العالية ذوات الطوابق العديـــدة المؤلفة من شقق سكنية تفصل بينها فراغات واسعة من الأشجار

أو حتى من مجرد الأرض الخالية من النبات.

كان موعد الغداء قد حان فنزلنا إلى مطعم الفندق في الطابق الأول من الفندق، وهو مطعم واسع فيه عدد أكبر مما يحتاجه من العمال وأكثرهم من النساء، فطلبنا حساءً من حساء الخضار وسلطة وسمكاً فجاءوا بالسلاطة قليلة، وبالسمك مع البطاطس المطبوخ، وأما الشوربة فإنها متوسطة المقدار، وطلبوا عند الفراغ ثمن ذلك ٦٣ دولاراً أمريكياً للثلاثة لكل شخص ٢١ دولار، وهذا غلاء فاحش بالنسبة إلى الأجور المتدنية في البلاد، ولكون الغداء كله مما تنتجه بلادهم، وبالمقارنة مع سعر الطعام في مطاعم منسك الجيدة لا تساوي هذه الوجبة أكثر من دولارين ونصف في منسك.

وأردنا الإخلاد إلى الراحة في الغرف غير أن عدداً من الإخوة المسلمين حضروا إلينا في غرفنا منهم الشيخ (راوي عين الدين) رئيس الإدارة الدينية لروسيا الأوروبية، هكذا اسم وظيفته وإن صار ينافسه على التسمية أناس آخرون، اسموا أنفسهم أو سماهم غيرهم رؤساء للإدارات الدينية في منطقة روسيا الأوروبية، ومن بين الذين حضروا الأخ محمد صلاح الدين المدير التنفيذي للمركز الإسلامي في موسكو، وهو أشقر اللون، ويعرف العربية جيداً.

الكلية الإسلامية وجامع موسكو:

في الرابعة والربع كنا نذهب لزيارة جامع موسكو، ذلك الجامع الذي كان الوحيد في موسكو إبان الحكم الشيوعي ولم يكن المقصود بالزيارة رؤيته وحده لأننا قد رأيناه من قبل، وإنما كان ذلك لرؤية الكلية الإسلامية التي استحدثت بجانبه، ولم نرها قبل ذلك.

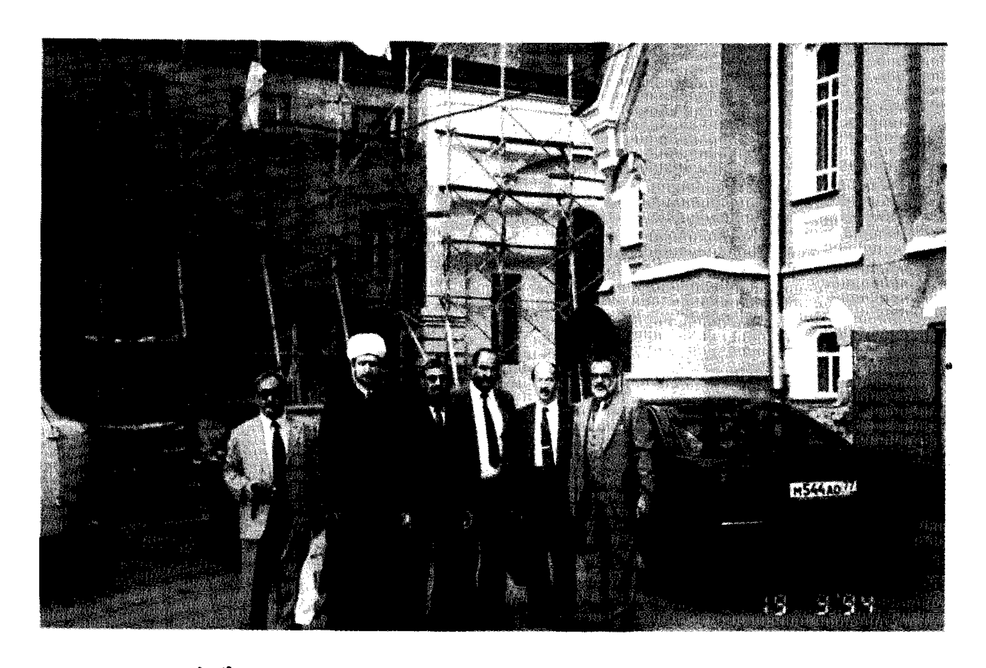

مع الشيخ راوي عين الدين عند مبنى الكلية الإسلامية في موسكو

سارت السيارة مع الشوارع الجيدة داخلة في المنطقة الجيدة من المدينة التي هي قلبها الفاخر، لأن الجامع يقع في قلب المدينة الجيدة على حاشية الحي (الدبلوماسي) فيها.

وتكثر في هذا القلب الجيد من المدينة خطوط القطارات الكهربائية (الترام) وقد رأيتهم يصلحون قضبان أحد الخطوط وعليهم الملابس العسكرية، فأخبروني أنهم من الجيش الذي صار لا عمل له في الوقت الحاضر، فصاروا يستعينون بأفراده لمثل هذه الأعمال، إلا أنني لاحظت ما كنت لاحظته على الأعمال العامة في البلدان الشيوعية، وهو أن العمل الذي يكفي فيه عشرة عمال في البلدان الحرة يعمل فيه عندهم ثلاثون أو مائة، لكونهم لا يعملون عملا شاقا في مثل هذا العمل.

وأكثر المناظر استرعاء للانتباه مناظر الأشخاص الذين ينتظرون

وصــــول عـــربات المواصلات العامة كالحافلات، فتجدهم في مجموعات كبـــيرة ترثي لحالهم، وذلك لقلة السيارات الخاصة في أيدي الناس بالنسبة إلى البلدان الحرة الأخرى.

ســـلكنا شــــارع السلام وهو من الشوارع الرئيسية في موسكو وهو واسع جداً وخاص بمرور السيارات، ويفصل بين السيارات الذاهبة والآيبة فيه خط أبيض وهو قريب مما يسمونه بالسنتر، بمعنى قلب المدينة.

وصــــلنا (الكلـــية الإسلامية) وهي ملاصقة لأرض جامع موسكو، وكنت عهدتها عندما زرت موسكو آخر مرة مجرد فصول دراسية قدمت لها آنذاك مساعدة رمزية عاجلة من رابطة العالم الإسلامي.

وجدنا الأستاذ الشيخ (راوي عين الدين) وبعض الإخوة العاملين في الشئون الإسلامية متعاونين معه.

صورة تذكارية مع الشيخ راوي عين الدين على يمينه المؤلف فالأســـتاذ سعدالدين اللبان وعلى يساره رحمة الله بن عناية الله عضـــو الوفد

وصحبنا معه الشيخ (راوي عين الدين) وهو أحد أئمة جامع موسكو منذ أن زرناه قبل سنوات في جولة على الجامع وكل مبنى الكلية.

ويجـــري الترميم لأجزاء من داخل المسجد، كما تجري التشطيبات النهايـــئة لمبـــنى الكلية الإسلامية التي أقيم بناؤها من ثلاثة أدوار بجوار المسجد وستضم الكلية فصولاً دراسية وقاعة محاضرات ومكتبة ومطعماً داخلياً وستبدأ الدراسة كما يقول الأستاذ راوي عين الدين مع غرة أكتوبر ١٩٩٤م، وقد تم ترشيح ثمانية طلاب.

يفـــيد المذكور بأن المبنى تم إنشاؤه من تبرعات المسلمين المحليين ومساعدات من حكومة روسيا، وإنهم مدينون بمائةمليون روبل وإن البنك الإســـلامي للتنمـــية بجدة وعدهم بالمساعدة بمبلغ قدره ١٢٠ ألف دولار، ولكن اشترط أن يجري صرف المبلغ للشركات التي تنفذ المشروع وليس للإدارة نفسها وما يزال الموضوع متوقفاً.

في مكتب إمام جامع موسكو

وبجوار المسجد المذكور الأرض التي خصصت لإنشاء مسجد كبير بتمويل مالي من مؤسسة آل إبراهيم الخيرية، ولكن هذا المشروع أيضاً معطل ويبدو ذلك بسبب سوء تصرف الإدارة الدينية.

ويفيد الأستاذ راوي عين الدين بأنه الرئيس الفعلي للإدارة الدينية لمسلمي القسم الأوروبي لروسيا وتتبعه ثمان محافظات روسية يقدر عدد جميع سكانها من مسلمين وغير مسلمين بحوالي ٥٠ مليون نسمة، ولا يكاد يذكر الشيخ طلعت تاج الدين رئيس الإدارة الدينية لمسلمي سيبيريا والقسم الأوروبي من الاتحاد السوفيتي السابق الذي لا يزال يشغل مركزه من الناحية النظرية، ويقيم في أوفا عاصمة باشكيريا ويقول عنه أهل موسكو هؤلاء بأنه مريض، وهناك عدة أشخاص يدعون أنهم رؤساء إدارات دينية في المنطقة كما سبق.

ومبنى الكلية من ثلاث طبقات وطابق تحت الأرض بنيت بناء قوياً على طراز إسلامي من أطرزة المباني في بلاد ما وراء النهر التي كانت تعرف عند العامة من أهل بلادنا ببخارى، إذ تعلوها قبة عالية، وقد أحضروا نقاشين للأبواب وللزخارف من بعض الأماكن في أزبكستان.

ونوهوا بوجود مبنى المكتبة الإسلامية الذي رأيناه جيداً مناسباً يأملون أن يضم من الكتب والمراجع الإسلامية ما تكون به هذه المكتبة أغنى مكتبة إسلامية في المنطقة.

كما أنهم قد أعدوا في الطابق الأول مطعماً إسلامياً للعاملين في الكلية والمنتسبين إليها من طلاب ومدرسين، وقد يجعلون فيه قسماً للبيع، لأن الملاحظ أنه يصعب على من لا خبرة لديه بالمطاعم في هذه البلاد أن

يجد لحماً مذبوحاً ذبحاً شرعياً، لأن المجازر الحكومية لا تزال تجري على العادة التي كانت عليها إبان سيادة الشيوعية في البلاد.

ثـــم عدنا إلى مكتب المفتي الشيخ راوي عين الدين الملحق بجامع موسكو لعقـــد المحادثات الضرورية لكيفية التعاون ما بين رابطة العالم الإسلامي وهذه الإدارة الدينـــية وأعطانـــا الشيخ راوي عين الدين أعداداً من الجريدة الإسلامية التي تصدرها الإدارة باللغة الروسية، واسمها (منبر الإسلام).

وقـــد شمل النظر في مساعدة الإدارة على نفقات الكلية وبخاصة أنهم قرروا أن يقبلوا فيها عدداً يتراوح ما بين ٨ إلى ٢٠ طالباً سيسكنون كلهم فيها.

وقد أدينا صلاتي الظهر والعصر جمعاً في جامع موسكو.

مدينة موسكو:

قمـــنا بجولـــة ســـريعة على أماكن في القلب الفاخر لمدينة موسكو بعضـــها معروف لنا، وجددنا برؤيته عهداً قديماً أو قريبا وبعضها سمعنا أخباره لأول مرة، وقد آثرت ذكر شيء قبل ذلك عن المدينة نفسها.

تقـــع موســـكو علـــى خطـــي ٥٥,٤٦ عرضاً و٣٧,٣٦ طولاً على نهر موســـكوفا ويـــرتفع سطحها بحوالي ١٦٨ متراً عن مستوى البحر وتتكون من مديـــنة موســـكو وهي عاصمة روسيا الاتحادية وبلغ سكانها ٨,٩٦٧,٠٠٠نسمة فـــي عـــام ١٩٨٩م من محافظة موسكو التي تبلغ مساحتها ٤٦,٤٠٠كم٢ وبلغ سكانها أكثرمن ١٥ مليون نسمة عام ١٩٨٩م.

وتضـــم موسكو واسمها مأخوذ من اسم النهر الذي تقع عليه واسمه (مسكوفا) فسميت عليه ولكنه عجز عن أن يمدها بما تحتاج إليه من المياه

فشقوا له قناة حملت المياه إليه من نهر الفولقا (إيتل) ٢٩ ضاحية من مدينة موســكو التي تضم أكثر من خمسين حياً من الأحياء الكبيرة وقد توسعت موســكو توســعاً هائلاً بعد أن تم حفر القناة المائية المذكورة بطول ١٢٨ كيلومتراً فربطت بين نهري الفولغا وموسكوفا عام ١٩٤٠م.

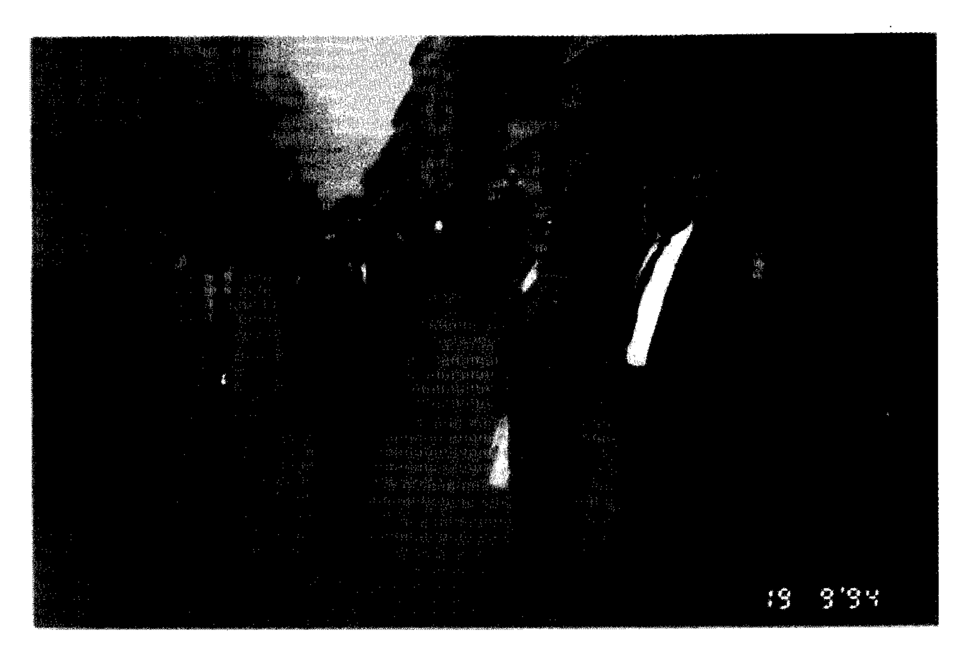

وفد الرابطة في أحد شوارع موسكو

تتمــيز موســكو بالحركة الاقتصادية والتجارية فهي بالإضافة إلى كونهــا عاصــمة سياســية وثقافية لروسيا القيصرية ثم للاتحاد السوفيتي وحالــياً لروســيا الاتحادية فهي مركز مالي واقتصادي مهم لعموم روسيا الاتحاديــة كمــا أنها تشتهر بالصناعة مثل صناعة السيارات والطائرات والقاطــرات والمعــدات الكهربائــية والغزل والنسيج والأجهزة المنزلية والأطعمة والزجاج والكيماويات.

وموسكو التي كانت مقراً لحكومات الاتحاد السوفيتي لا تزال تشغل مقـــر حكومـــة روسيا الاتحادية ببرلمانها ومجلس الدوما وجميع الأجهزة الحكومـــية والوزارات ومنها سفارات الدول التي تقيم علاقات دبلوماسية معهـــا وأكـــثر مـــن ٨٠ مؤسسة تعليمية عالية منها جامعة موسكو التي تأسســت عـــام ١٧٥٤م وحوالـــي ١٥٠ مـــتحفاً ومعرضاً و٤٠ مسرحاً وعشرات من دور النشر وأهمها دار نشر نوكا Nauka.

يعود تاريخ مدينة موسكو إلى الأمير الروسي يوري دي لغوروكي Yuri Dolgrukiy الـــذي يعتبر مؤسسها في عام ١١٥٦م ثم تطورت إلى أن أصـــبحت إمارة عرفت باسم إمارة موسكوفا وخضعت لدولة التون أورده الإســـلامية عام ١٤٨٠م وقد غزاها تيمورلنك في عام ١٣٩٥م، ثم فتحها دولـــت كـــراي خـــان ملـــك خانية القرم في ٢٤ مايو ١٥٧١ ثم احتلها البولنديون خلال أعوام ١٦١٠-١٦١٣ ثم دخلها نابليون أمبراطور فرنسا في ١٨١٢/٩/١٤م، ولكن موسكو كانت قد فقدت مركزها بتحول عاصمة روسيا القيصرية منها إلى بطرسبورج Petersburg من عام١٧١٢ إلى عام ١٩١٨م حيـــث اســـتعادت مكانتها إبان الحكم السوفيتي حيث اتخذها لينين مقـــراً لـــنظامه الشـــيوعي لاتحاد الجمهوريات السوفيتية الاشتراكية وقد حاصـــرها الألمان النازيون قرابة شهرين خلال الحرب العالمية الثانية إلا أنها صمدت وهزمتهم وفكت حصارها في ١٩٤١/١٢/٦م.

سلكنا خلال الجولة شارع (قراسنا بلوشد) ومعناه الساحة الحمراء أو الساحة الجميلة فقراسنا تعني أحمر ، و(بلوشد) ساحة أو ميدان.

ومررنا بفندق متروبول الكبير ذكروا أنه يحتوي على ٤٠٠ غرفة، حتى وصلنا إلى ميدان الكرملين أهم ميدان في موسكو، بل في روسيا كلها

ويقع عليه قصر الكرملين، وكنيسة فاسيلي، ومقر الحكومة الروسية.

لقـــد انتابتني ونحن نتمشى في هذا الميدان المهم الذي ذهبت أهميته لكثـــير من الغرباء والسياح منذ أن تحطم الستار الحديدي فصار الوصول إليه مباحاً سهلاً من دون عيون محملقة، أو أقدام تتابع الأجنبي أينما سار، مشـــاعر حزينة حينما تذكرت ما قرأته في الكتب العربية ومن النصوص التـــي نقل بعضها عن مؤرخين من الروس وهو أن (كيناز موسكو) وهو الحاكم الكبير لها لا يكون تعيينه ساري المفعول أو نافذاً لدى قومه الروس حـــتى يصدر مرسوم بتعيينه من سلطان المسلمين الذي مقره مدينة قازان عاصمة جمهورية تتارستان في الوقت الحاضر.

أمام الكرملين في موسكو

والذي كان يحدث في تعيين الحاكم الكبير لإمارة موسكو التي تضم مدينة موسكو وأقاليم تابعة لها أن يختار الروس شخصاً حاكماً عليهم كثيراً ما يكون من إحدى الأسر الحاكمة أو النبيلة، حسب عرفهم في ذلك الوقت، حتى إذا فعلوا ذلك وجب عليهم أن يرسلوا رسلاً إلى سلطان المسلمين في قــازان من أجل إصدار المرسوم اللازم لتعيينه، فيرسل السلطان بعثة من عنده يرأسها أحد كبار المسلمين العاملين مع السلطان وهي تحمل مرسوماً مــن السلطان يسمونه (فرمان) بتعيين الحاكم الروسي، ولابد من أن يقرأ مرسوم السلطان في احتفال كبير معقد في قصر الكرملين الذي كان يعرف بهذا الاسم منذ قرون عدة قبل الآن.

ومن ثم يصبح الكيناز حاكماً فعلياً على موسكو وما حولها.

قــال الســيد أحمد الرمزي أحد الذين كتبوا تاريخ المسلمين في هذه المنطقة باللغة العربية وطبع كتابه في المطابع العربية التي كانت موجودة فــي مديــنة (ارونبورغ) الواقعة الآن ضمن جمهورية روسيا الاتحادية، وذلك قبل دخول الشيوعية في روسيا، إذ كان طبعه في عام ١٣٢٥هـــ.

ثم وقع الاختلاف بين ملوك التتار وحدث الاختلاف في ضبط البلاد والأقطار بموت بردي بك خان فاغتنمت الروسية تلك الفرصة وأبرزوا ما أســروه مــدة مديــدة من الخروج من رقية التتار ورفعوا الوية العصيان وحاربوا المرزا مماي وكان قد استقل بخطة قريم في أثناء تلك الاختلاف وغلــبوا علــيه وكسروه وهزموه، ثم لما عاد توقتاميش خان أعادهم إلى الطاعــة فــي سنة ٧٨٣هـــ، واستمروا على ذلك طوعاً وكرهاً مدة مائة ســنة أخــرى تقريباً ثم انقلبت الأحوال وانعكست الآمال ووقع بين ملوك

التـــتار الاخـــتلال، وأدعى أمير كل ناحية لنفسه الاستقلال وحدثت بينهم الجـــدال والقـــتال فـــلا جرم اغتنم الروسية ذلك الاختلال وأعادت لبلاده وحكومته الاستقلال الحكم لله الملك المتعال.

وكانت مدة دوامهم تحت حكومة التتار مائتان وأربعون سنة تقريباً، ولكن التتار لم يداخلوا في شيء من أمورهم الداخلية قط، بل كانوا يقنعون مـــنهم بـــبذل الطاعة وأداء الجزية، وكانت الروسية كلما مات لهم الكيناز يلـــزم مـــن هو مترشح للجلوس مكانه أن يذهب إلى حضور الخان وأخذ المنشور منه للحكومة، فكان كل من له مناسبة بالحاكم الميت منهم بالبنوة أو الأخـــوة، أو القرابة يأتي مدينة سراي فيتوسل هذافي تمشية أمره إلى الخـــان بولد الخان وذاك بالوزير وهذا بشيخ الإسلام، أو بواحد من قرناء الخـــان فكـــل مـــن يتعلق إرادة الخان بكونه كينازاً كان يختاره للكينازية ويعطيه المنشور بذلك ويرجع الباقون قائدين فرسه ويضم الخان إليه واحداً من أمرائه مع طائفة من العسكر ومعه فرامان الخان، فإذا وصل إلى مقر حكومـــته كـــان يدخل أكبر كنائسهم بفرسه فيجتمع لديه أعيانهم وأمراؤهم وكـــبراؤهم فيســـتدبر الأمير المذكور بفرسه أكبر أصنامهم ويقرأ عليهم فـــرامان الخان المتضمن لتولية من ولاه الخان ويأمر الباقين بإطاعته ثم يرجع إلى الأوردة[1] ومتى أتاهم الآتي من طرف الخان لمصلحة ما، كان الكيناز يستقبله ماشياً من مسافة بعيدة، وإذا انصرف كان يشيعه، كذلك إلى مســـافة بعـــيدة، وكان من جملة ما ضربوا عليهم من الجزية على ما قيل مقـــداراً معيناً من العبيد والجواري كانوا يسلمونها كل سنة، وكان محصل الخـــان ومستوفي الخراج يذهب كل عام في وقت معين إلى بلدة موسكو

---

[1] الأوردة: المعسكر.

لاستيفاء الخراج المضروب عليهم واستلام هؤلاء العبيد والجواري فيربهم الكيناز ويصفهم في ميدان واسع، فينتخب المامور منهم العدد المعين، مما يعجبه ويترك الباقي.

وهذا الميدان موجود إلى الآن في بلدة موسكوف يقال له بالروسية: ديتسكي بول يعني ميدان الأولاد، يقال: إن أهل بلدة موسكوا يذهبون بأولادهم هناك ويذكرونهم بما فعل التتار بهم ليزيد غيظهم وعداوتهم وغلظتهم وعلى سائر المسلمين ويحذرونهم من مخالفة أولي الأمر منهم، ويوصونهم بالحمية الوطنية لئلا يبتلوا بمثل تلك البلية ثانياً.

ومع ذلك كان كبراء الروسية وأمراؤهم يعطون بناتهم باختيارهم للخان أو أحد أولاده أو أمرائه يتوصلون بذلك لاختطاف أخبارهم والوقوف على أسرارهم الخفية، وربما كانوا يريدون بذلك الاضلال والاغواء بواسطة البنات، والبنات عند الروسية هن أعظم الأسباب والآلات في ذلك إلى هذه الأزمان والأوقات.

هذا ومع ذلك الاستيلاء والغلبة لم تتعرض التتار لأمرهم الداخلية قط دينية كانت أو ملكية بأدنى تعرض، بل تركوهم في ذلك أحراراً مستقلين بحكم أنفسهم يجرون أحكامهم الدينية والملكية كيف شاءوا، بل إذا حصل لهم عائق ومضايقة في أمورهم الدينية كانوا يشكون إلى الخان ويرفعونه إليه ويعرضونه عليه فيدفع عنهم العوائق ويزيل عنهم الموانع ويخلصهم من المضايق، كما فعلوا في مادة كنائسهم من الشكاية من طائفة باسقاق[1] في عصر أوزبك خان، كما سيجئ صورة فرمانه في هذا الخصوص في

---

[1] لعلها باشناق.

ترجمــته وهــذا عكــس ما يفعله الروسية في حقهم وحق جميع طوائف المســلمين الذيــن هم تحت تصرفهم مذ استولوا عليهم إلى يومنا هذا من أجــراء المعاملات الشديدة، وتضييقهم بالمضايقات العديدة، وإبداء الموانع الشنيعة عن التمسك بأحكام الشريعة، وغصبهم منهم أمورهم الدينية بعد أن ســلبوا مــنهم الحكومــة والقوة بالكلية ونظمهم أياهم في سلك العسكرية، واســتخدامهم أيــاهم فــي الخدمات الردية وأخذ الخراج والجزية منهم، واذاقــتهم أنواع الأذية بحيث قد ضاق الخناق وبلغت الروح التراق حسبما نشرحه إن شاء الله في المقصد الرابع الذي هو نتيجة هذا الكتاب ولب هذا الخطاب، لله در من قال شعر:

ملكنا فكان العفــو منا ســجية فلما ملكــتم ســال بالــدم أبطــح

ومن العجب أنهم مع ذلك يعدون التتار من الأقوام الوحشية ويعدون أنفســهم من أرباب المدنية هيهات، هيهات شتان ما بين الهيئات والهيئات ولله در من أفاد في مثل هذا أو أجاد شعر:

ســارت مشرقة وسرت مغربا شــتان بــين مشــرّق ومغــــرب

وقال الشيخ الرمزي في موضع آخر مبتدأ كلامه بالنقل عن المؤرخ الروسي كارامزين:

قال كارامزين في سنة ١٤٦٧ يعني ميلادية ولعله في نصفها الأول فيكون في أواخر سنة ٨٧١هـ وفقاً لما ذكر في السبع السيار توفي حاجي كراي خان القريمي وخلف ستة أولاد نوردولت حيدر أوسميما را يمغورجي ملك أمان وواحد غيرهم ذكر جلوس منكلي كراي خان على مسند خانية قرم بعد ذكر ما جرياته مع بعض إخوانه ثم ذكر اتفاق الروسية مع منكلي كراي خان على المدافعة وقال: وكان اتفاقهم على الوجه الآتي: وهو أن منلكي كراي خان يعين الروسية على ليتوا التي هي خصمهما ويعينه الكيناز[١] أيوان على دولت أوردو الذهب التي هي خصمه، وكان هذا الاتفاق مفيداً للطرفين فائدة كبيرة، حيث أن دولة سراي انقرضت واستقلت قرم بالخانية ونجا من الخوف وفائدته للروس لا تعد[٢] ولا تحصى حيث أنها تخلصت من رقية التتار التي امتدت إلى مائتين وخمسين سنة ٢٥٠ تخلصاً أبدياً وغلبت على ليتوا التي كانت تغلب عليها دائماً فاستفادت الروس من هذا الاتفاق استفادة كلية، وهي وإن كانت تعطي لمنكلي كراي خان في مقابلة ذلك شيئاً من الخراج إلا أنه كان بالنسبة إلى استفادته من جهتين لا شيئاً محضاً، فإن هذا الاتفاق قد خدم لترقي الروس وعظمته خدمات كثيرة ولكن هرب منكلي كراي خان بعد ذلك بمدة يسيرة إلى كفه والتجاء إلى جنويز[٣] بسبب خروج أخيه حيدر عليه، وفي عين هذا الوقت جاء كوك أحمد باشا إلى كفه من جهة السلطان محمد فاتح

---

(١) الكيناز هو الحاكم. ولتوا هي لتوانيا.

(٢) قلت لايقدر المؤرخ أن يصف فائدة هذا الاتفاق للروسية حتى وصفه فإنه والسبب الوحيد لترقي الروسية إلى هذه الدرجة منه عفى عنه.

(٣) جنويز هي الجنويون: أهل جنوا من أهل إيطاليا.

علـيه الرحمة واستولى عليها وخربها وأسر من فيها من جنويز والروس وأسر أيضـاً منكلـي كراي خان أيضاً وحمله إلى السلطان فنصبه السلطان خاناً إلى قـرم وأرسـله هـناك، ولكن كان أحمد خان أرسل ابنه إلى قرم بعساكر كثيرة فدخلهـا واسـتولى علـيها، وضبط جميع بلادها فاستولى على الروسية خوف عظـيم مـن هـذه الجهة فنصب أحمد خان في قرم واحداً من أولاد الخوانين يسـمى جانـبك أو زيني بك خاناً في قرم من جهته وكان جانبك هذا سابقاً في خدمـة أيـوان[1] فأرسـل إلـى أيوان يقول له إنه إن طردوني من الخانية فهل يقبلنـي ايوان كما في السابق فسر إيوان بذلك سروراً عظيماً وأرسل إليه يقول إنـه قد قبلك سابقاً وأنت وحدك لا ملك لك، وألآن كيف لا يقبلك وأنت صاحب ملـك عظـيم، بل ينظر إليك الروسية بنظر المحبة والمودة، وكان ذلك في سنة ١٣٧٦م مصـادفة سـنة ٨٨١هـ قال وكان خان أوردو الكبير أحمد في تلك الأثناء يعد خاناً كبيراً.

وكانـت الروسـية أيضاً معترفة بذلك وكانت تؤديه الخراج كما في السابق، ومتى جاء أحد من طرف الخان إلى موسكوا كان الكيناز الأعظم يستقبله من خارج موسكوا وكانوا يفرشون لمن يقرأ فرمان الخان مفارش مـن السـمور فيجلس عليه ويقرأ فرمان الخان والكيناز الأعظم وأمراؤه يسـمعونه جاثين على ركبهم، وكان في وسط دار إمارة الروس المسماة عندهم بكريملة[2] دائرة مخصوصة لمأ مورى الخان ويقيم بها سفير الخان والباصـاقاق يعني عامله وكثير من المأ مورين وكانوا بهذا السبب واقفين على أسرار الروسية وحركاتهم وسكناتهم، وكانت تلك الحالة لا تلايم طبع صـوفية زوجة الكيناز ايوان لكونها من سلالة قيصر الروم، فقالت يوماً

---

[1] هو إيفان ملك الروس.
[2] هي الكرملين التي تشرف على ميدان الكرملين من أهم ميادين موسكو.

لزوجها ايوان: إلى متى استمر أنا جارية للتتار لا أحب أن تخدم للتتار بعد ذلك وأن تحترمهم هذا الاحترام.

وكانــت تريد دائماً أن تخلص الروسية من رقية التتار، وكانت ذات حيلة وخدعــة فمن حيلتها أنها كتبت إلى زوجة أحمد خان كتاباً تقول فيه: إني أمرت فــي رؤيــايى أن أبني معبداً في الدائرة المختصة بمأ موري الخان في كريملة فــارجو مــن رحمتكم أن ينقل حضرة الخان هذه الدائرة إلى محل آخر، ويأذن لــي فــي بناء معبد في محلها من كريملة وأرسلته مع واحد من أخصائه بهدايا عظــيمة فصــار رجاؤهــا هذا مقبولاً لدى الخان وأرسل منشوراً مشتملاً على الإذن بذلــك فأخــرجوا مــأ موري الخان من كريملة إلى محل آخر وبنوا في دائــرتهم مــن كريملة كنيسَة وسموها بكنيسة أسياس فكانوا بعد ذلك لا يتركون مــأ موري الخان يدخلون دار الإمارة فصارت التتار بهذا السبب لا يقفون على أســرار الروســية وعيــنوا لاســتقبال مــن يجئ من طرف الخان ماء مورين مخصوصــين وعينوا لنزولهم وقراءة فرمان الخان محلاً مخصوصاً خارج دار الإمارة، وكان ذلك من نقصان تدبير الخان المذكور.

وكانــت الروســية تتدرج هكذا في التخلص من سلاسل رقية التتار قدماً فقدماً، وكانت التتار أيضاً مواظبين على إرسال تلك السلاسل وارخائها.

قلت: كيف لا يرسلونه بعد أن انضمت إلى الدب المسلسل جم غفير من جنسهم وصاروا يهجمون عليهم معه من كل جانب؟

نعــم (وإذا أراد الله بقوم سوأ فلا مرد له ومالهم من دونه من وال) ويقال لهذا انعكاس الأمر وانقلابه فإن الروسية كانت قبيل هذا بمدة يسيرة علــى ما كانت عليه التتار الآن من تفرق الكلمة وتشتت الآراء والمقاصد والشــقاق والنفاق، وكان المؤرخ كارامزين يتأسف على ذلك ويقول: إن هذا من

صـــنيع التـــتار وخدعتهم، و إنهم يجتهدون في تسليط الروس على الروس، كما مـــر عـــنه، نعم كانوا يفعلون ذلك حين كان باب الإقبال مفتوحاً لهم، ولما أغلق بـــاب الإقبال دونهم وفتح للروسية انعكس الأمر فسبحان من أقام العباد على ما أراد وهـــو الفعال لما يريد، ولله الأمر من قبل ومن بعد، ولو شاء الله ما فعلوه فذرهم وما يفترون، ألا ترى ما قاله المؤرخ المذكور بعد ذلك.

انتهى كلامه رحمه الله.

هذا وقد أبطلت في الكرملين الآن عادة كان السياح يحرصون على مشـــاهدتها وهـــي تبديل الحراس العسكريين على قبر لينين كل ساعتين، وكنـــت شـــهدتها وهي في عنفوانها في عام ١٤٠٦هــ ثم رأيتها بعد ذلك والحـــراس يختارونهم من الشبان ذوي المنظر الجميل والأجسام الوافية، ولهم عند تحركهم في تسلم الحراسة وتسليمها طرق خاصة لافتة للنظر.

كنيسة فاسيلي في ميدان الكرملين في موسكو

وعلـــى وجه العموم فإن ميدان الكرملين الذي كان يعج بالسياح في السابق قد رأيناه اليوم خالياً أو يكاد يكون خالياً.

ولذلـــك لـــم نلبـــث فيه طويلاً،وإنما واصلنا سيرنا فمررنا بالحديقة القريـــبة مـــن الكرملين وهي مشهورة تجولت فيها في المرة السابقة، ولم نقف فيها هذه المرة.

كمـــا مـــررنا بـــنهر موسكو الذي سميت المدينة باسمه وقسم كبير من مياهه تعتـــبر مـــياهاً إسلامية- إن صح أن للمياه أدياناً- ذلك بأنها تأتي من نهر ايتل الذي أســـماه الـــروس نهـــر الفولقا وتابعهم الناس على هذه التسمية حتى بنو قومنا أسموه بذلـــك مـــع أنه كان معروفاً مشهوراً في كتبنا القديمة العريقة باسم (ايتل) ولم يذكره واحـــد مـــنها باسم (فولقا) وتبدأ القناة التي شقت بين نهر ايتل وبين نهر موسكو في مـــنطقة كانـــت مـــن بلاد المسلمين ولا تزال تلك المنطقة معتبرة من بلاد المسلمين الأقدميـــن الذيـــن كانوا يسمون بالبلغار والباشقرد ولا تزال جمهورية (بشقردستان) التـــي عاصـــمتها أوفـــا جمهوريـــة لهؤلاء المسلمين بالاسم، وإن كان المهاجرون والمهجـــرون غـــير المســـلمين من الروس والروس البيض والأوكرانيين ومن لف لفهم من غير المسلمين قد كاثروا أهلها في بلادهم فكثروهم.

وأمـــا الـــبلغار فإنهم صاروا يسمون الآن بالتتار شملهم اسم التتار كماشمل غيرهم من المسلمين الذين كانوا مواطنين في إمبراطورية (ألتون أوردة) المســـلمة، وفي خانية قازان التي اسقطها الروس في عهد القيصر ايفان الرابع المسمى ايفان الرهيب،

مباني الأسرى:

مـــررنا بـــوزارة الخارجـــية الروسية ومبناها واحد من سبعة مبان ضـــخمة متشابهة المظهر، ذكروا أن سبب ذلك أن الذين بنوا هذه الأبنية

السبعة الضخمة هم الأسرى الألمان إبان الحرب العالمية الثانية.

ووزارة الخارجية بالذات تقع على شارع معتاد ومبناها غير وجيه من الخارج ولا واقع في ضاحية جميلة أو تتقدمه حديقة، بل هو واقع على الشارع مباشرة في طبقاته المتعددة.

شارع أربات:

هذا الشارع من شوارع موسكو معروف عندهم بأنه شارع اللقاءات وبعضهم أسماه تظرفاً بشارع الشباب لأن الشباب من الجنسين يلتقون ويتعارفون فيه، مع أن الأمر فيه ليس مقتصرا على الشباب دون غيرهم، وإنما هو مثال لما أصاب المجتمع الروسي من تغير نتيجة لسقوط الشيوعية، وحصوله على الحريات الشخصية، حيث صارت طائفة من النساء كما أخبرونا تحرص على الحصول على الثياب الغالية والحياة المترفة بأي ثمن.

رأينا شارع (أربات) بالفعل قد امتلأ بالمترفين والمترفات أو على الأصح بمدعي الترف لأن الترف الحقيقي في روسيا في الوقت الحاضر هو قليل أو لا يكاد يوجد، وذكروا أن معنى (أربات): الساجي، وكان الهدف من رؤية الشارع ليس مجرد الرؤية، وإنما لتناول عشاء خفيف من مطعم كبير لماكدونالد الأمريكية التي تقدم الأطعمة على طريقة واحدة في سائر أنحاء العالم، فطلبنا منهم سمكا وبطاطس مقلية وسلطة وأشربة، وكان المطعم مزدحماً بحيث أن الذي يحصل على مقعد فيه يعتبر نفسه محظوظاً.

وقد جلسنا في رصيف المطعم المكشوف وفي جو ربيعي جميل لم نشعر فيه بالبرد خلاف ما كان عليه الأمر في أقطار البلطيق الثلاثة التي زرناها من شدة البرد، وقد بلغت درجة الحرارة الكبرى اليوم في موسكو ١٨ درجة مئوية.

يوم الثلاثاء: ١٤١٥/٤/١٥هـ- ١٩٩٤/٩/٢٠م:

هاتفت رابطة العالم الإسلامي في هذا الصباح وكلمني الأمين العام للرابطة الدكتور أحمد محمد علي، فكان من بين ما قال لي: إننا علمنا أن حالة الأمن في موسكو غير جيدة فيستحسن أن تطلب من السفير السعودي الدكتور عبدالعزيز خوجة أن يوفر لك حراسة خاصة، فقلت: إن السفير ليس في موسكو الآن وأنا سوف أغادر موسكو هذه الليلة بإذن الله، وقد يسر الله لنا أمناً لم نكن نحلم به عندما قدمنا إلى موسكو من روسيا البيضاء ولو كنا قدمنا من بلد آخر لتوقعنا مضايقات أكثر.

مقر هيئة الإغاثة الإسلامية:

في مكتب الأستاذ سعد طه اللبان
مدير هيئة الإغاثة الإسلامية في موسكو وهو يسار المؤلف

كـــان هذا الضحى مخصصاً لزيارة مقر هيئة الإغاثة الإسلامية في موسكو وهو مكتب كبير يشغل طابقاً كاملاً من أحد الفنادق ويعتبر إقليمياً لكونه يعني بأقطار الاتحاد السوفيتي السابق كلها حتى الآسيوية منها.

وجدنا في الاستقبال الإخوة المسئولين في المكتب وعلى رأسهم الأخ (طـــه سعدالدين اللبان) وعقدنا معهم اجتماعاً في مكتب المدير الذي كان غائـــباً بحثنا فيه الأمور المتعلقة بالإغاثة الإسلامية والأعمال الثقافية التي يتبرع لها المتبرعون في المملكة.

ثـــم قمـــنا بجولة تعريفية وبصحبة مصوري التلفزة والصحافة على أقسام الهيئة ومكاتبها هنا التي بلغت ثلاثة عشر مكتباً ومع ذلك تشكو الضيق.

وهيـــئة الإغاثة الإسلامية منبثقة من رابطة العالم الإسلامي، وتكتب على مطـــبوعاتها أنهـــا تابعـــة لها، مع أنها مستقلة استقلالاً إدارياً ومالياً كاملاً عن الرابطة، ولكن الأمين العام للرابطة هو رئيس المجلس التأسيسي للهيئة.

وكانـــت الهيئة إدارة من إدارات الرابطة، ومن الأشياء التي يعرفها أكثر الناس أنني أول من نادى بإنشاء هيئة إغاثة أو جماعة إغاثة إسلامية، حيـــث رأيـــت خـــلال سفراتي في أنحاء العالم الإسلامي أنه إذا أصيب المســـلمون بنكـــبة أو جائحـــة أو نازلـــة من النوازل سارعت الجمعيات والجماعات غير الإسلامية إلى نجدتها، فقدمت العون العاجل أو النقل: إنه الإغاثي للمحتاجين، وواست المنكوبين، ثم إنها ترسي قواعد استمرار هذا العون إذا كانت النكبة ستستمر.

وكـــان مـــن أبرز الأماكن التي لاحظت فيها ذلك بنغلاديش، حيث لجـــأت إلـــيها طوائـــف من المسلمين البورماويين فارين من الاضطهاد

والتنكيل في بلادهم بورما، فسارعت الجمعيات النصرانية والأجنبية إلى أماكن تجمع اللاجئين تقدم العون للاجئين وتنشئ لهم مساكن مؤقتة من (البامبو) وهو القصب القوى الشبيه بالخيزران إلا أنه أغلظ منه ويكثر هناك حيث يتخذ الناس منه مساكن.

وقد سارعت رابطة العالم الإسلامي في حينه إلى افتتاح مستوصف لهؤلاء الإخوة اللاجئين البورماويين، ولكن طوائف من أهل بنغلاديش من أهل الأرياف ومن الفقراء الذين لا عمل لهم والذين يجتمعون خارج المدن الكبيرة في بنغلاديش تفتح لهم الجمعيات الأجنبية المدارس والمستوصفات وتكسو أطفالهم، وتقدم الطعام لجائعيهم ، وتدخل أثناء ذلك ما تريد إدخاله من أفكار أو عقائد في عقولهم.

فقدمت لرابطة العالم الإسلامي آنذاك في عام ١٣٩٨هـ- ١٩٧٩م ممثلة في صديقى الأمين العام المساعد للرابطة في ذلك الوقت الأستاذ محمد صفوت السقاء أميني، وقلت: إنه يجب أن تنشأ في الرابطة هيئة للإغاثة الإسلامية لا يقتصر عملها على إغاثة المسلمين، بل يتجاوز ذلك إلى إطعام الجائع وكسوة العاري خلال الفواجع والنكبات سواء أكان من المسلمين أم غيرهم، لأن الإسلام هو دين الرحمة والعدل، وقد قال الرسول الله صلى الله عليه وسلم: (في كل كبد رطبة أجر).

فسارعت الرابطة إلى إنشاء الهيئة باسم (إدارة الإغاثة الإسلامية) وعرضت أمر ذلك على المجلس التأسيسي للرابطة فوافق عليه، ومن ثم أرسلت المشروع إليّ لأنني كنت في ذلك الوقت أشغل وظيفة (الأمين العام للدعوة الإسلامية) و(أمين الهيئة العليا للدعوة) وهي لجنة حكومية مؤلفة من

خمسة وزراء برئاسة الأمير سلطان بن عبدالعزيز ال سعود النائب الثاني لرئيس مجلس الوزراء ووزير الدفاع والطيران، وذلك من أجل عرضها على الهيئة العليا، وأخذ الموافقة عليها، ومن ثم رفعها من الهيئة إلى الملك.

وذلك لكون الهيئة العليا هي مختصة بتخطيط الدعوة الإسلامية في البلاد.

واستمرت إدارة الإغاثة الإسلامية إدارة في رابطة العالم الإسلامي حتى كان في عام ١٤٠٧هـ ويومها عينت الرابطة الدكتور فريد قرشي مشرفاً عاماً للهيئة وأعطته الاستقلال الداخلي في الإدارة والشئون المالية فشمر عن ساعد الجد والاجتهاد ونهض بالهيئة عن طريق جمع الأموال الطائلة لها ثم نشر أعمالها خارج المملكة فاستمرت بالنمو والتوسع من ذلك الوقت حتى الآن.

هذا واستمر بقاؤنا في إدارة (هيئة الإغاثة الإسلامية) حتى حان وقت صلاة الظهر فصلينا مع الموظفين وهم جمع وجمعنا صلاة العصر مع الظهر لكوننا مسافرين، ثم تناولنا الغداء في مقر الهيئة وكان ألذ ما فيه لحيمات أطمأننا على كونها حلالاً بلالاً.

المسجد التاريخي:

وكانت الفقرة التالية في برنامجنا هذا اليوم هي زيارة (المسجد التاريخي) في موسكو هكذا يسمونه وهو أقدم من جامع موسكو الذي لم يغلق أبداً وتقدم ذكره.

وقد تعمدت أن نمر ببعض الشوارع قبل أن نصل المسجد التاريخي في جولة عاجلة وبالسيارة على أنحاء من مدينة موسكو لم نرها من قبل.

المسجد التاريخي في موسكو

فأول ما يلاحظه المرء هذا الجو الربيعي، بل هو الجو الصيفي في بـــلاد غير بالغة الحرارة كالشام وتركيا، ورأينا الناس في شوارع المدينة وقـــد تخففـــوا مـــن الملابس وكثير منهم لم يبقوا عليهم إلا قميصاً خفيفاً وسروالاً غليظاً (بنطلون).

وتكـــررت رؤية المساحات الخالية من الأبنية بين أحياء المدينة في ضـــواحيها وفـــي أطرافها مما أفسح المجال للهواء النقي، وأعطى للنظر والفكـــر فرصـــة التمـــتع بذلك، بأن نفى عن تلك الضواحي منظر المدن المركومة المنازل بما يتبع ذلك من زحام في السيارات، وتراكم في القمامة

إضافة إلى الحدائق العديدة في المدينة التي رأيت أكثرها يكاد يكون مهملاً من العناية والرعاية، ومع ذلك استمرت خضرته وإزدهاره لأنه لا يحتاج إلى سقي أو ري، وإنما يحتاج إلى عناية بالتهذيب والتشذيب.

وبعض الشوارع الكبيرة مثل شارع قريب من فندقنا مؤلف من اتجاهين بينهما جزيرة من الفراغ تقف فيها السيارات لأنه ليس فيها رصيف.

أما الناس هنا فإنهم يبدون على البعد كالأوروبيين الذين نعرفهم، إلا أن المرء إذا تأملهم من قرب ظهر له أن أكثرهم يعاني من النقص في التغذية، أو تخيم على وجهه الكآبة، وحتى النساء فإن النضارة على وجوههن ليست كثيرة، رغم بياض ألوانهن وشعورهن الشقر.

ولاحظت كثرة الكبار في السن من الرجال والنساء في شوارع موسكو، حتى خُيِّل إليَّ أن كبار السن أكثر من الشباب فسألت بعض الإخوة المقيمين في البلاد عن ذلك، فذكروا أنه صحيح لأن طائفة منهم كانوا قد قتلوا في الحرب العالمية الثانية، كما تدنت نسبة المواليد فيهم، وهذا تعليل ليس بذاك، وإنما الصحيح في ظني هو سرعة التجاعيد إلى وجوههم، والتغضن في جلودهم نتيجة للإفراط في شرب الخمر، ونقص التغذية، أو لنقل سوء التغذية، إذْ يلاحظ كثرة استعمالهم للخبز والدهنيات وقلة أكلهم الفواكه المتنوعة، إضافة إلى قلة الإيمان في صدورهم مما ينعكس على وجوههم شقاء، أو عدم اطمئنان وارتياح.

ولاحظت أن السيارات كثيرة الآن في الشوارع ولكن الجميع يحترمون إشارات المرور، فلا يحاولون قطعها حتى المشاة يحترمونها،

وعلق أحد الإخوة على ذلك بأن الشعب الروسي مطيع لولاته، وقلت: هذا من أثر الصرامة الشيوعية في اتباع التعليمات، تلك الصرامة التي لا تقيم وزناً للشخص في سبيل المجموع.

كما رأيت أن صفوف الواقفين أمام بعض الأبنية والمحلات لا تزال طويلـــة، وإن كانت أقل مما كانت عليه إبان الحكم الشيوعي، حيث كانت الصفوف التي تسمى (طوابير) موجودة أمام كل مكان مهم.

في المسجد التاريخي:

وصـــلنا إلى المسجد التاريخي فرأيت أول ما رأيت على بابه لوحة باللغـــة العربـــية نصها: (بسم الله الرحمن الرحيم، بعون الله تعالى قد تم ترمـــيم المسجد التاريخي بموسكو على نفقة معالي الشيخ إبراهيم العنقري من المملكة العربية السعودية عام ١٤١٣هـــ ١٩٩٣م).

والشـــيخ العنقري هو صاحب المعالي إبراهيم العنقري ويشغل الآن وظيفة المستشار الخاص لخادم الحرمين الشريفين الملك فهد بن عبدالعزيز آل سعود.

دخلـــنا إلـــى داخـــل المصلى في المسجد فوجدناه غاية في النظافة والذوق الرفيع، سواء في ترميمه أو في فراشه وأثاثه وهو أبهى من جامع موسكو وإن كان أصغر منه مساحة.

في مكتب إمام المسجد التاريخي في موسكو الشيخ محمود عبدالحق

ثم انتقلنا إلى إدارة المسجد في مبنى مجاور مؤلف من طابقين وكان مدرسة إسلامية تابعة للمسجد ولا يزالون يستعملون غرفاً منه فصولاً دراسية وغرفاً أخرى لأغراض أخرى، وقد كتبوا عليه بالعربية وتحتها بالروسية: صندوق التبرعات في تكاليف الجناح التاريخي، واسفل من ذلك جملة (جمعية بيت الله الإسلامية).

وجدنا في الاستقبال الشيخ محمود عبدالحق وليد إمام المسجد، ومساعده الشيخ (منصور بن كليم الدين) وعدداً من الإخوة المسلمين وبعض طلبة العلم، وكان الشيخ محمود عبدالحق قد علم بزيارتنا من قبل.

بدأ الشيخ يتكلم وبعض طلبة العلم يضعون على المائدة طعاماً جيداً أصبنا منه، وإن لم نكثر لأننا كنا تغدينا من قبل.

والشيخ يتكلم بلغة عربية واضحة مع أن مظهره مظهر الأوروبيين الشماليين، فهو أشقر الشعر ذو تقاطيع لا تختلف عن بقية الأوروبيين الشماليين، ولذا عندما ذكر لي أنه من التتار وكانت في ذهني صور التتار الأصلاء الذين هم من المغول، ورأيتهم في مواطنهم الأصلية في منغوليا التابعة للصين الشعبية وفي جمهورية منغوليا التي عاصمتها (أولان باتور) ولا علاقة لهم من حيث المظهر بهؤلاء، فسألته عن ذلك، فقال: نحن في الحقيقة من البلغار أهل هذه المنطقة من أعالي الغولقا الأصلاء ولسنا من التتار أو المغول ولكن الروس أسمونا بهذا الاسم.

ثم تحدث عن تاريخ هذا المسجد التاريخي فذكر أن نابليون إمبراطور فرنسا كان منح أرضه وما يتبعه للمسلمين التتار إعجاباً ببسالتهم ورجولتهم في الحرب، وذلك عندما كانت فرنسا تحتل موسكو بقيادة نابليون، عام ١٨٢٣م.

وقد بني المسجد عام ١٨٨٤م.

فهو أقدم من جامع موسكو الحالي وهو أول مسجد يبنى بعد الحرب مع الفرنسيين.

قال: واستمر هذا المسجد في خدمة المسلمين التتار حتى أغلقه الشيوعيون في عام ١٩٣٣م وكان إمامه الشيخ عبدالله شمس الدينوف من أئمة المسلمين المجاهدين، لذلك سجنه الشيوعيون لغير ذنب جناه إلا لكونه مؤمناً ثم قتلوه في عام ١٩٣٧م.

قـــال: وهـــذا المبنى الملحق بالمسجد الذي نحن فيه الآن كان يسكنه الإمام الشيهد (عبدالله شمس الدينوف) يسكن في الطابق الثاني، أما الطابق الأول فكان مدرسة يتعلم فيها أبناء المسلمين.

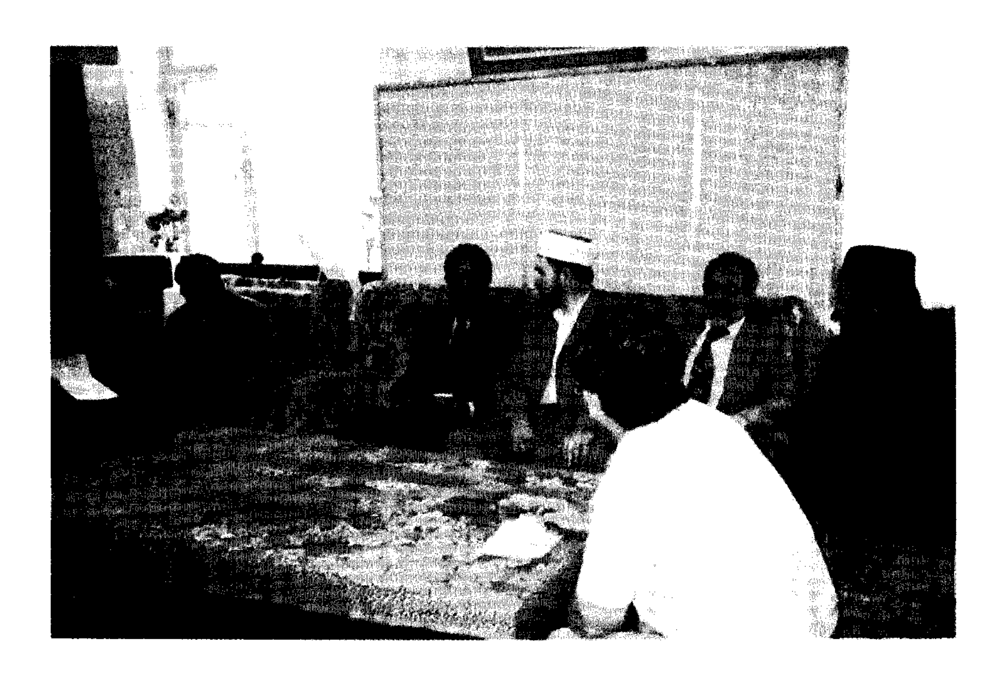

مع الشيخ محمود وليد عبدالحق إمام المسجد التاريخي في موسكو

قال: وقد أعدنا الطابق الأول إلى سيرته الأولى فجعلناه مدرسة يتعلم فـــيها الآن ٨٠ شـــاباً مـــن أبـــناء المسلمين القرآن الكريم وأحكام الدين الإسلامي الحنيف، ولكنهم بحاجة إلى الكتب الإسلامية.

وفـــي عام ١٩٩١م سجلت جمعية المسجد رسمياً فطالبت باستعادته مـــن الحكومة وحصلت عليه بالفعل في عام ١٩٩١م، ولكنه كان في حالة

يرثى لها، إذ الشيوعيون كانوا عندما صادروه حولوه لمطبعة إلحادية تطبع من بين ما تطبعه الكتب الإلحادية، أما هذا البيت التابع له فجعلوه مصنعاً لصنع أجهزة (الراديو).

ولكن الشيخ إبراهيم العنقري جزاه الله خيراً بادر بإصلاحه، وإعادته إلـــى مـــا كان عليه من قبل، بل إنه صار أحسن منظراً من قبل، وقد تم ترميمه في عام ١٩٩٣م.

ثـــم ذكـــروا أنهم قد استعادوا مبنى ثانياً مجاوراً للمسجد وتابعاً له، ولكـــنه يحـــتاج إلـــى ترميم وإصلاح، وأنه يستخدم مسكناً لإمام المسجد وبعض طلبة العلم.

كـــان حديـــث الشيخ محمود عبدالحق بالعربية واضحاً شيقاً، وكان ســـرده لـــتاريخ المســـجد شجياً، ذلك بأن المرء منا قد تصور كيف قتل الشـــيوعيون إمـــام المسجد وحولوا المسجد إلى مكان لمطبعة تطبع الكتب الإلحاديـــة وغـــيرها، وظـــنوا أنهم بفعلهم هذا قد قضوا على هذا المنبر الإســـلامي قضـــاءً نهائياً، ولكن الله أخلف ظنهم وخيب فألهم (يريدون أن يطفئوا نور الله بأفواههم ويأبى إلا أن يتم نوره ولو كره الكافرون).

المؤلف في محراب جامع موسكو

فقد عاد المصلون إلى المسجد، وعاد طلبة العلم إلى المدرسة، والمأمول أن يتسع التعليم الإسلامي منه وينمو أكثر من ذي قبل!

فقد أخبرنا الشيخ محمود أنهم يقيمون دورات تعليمية في العلوم الإسلامية الأساسية لطلبة المدارس الحكومية من أبناء المسلمين تتألف من محاضرات بمعدل ٣ مرات في الأسبوع، تضم الدورة ما بين ٨٠ إلى ١٠٠ حاضر في الشتاء وتكون أكثر من ذلك في الصيف.

وفـــي نهاية اللقاء قدمنا لهم خمسة آلاف دولار مساعدة نقدية عاجلة ممـــا نحملـــه من نقود وهي بمثابة الابتداء بالتعاون ما بينهم وبين رابطة العالم الإسلامي وأخبرتهم أن ثلاثة آلاف منها تخصص لمصاريف المسجد مـــن كهـــرباء وتدفـــئة، وألفين منها لجمعية (بيت الله) التي تشرف على المسجد للإسهام في تغطية نفقاتها المتكررة.

المركز الثقافي الإسلامي لروسيا:

هـــذا المركز قد يسمى أحياناً بمركز الثقافة الإسلامية، ويقع في حي يســـمى (حـــي التتار) بل إن المركز نفسه واقع على شارع يسمى (شارع التـــتار) وهذا رغم كون التتار الآن أقلية قليلة في هذا الحي، وإنما أكثرية الســـكان فـــيه من الروس، فإن تسميته بهذا الاسم قديمة ترجع إلى القرن السادس عشر، والمراد بذلك تسمية الحي بحي التتار.

كـــان فـــي الاستقبال مدير المركز الدكتور عبدالواحد وليد نيازوف وثلاثـــة إخوة من العاملين فيه، وجلسنا في مكتب المدير وهو مكتب فخم مؤثث بأثاث عصري جميل.

حدثنا الدكتور عبدالواحد عن المركز فذكر أنه أسس قبل ٣ سنوات وأنه من أكبر المراكز في جمهورية روسيا كلها وإن له فروعاً في أنحاء روسيا والدول المستقلة.

وذكـــر أن المركز يعمل على نشر الثقافة الإسلامية من خلال عقد ندوات وإلقاء محاضرات، ومن طريق الدروس والكتب وأنهم- على سبيل المثال- بصدد ترجمة صحيح البخاري إلى اللغة الروسية.

وذكر أن المركز يعمل – أيضاً- على بناء المساجد وترميمها ونوه

بأن حكومة المملكة العربية السعودية بتوجيه من خادم الحرمين الشريفين الملك فهد بن عبدالعزيز آل سعود قد تفضلت بتمويل إنشاء مباني المركز الثقافـــي الإسلامي هذا على الأرض التي منحتها لهم حكومة روسيا، وأنه قــد تــم الاحــتفال بوضع الحجر الأساسي للمركز تحت إشراف السفير السعودي في موسكو الدكتور عبدالعزيز خوجة.

خارج مبنى المركز الإسلامي في موسكو مع الدكتور عبدالواحد نيازوف

وذكــر أن لديهــم ٢٢ مشــروعاً إسلامياً يريدون تنفيذها ويرجون المساعدة على ذلك.

أما المبنى الذي يشغله المركز في الوقت الحالي فإنه شقة جيدة مستأجرة.

وقد قدمنا إليه مبلغاً عاجلاً لتسديد نفقات الكهرباء وإيجار شهري لم يدفعوه ووعدناه بزيادة التعاون معه في المستقبل.

المدرسة الإسلامية:

استرعى انتباهي هنا في شارع التتار هذا مبنى عربي الطراز يقع مقابلاً للمركز الإسلامي وعليه كتابة عربية قديمة فأخبرونا أنه كان مدرسة عربية قبل الثورة الشيوعية، وأنه الآن ليس بأيدي المسلمين فضلاً عن أن تكون فيه دراسة ولا تزال الكتابة العربية واضحة، وهي بحروف بارزة رغم كون المبنى مضت عليه سنوات طويلة هي ١١٥ سنة، ولم ينل منه بطش الشيوعيين.

وقرأنا من بين ما هو مكتوب عليه (مرحوم شمسي أسد الله تاجر من أذربيجان ١٣٠٠هـ) وهذه العبارة بالحروف العربية فالتقطنا صورة لهذا المبنى وودعنا الإخوة قاصدين المطار للسفر بعد قليل إلى قازان عاصمة (جمهورية تتارستان) وللحديث عن ذلك مكان في كتاب آخر تحت عنوان (بلاد التتار والبلغار) والله المستعان على كل شأن.

خاتمة

تتضـــمن هـــذه الخاتمـــة ملخصاً لما قام به وفدنا (وفد رابطة العالم الإســـلامي) في روسيا البيضاء وعاصمة روسيا الاتحادية موسكو مجرداً من الأمور المتعلقة بأدب الرحلة، والأحاديث العامة التي يريدها من يهوي قراءة كتب الرحلات، وذلك لكي يطلع عليها من يود الإطلاع على حديث الوفد عن الأمور الدينية فقط.

أولاً: روسيا البيضاء:

لقــد وصـــل وفــد الرابطة جواً إلى مدينة منسك عاصمة روسيا البيضاء ظهــر يوم الجمعة ١٤١٥/٤/١١هــ الموافق ١٩٩٤/٩/١٦م وكان في استقباله الأستاذ عمار البحر مدير مكتب مؤسسة سارا في روسيا البيضاء.

وفـــي المســـاء اجـــتمع الوفــد إلـــى كل من الأستاذ إسماعيل مصطفى الكسندروفيتش مفتى مسلمي روسيا البيضاء والأستاذ أبوبكر شعابانوفيتش.

وقـــد تحـــدث المفتـــي إسماعيل مصطفى الكسندروفيتش عن تاريخ الوجود الإسلامي قائلاً:

استوطن التتار أجزاء من روسيا البيضاء في عهد دولة التون أورده فـــي القرن الرابع عشر الميلادي، ثم توافد إليها المسلمون التتار من شبه جزيـــرة القريم في القرنين ١٨ و١٩ الميلاديين، وأما في العهد السوفياتي فقد قدم إليها الأوزبك والآذريون والقازاق والأكراد من مختلف جمهوريات الاتحـــاد الســـوفيتي السابق، كما يدرس بضعة آلاف من الطلاب العرب المســـلمين فـــي جامعاتها، ويبلغ عدد المسلمين عموماً نحو عشرين ألف نســـمة، منهم ١٣ ألف تتاري مسلم، وقد حافظ المسلمون التتار على دينهم

وشخصيتهم الإسلامية على مر القرون وكان لهم ١٩ مسجداً قبيل عام ١٩٣٩م لما كان مسجدان لهم في منسك حتى عام ١٩٦٢م.

ومع تغير الأوضاع بسبب حركة الجلاسنوست والبيروسترويكا وانهيار الاتحاد السوفيتي أخذ المسلمون يستعيدون مساجدهم في عدد من القرى والمدن كما بدأ العمل الإسلامي يستعيد نشاطه وانتهى الأمر إلى تأسيس إدارة دينية إسلامية يشرف عليها مجلس يتكون من تسعة أشخاص يرأسهم مفتي مسلمي روسيا البيضاء.

وقد اعترفت حكومة روسيا البيضاء بهذا التنظيم حيث سجل في وزارة العدل برقم ٥٠ تاريخ ٧ يناير ١٩٩٤م.

وتتولى دار الإفتاء تنظيم الجمعيات الإسلامية الفرعية في المناطق التي يوجد فيها المسلمون واستعادة المساجد القديمة وترميمها وإصلاحها وفتح فصول دراسية لتعليم أولاد المسلمين وإجراء الاتصالات والعلاقات الأخوية مع منظمات إسلامية في بلدان العالم، ومنها الاتصال بالإدارة الدينية التركية وإرسال عدد من الطلاب إلى تركيا وهكذا.

استطاعت دار الإفتاء تشكيل ١٤ جمعية إسلامية فرعية وسيصل عددها إلى ٢٥ جمعية محلية في المدن والقرى، كما أن التعليم الإسلامي لأولاد المسلمين موجود في ست مناطق حالياً وبنهاية هذا العام ستصل إلى ثمان وأمكن استعادة مقبرة إسلامية قديمة قد أزيلت قبورها تماماً وسيتم إنشاء مسجد عليها في منسك.

وبعد أن شكرهم وفد الرابطة على هذه المعلومات وأبدى لهم استعداد الرابطة في دعم نشاطهم الإسلامي ثم الاتفاق على وضع برنامج لزيارة المناطق الإسلامية في روسيا البيضاء.

في يوم السبت ١٤١٥/٤/١٢هـ الموافق ١٩٩٤/٩/١٧م توجه وفد الرابطة برفقة الأستاذ عمار البحر مدير مكتب مؤسسة سارا في روسيا البيضاء مع الأستاذ أبي بكر شعبانوفيتش بالسيارة نحو محافظة غرودنه Grodnou التي تقع على ٢٧١ كيلومتراً شرق مدينة منسك وتتاخم حدود بولندا، وذلك لأن مناطق المسلمين التاريين في هذا الاتجاه.

١- مير Mir قرية تابعة لمحافظة نوفوغرودك Novogrudok بقي فيها عائلتان مسلمتان، أما المسجد فقد دمر.

٢- بلدة نوفوغرودك عدد سكانها ٣٦ ألف نسمة منهم حوالي ٣٥٠ أسرة مسلمة.

٣- ويقول رئيس الجماعة الإسلامية التتارية فيها: إن الحكومة الشيوعية صادرت المسجد عام ١٩٤٨م وعملت منه ست شقق سكنية تقطنها ثمان عوائل، وقد استعاد المسلمون المسجد في العام الماضي ١٩٩٣م، والمسجد مبني من الخشب من دورين، وتمت إزالة الحواجز الداخلية فيه، والجزء الأمامي مصلى والجزء الخلفي دوران الدور الثاني منه فصول دراسية.

٤- ولا يزال المسجد يحتاج إلى كثير من الإصلاح والتأثيث، وقد تبرع الوفد باسم الرابطة بثلاثة آلاف دولار لإتمام أعمال الترميم والإصلاح، وألف دولار لتسيير شئون التعليم الإسلامي.

٥- إيفيا Evie بلدة يبلغ عدد سكانها ٨٠٠٠ نسمة منهم ١٢./. مسلمون يعني ٨٠٠ مسلم، ومسجد إيفيا بني عام ١٨٨٢م وهو جيد قائم، ولم يصادره الحكم الشيوعي، وأمامه فناء طويل وفي أعلاه مئذنة صغيرة، وبه ملحق صغير للنساء، ولكن لا توجد له أماكن الوضوء

والطهـــارة، والإمـــام رجل مسن اسمه سليمان صموئيل عليافيتش، ويقول رئيس الجماعة الإسلامية التتارية مصطفى باكا فلافيتش بأنهم يبنون مركزاً ثقافياً إسلامياً لهم عند مدخل بلدة إيفيا وسيضم قاعات للاجتماعات وفصولاً دراسية للأنشطة الثقافية والتعليمية.

٦- وقد وقف أعضاء وفد الرابطة على المباني التي يجري تشييدها لفتح المركز الثقافي الإسلامي وقدم لهم باسم الرابطة التبرعات التالية:

٧- لإيجاد أماكن الوضوء لمسجد البلدة ٢٥٠٠ دولار.

٨- لإتمام مباني المركز الثقافي الإسلامي ٢٥٠٠ دولار.

٩- وصل وفد الرابطة إلى مدينة غرودنه Gridbag مساء يوم السبت ١٢/٤/١٤١٥هـــــ واجتمع بالإخوة المسلمين في منزل الأستاذ إبراهيم الواديه، وكان الحضور يشمل كلاً من:

١- محمد أبايزيد من الشباب العربي العامل في الدعوة الإسلامية.

٢- الكساندر الكساندروفيتش عضو مجلس دار الإفتاء عن غرودنه.

٣- سرور نور الدين رئيس المركز الثقافي الإسلامي في غرودنا.

ولم يحضر هذا الاجتماع يوسف علي مرزا كرينتسكي رئيس الجمعية الاجتماعـــية الثقافية التتارية في غرودنا رغم دعوتهم له، وذلك لأن المذكور يســتعد للرحـــيل إلـــى الولايات المتحدة الأمريكية، كما يقول إبراهيم الوادية ممثل مؤسسة سارا الإسلامية في غرودنه.

تحدث المجتمعون عن تاريخ الوجود الإسلامي الذي يعود لأكثر من ستمائة عام وأن المسلمين التتار هم المسلمون الأوائل القادمون إلى روسيا البيضاء في عهد دولة التون أورده.

ويبلغ سكان مدينة غرودنه حوالي ٣٠٠ ألف نسمة منهم ١٥٠٠ مسلم، وكان لهم مسجد إلا أن الحكم الشيوعي أزاله ويؤدي المسلمون صلاتهم يوم الجمعة في إحدى قاعات معهد الطب.

وكان السيد يوسف علي كرنيتسكي أسس جمعية الكتّاب الإسلامية منذ أربعة أعوام وحاول من خلالها إيجاد أرض لإقامة المسجد، ولكن لسوء تصرفاته أغلقت حكومة روسيا البيضاء جمعيته ورفض هو أن يتعاون مع الآخرين مع أنه يستعد للسفر إلى الولايات المتحدة الأمريكية فهو يرفض أن يسلم المسلمين وثائق مشروع المسجد.

كما تحدث سرور نور الدين عن المركز الثقافي الإسلامي المسمى باسم مركز ابن سينا الثقافي وعن تعاونه مع مؤسسة سارا الإسلامية التي تدفع له إيجار مقر المركز الثقافي المذكور ويستخدم بعض غرفه فصولا دراسية.

وفي نهاية الاجتماع قدم الوفد باسم الرابطة المساعدات التالية:

١- دعم الطلاب على الإستمرار في استئجار قاعة معهد الطب لأداء صلاة الجمعة مبلغ قدره خمسمائة دولار.

٢- دعم المركز الثقافي الإسلامي بمبلغ قدره ثلاثمائة دولار.

يوم الأحد ١٣/٤/١٤١٥هـ الموافق ١٨/٩/١٩٩٤م:

عقـد وفـد الرابطة اجتماعاً مع الإخوة أعضاء الهيئة الإدارية في مجلس دار الإفتاء ورئيس الجمعية التتارية الإسلامية وعددهم ١٢ شخصاً منهم امرأة واحدة وذلك في منسك.

وتحدث إليهم رئيس وفد الرابطة عن سروره وأعضاء الوفد بلقائهم والتعرف إليهم، وأبدى استعداد الرابطة معهم لمصلحة دينهم ومجتمعهم الإسلامي، كما حدثهم عن تاريخهم الإسلامي في دولة التون اورده وما كان لأجدادهم من دور في نشر الإسلام وتوطيد أركانه في هذه الأصقاع وانتهى في قوله إلى حثهم على تعليم أولادهم أحكم الإسلام والاهتمام بأداء الصلاة والتعاون والصدق في المعاملة ونبذ الخلافات.

ثم قام وفد الرابطة بزيارة لموقع المسجد المراد إنشاؤه في منسك بهدف التأكد من أن المسجد لا يبنى بين القبور، وقد اطلع الوفد على الأرض ومساحتها هكتار وتقع على ثلاثة شوارع، ولا توجد فيها قبور، وقد أزيلت القبور منها تماماً عام ١٩٥٠م ، كما مر الوفد على مكان المسجد القديم الذي يقع على شارع كان يعرف قديماً بشارع التتار وقد أزيل المسجد عام ١٩٦٢م، وأقيم فندق ومطعم يوبلينا في مكانه.

وفي الختام قدم الوفد باسم الرابطة المساعدات التالية:

- دار الإفتاء ٢٠٠٠ دولار.
- النشاط التعليمي لفروع دار الافتاء البالغ عددها ١٤ فرعاً ٥٠٠٠ دولار.
- مسجد منسك ٥٠٠٠ دولار.
- جمعية التتار الإسلامية ٢٠٠٠ دولار.

موسكو

وصل وفد الرابطة جواً إلى موسكو صباح يوم الاثنين ١٤١٥/٤/١٤هـ الموافـق ١٩٩٤/٩/١٩م وكـان في استقباله الأستاذ سعد الدين طه اللبان نائب مديـر مكتـب هيئة الإغاثة الإسلامية العالمية في روسيا وبعض موظفيه، وبعد الاسـتراحة فـي فندق كوزموس قام الوفد بزيارة لجامع موسكو، ذلك المسجد الوحـيد إبان الحكم السوفيتي، واجتمع إلى إمامه الأستاذ راوي عين الدين وهو رئيس الإدارة الدينية لمسلمي القسم الأوروبي المركزي لروسيا.

يجـري الترمـيم لأجزاء داخل المسجد، كما تجرى التشطيبات النهائية لمبـنى الكلـية الإسـلامية التـي أقيم بناؤها من ثلاثة أدوار بجوار المسجد وستضـم الكلـية فصولاً دراسية وقاعة محاضرات ومكتبة ومطعماً داخلياً، وسـتبدأ الدراسة كما يقول الأستاذ راوي عين الدين مع غرة أكتوبر ١٩٩٤م، وقد تم ترشيح ثمانية طلاب.

يفـيد المذكـور بـأن المبنى تم إنشاؤه بتبرعات المسلمين المحليين ومساعدات من حكومة روسيا وانهم مدينون بمائة مليون روبل لأن البنك الإسـلامي للتنمـية بجدة وعدهم بالمساعدة بمبلغ قدره ١٢٠ ألف دولار أمريكي ولكن بسبب بعض الخلافات بينهم لم يتم إرسال المبلغ.

وبجوار المسجد المذكور الأرض التي خصصت لإنشاء مسجد كبير بـتمويل مالي من مؤسسة آل إبراهيم الخيرية، ولكن هذا المشروع أيضاً معطل ويبدو ذلك بسبب تصرف الإدارة الدينية.

ويفـيد الأستاذ راوي عين الدين بأنه الرئيس الفعلي للإدارة الدينية

لمسلمي القسم الأوروبي لروسيا وتتبعه ثمان محافظات روسية يقدر مجموع سكانها بحوالي ٥٠ مليون نسمة، وهناك عدة أشخاص يدعون أنهم مفتون رؤساء إدارات دينية.

يوم الثلاثاء ١٥/٤/١٤١٥هـ الموافق ٢٠/٩/١٩٩٤م.

قام وفد الرابطة بزيارة لمكتب هيئة الإغاثة الإسلامية العالمية المركزي لجمهوريات رابطة الدول المستقلة، واستمع إلى شرح وافٍ عن أعمال الإدارات المختلفة من المسئولين والموظفين، وعلى رأسهم الأستاذ سعد الدين طه اللبان وبعد صلاة الظهر غادره وفد الرابطة لزيارة كل:

١- المسجد التاريخي المسمي باسم بيت الله، وإمامه الشيخ محمود عبدالحق وليد الذي تحدث إلى الوفد عن تاريخ المسجد بقوله: إن هذا المسجد بني قبل جامع موسكو في عام ١٨٨٣م ولكنه أغلق بعد مقتل الإمام عبدالله شمس الدينوف عام ١٩٣٧م واستخدم مقراً لمطبعة ثم تمت استعادته مؤخراً عام ١٩٩١م، وجرى ترميمه وإصلاحه على نفقة الشيخ إبراهيم العنقري في المملكة العربية السعودية عام ١٩٩٣م.

٢- وبجوار المسجد مبنى من دورين يستخدم الدور الأول فصولاً دراسية والدور الثاني مكاتب إدارية لجمعية بيت الله التي أسسها الشيخ محمود عبدالحق وليد للإشراف على المسجد والنشاط التعليمي الإسلامي عام ١٩٩١م، ويدرس أكثر من ٨٠ شاباً القرآن الكريم وتعاليم الإسلام، وهم في حاجة إلى الكتب الإسلامية والدعم المالي لإصلاح وترميم مبنى ثانٍ تابع للمسجد ويستخدم سكناً للإمام وطلاب العلم.

وبعد أن وعدناه باستعداد الرابطة على الدعم والتعاون ونقل طلباته إلى معالي الشيخ إبراهيم العنقري قدم الوفد له باسم الرابطة المساعدات التالية:

١- تسيير شئون المسجد وتسديد نفقاته لتدفئة وكهرباء ٣٠٠٠ دولار.

٢- دعم جمعية بيت الله ونشاطها التعليمي ٢٠٠٠ دولار.

٣- المركز الثقافي الإسلامي لروسيا ويقع مكانه في الحي التتاري Malyi Tajarskij في موسكو، وكان في استقبال الوفد مديره الأستاذ عبدالواحد وليد نيازوف الذي حدثهم عن تاريخ ونشاط المركز الثقافي الإسلامي الذي يقول عنه: بأنه أكبر المراكز الاجتماعية في روسيا حيث ينتشر فروعه في أكثر من ٨٦ منطقة، ويعمل على نشر الثقافة الإسلامية من خلال عقد ندوات وإلقاء محاضرات وتنظيم الدروس وإعداد الكتب وهو بصدد ترجمة صحيح البخاري إلى اللغة الروسية وكذلك يعمل، وقال: لقد وعدت حكومة خادم الحرمين الشريفين بتمويل إنشاء مباني المركز الثقافي الإسلامي على الأرض التي منحتها لهم حكومة روسيا وأزيح الستار عن الحجر الأساسي الذي وضع تحت إشراف الدكتور عبدالعزيز خوجة سفير خادم الحرمين الشريفين في شهر مايو ١٩٩٤م.

وبعد أن استمع وفد الرابطة إلى شرحه شكره على ما قدمه من معلومات وأعرب له عن استعداد الرابطة للتعاون معه لما فيه مصلحة العمل الإسلامي وقدم له باسم الرابطة دعماً مالياً رمزياً لأعمال المركز الثقافي الإسلامي.

هذا وقد أعطانا مدير المركز منشوراً صادراً عنه يوضح حال المركز وأهدافه، وبعض ما قام به قال ملخصاً:

المركز الثقافي الإسلامي لروسيا

يعتبر المركز الثقافي الإسلامي لروسيا (مدينة موسكو) أول منظمة إسلامية اجتماعية في الاتحاد السوفيتي السابق.

لقد سجّل المركز المذكور رسمياً في ١٩٩١/٤/١٧م.

أهداف المركز الرئيسية:

- التعريف بالتراث الإسلامي والثقافي وحفظه ونشره.
- القيام بالدعوة الإسلامية.
- إقامة العلاقات المتعددة الأطراف بمسلمي روسيا والبلدان الأخرى.
- تشجيع الحوار بين القوميات والديانات المختلفة.
- تكوين هيئة المنظمات الإسلامية في روسيا.
- التعاون مع جميع المؤسسات الساعية للخير من أجل النهضة الوطنية لروسيا.

يبدي المركز الثقافي الإسلامي عنايته الكبيرة لإجراء التدابير الاجتماعية، هكذا قد جرت بمبادرته أيام الثقافة الإسلامية في موسكو، ويصدر المركز الثقافي الإسلامي منشورات تثقيفية وتقاويم إسلامية مختلفة باللغة الروسية واللغات القومية.

في الوقت الحاضر يساعد المركز الثقافي الإسلامي لروسيا على تنفيذ البرنامج الخاص ببناء المساجد والمدارس الدينية والمراكز الثقافية الإقليمية على ساحة روسيا كلها.

ويقدم المركز الثقافي الإسلامي مساعدة لمسلمي روسيا في زيارتهم الأماكن المقدسة وأداء مناسك الحج والعمرة في المملكة العربية السعودية، بمعاونـــة المركـــز زارت عدة مئات من حجاج المناطق المختلفة لروسيا الأماكن المقدسة ومئتان منهم على حساب المركز الثقافي الإسلامي.

إن المركـــز الثقافـــي الإســـلامي له العلاقـــة الدائمـــة مع بعض المؤسسات الإسلامية في روسيا الاتحادية والخارج بما فيها الإدارات الدينية لمسلمي روسيا.

المركز ذو ٨٢ فرعاً في المناطق العديدة لروسيا.

ومـــن أهـــم النشاطات الاجتماعية للمركز الثقافي الإسلامي وساطة حمـــيدة، إذْ زارت وفـــوده مراراً مناطق الشيشان وتاجيكستان التي جرت فيها العمليات الحربية لتقديم المساعدة لمنكوبي الحرب.

لهذا الغرض أسس المركز الثقافي الإسلامي بالتعاون مع المنظمات الإسلامية الأخرى لجنة الهلال الأحمر.

اشترك المركز اشتراكاً فعّالاً في تحرير الرهائن في شمال القوقاز.

ومـــن أهـــم البرامج للمركز الثقافي الإسلامي لروسيا في المرحلة الجديـــدة تطويـــره مشروع بناء مركز الشرق الخيري في جنوب غرب العاصـــمة، وصـــدّقت قـــيادة الدولة على هذا المشروع ويتم تنفيذه تحت إشراف بلدية مدينة موسكو.

وســـيتكوّن المركـــز المذكور من مجموعة أبنية من بينها: المجمع الدينـــي (المســـجد)، دار الأيـــتام، مجمـــع "كروان سراي" يضم المطاعم والمركز العلمي والرواق التجاري المفتوح.

لا يمكن حصر أهمية المجمع الخيري في كونه مسجداً رئيسياً فحسب، بل تتعدى أهميته كرابطة بين كثير من جمهوريات رابطة الدول المستقلة.

كما أن وجود مثل هذه المرافق في مركز الشرق الخيري يساهم في نشر الروح الإسلامية والثقافية.

أبدى المركز الثقافي الإسلامي نفسه خلال خمس سنوات لنشاطه كمتحدث نيابة عن مصالح وآمال مسلمي روسيا وكمنظمة ثابتة وسريعة التطورات ذلك أمام ٢٠ مليون مسلم روسياً، والأمة والقيادة الروسية والرأي العام.

عدد المسلمين في موسكو:

اختلف القائلون في عدد المسلمين في موسكو من أهل موسكو نفسها ومن الذين يعرفونها من المسلمين ما بين مقل ومستكثر، وأعدل الأقوال فيما ذكروه أن عددهم هو ما بين ٨٠٠ ألف إلى ٩٠٠ ألف.

إلا أنني سمعت بنفسي رئيس حكومة موسكو تشوكوف يقول: إن عدد المسلمين في موسكو يبلغ مليوناً، قال: ولذلك أنا مهتم بالإسلام وبالعلاقة مع المسلمين لهذا السبب لأنني مسئول عن حكومة موسكو.

ملحق

قبل اختتام الحديث عن روسيا الاتحادية رأينا عرض تقرير صدر بعد زيارتنا تلك لروسيا بزمن ولكن الإطلاع عليه يكمل الصورة الحاضرة لوضع المسلمين هناك.

ويتضمن قيام المسئولين الروس ببحث ما أسموه التطرف الإسلامي.

كما يشتمل على بيان أحدث وأشمل عن الهيئات والمؤسسات الإسلامية في روسيا في الوقت الحاضر.

عقد اجتماع في مقر النيابة العامة الروسية بتاريخ ٢٠٠١/٧/١٠م الموافق ١٩ ربيع الآخر ١٤٢٢هـ وحضره ممثلون عن جهاز الأمن الاتحادي والمخابرات الخارجية ووزارة الداخلية ووزارة الدفاع ووزارة الخارجية بموافقة الكرملين، وضمن إطار المحاورات لإيجاد مخرج للأزمة الشيشانية.

تشير المعلومات إلى أن هذا الاجتماع ليس الأول من نوعه، إذ تجري مثل هذه اللقاءات شهرياً لبحث الأمور الأمنية اليومية، وفي إدارات أخرى غير النيابة العامة لروسيا، لكن هذا الاجتماع تركز على بحث نشاط المنظمات الإسلامية في روسيا، واحتمال حدوث اضطرابات في الجمهوريات والمناطق التي توجد فيها جاليات ومجموعات مسلمة كبيرة، وعلاقة هذه المنظمات بمثيلتها في الدول الإسلامية، وكذلك الموقف من عمليات الإغاثة الدولية، علماً أن السلطات قد قررت منذ عام ٢٠٠٠م إيقاف نشاط منظمات الإغاثة الإسلامية ولاسيما (مؤسسة الحرمين الخيرية) و(مؤسسة إبراهيم البراهيم الخيرية) و(هيئة الإغاثة الإسلامية الدولية)، ولم يقف هذا الإجراء عند هذا الحد، بل تجاوزه إلى أن وصل إلى جمعية الهلال الأحمر السعودي التي وقعت اتفاقية مع وزارة الطوارئ الروسية، كما تضمن بحث نشاط المنظمات

الإســـلامية مـــثل لجـــنة آسيا الكويتية ومنظمات أخرى في الإمارات والأردن وسوريا لها علاقة بجمع التبرعات لصالح حركة المقاومة الشيشانية.

يعـــتمد الموقـــف الرســـمي للأجهـــزة الأمنية مما يسمى بالتطرف الإســـلامي علـــى المعلومات الواردة من مصادر الاستخبارات العسكرية وحرس الحدود وجهاز الأمن الاتحادي، والنيابة العامة، ووزارة الداخلية، وكذلـــك آراء الخبراء والمسئولين في الهيئات الإسلامية الروسية، ومعهد الاستشراق، وغيرها من المؤسسات العلمية والتعليمية.

وتحصل إدارات الأمن من هذه المصادر على المعلومات حول نشاط المتطرفيـــن الإســـلاميين في روسيا وخارجها، وتقوم هيئات التحليل بوضع الـــرأي العـــام حولهـــا، علماً أن هذه المعلومات غالباً ما تكون غير دقيقة أو متحـــيزة، لأن الجهـــات العســـكرية الروسية في الشيشان تحاول المبالغة في دور مـــن يسمونهم بـــ(الوهابيين) والمجاهدين العرب في تشكيل الرأي العام فـــي الشيشـــان، وفي أغلب الظن أن الأمر يرجع لضعف قدرات العسكريين في الحصول على معلومات أكيدة حول نشاط الإسلاميين في شمال القوقاز.

حـــاول جهاز الأمن الاتحادي الذي فقد الكثير من كوادره المحترفة التـــي كانت تعمل في جهاز الاستخبارات السوفيتي السابق إرسال عملائه إلى صفوف الإسلاميين في مناطق روسيا المختلفة ولاسيما في (الشيشان- داغســـتان- قراشاي/شركسيا- قبرداي/بلقاريا- بشكيريا- حوض الفولغا- تتارســـتان)، لكـــن الأحـــداث التـــي جرت خلال الأعوام الأخيرة- مثل التفجـــيرات في (موسكو وبويناكسك ومنرالنيه فودي) وغيرها من المدن تدل على أن تلك الكوادر لم تستطع كشف تنظيمات المتطرفين الإسلاميين، ولم يتم إلقاء القبض سوى على عدد قليل منهم.

يقدم الخبراء الروس في الشؤون الإسلامية وممثلو الهيئات الدينية الرسمية آراءهم بصدد التطرف الإسلامي انطلاقا من مصالحهم بصورة أساسية، علماً أن بعضهم يتهم جهات أجنبية (لاسيما البلدان العربية) في تصدير أفكار التطرف الإسلامي إلى روسيا، ويعزون ذلك إلى أن ما بين (٢٠-٢٥) مليون مسلم يعيشون في روسيا لم يعرفوا التطرف من قبل، ويرون أن الوضع المعيشي الصعب يعتبر أحد العوامل الرئيسية في انتشار نزعة التطرف الإسلامي في أواسط الشباب بالذات.

لا يوجد رأي موحد بصدد التطرف الإسلامي في إدارات الأمن والسلطات الروسية عموماً، فالبعض يفضل استخدام القوة حيالهم. بينما يرى البعض الآخر أن من الواجب العمل على تقوية الهيئات الدينية الرسمية وتنشيط التعليم الديني الرسمي عن طريقها، لكن لم تتخذ أية خطوات جديرة بالذكر في هذا الشأن.

يلاحظ أن ملاحقة المنظمات الإسلامية الأجنبية لا تطال الإيرانيين الذين يعملون بكل حرية في موسكو والمدن الأخرى، لأن السلطات الأمنية لا تعتبرهم من المتطرفين.

تقلص عدد المنظمات الإسلامية الدينية والتعليمية المسجلة رسمياً لدى وزارة العدل الروسية خلال العام المنصرم، حيث أعيد تسجيلها هذا العام وفقاً للقانون الجديد، والمؤسسات الرئيسية المسجلة فعلاً هي:

١- الإدارة الدينية المركزية لمسلمي روسيا والبلدان الأوروبية لرابطة الدول المستقلة، حيث تعتبر من أقدم المنظمات الإسلامية في روسيا ووريثة (الجمعية الدينية المحمدية) التي تأسست عام ١٧٨٩م، ومقر

الإدارة في (أوفا- جمهورية بشكيريا)، ويترأسها (طلعت تاج الدين)، ولهـا فـروع في (بطرسبورغ- روستوف- أوليانوفسك- قازان- أستراخان- بيرم- صلوات- تشيلابنسك- إيجيفسك- سامارا- نيجني فارتوفسـك- أورنبورغ- سيبيريا)، وتسعى الإدارة إلى تمثيل جميع مسـلمي روسـيا وبيلاروسيا وجمهوريات البلطيق وأوكرانيا، لكن الإدارة الأخـرى ولاسيما في موسكو لا تعترف بأحقية تلك الإدارة في ذلك.

٢- الإدارة الدينـية لمسـلمي تتارستان، ومقرها في (قازان) ويترأسها المفتي (عثمان أسحاقوف).

٣- الإدارة الدينية لمسلمي بشكيريا، ومقرها في (أوفا)، ويترأسها المفتي (نـور محمـد نعمة الله)، ولا تقيم هذه الإدارة علاقات مع الإدارة المركزية برئاسة (طلعت تاج الدين).

٤- الإدارة الدينـية لمسـلمي القسـم الأوروبي من روسيا، ومقرها في (موسكو)، ويترأسها المفتي (راوي عين الدين) رئيس مجلس المفتين فـي روسيا الاتحادية، وتشرف هذه الإدارة على الهيئات الإسلامية في (موسكو ومدن أخرى)، وكذلك على المعهد الإسلامي في موسكو وهيـئة دعم الباحثين الإسلاميين ومدرسة إسلامية، وتصدر الإدارة صحيفة تدعى (منبر الإسلام).

٥- الإدارة الدينـية لمسـلمي القسـم الآسـيوي من روسيا، ومقرها الرسمي في (أومسـك- سـيبيريا)، ويترأسها المفتي (نفيع الله عشيروف)، ولديها مدرسة إسلامية بضواحي (موسكو).

٦- الإدارة الدينية لمسلمي منطقة الفولغا، ومقرها في (ساراتوف)، ويترأسها الشيخ (مقدس بيبرسوف).

٧- الإدارة الدينية لمسلمي مقاطعة (سامارا)، ومركزها مدينة (سامارا) ويترأسها الشيخ (عبدالأحد مينغاشيف).

٨- الإدارة الدينية لمسلمي مقاطعة أوليانوفسك، ومقرها في مدينة (أوليانوفسك)، ويترأسها المفتي (أيوب دبردييف)، وتوجد إدارة منافسة لها يترأسها (طاهر شنغارييف).

٩- الإدارة الدينية لمسلمي بطرسبورغ ومنطقة شمال غرب روسيا، ومقرها في بطرسبورغ، ويترأسها الشيخ (جعفر بونتشايف).

١٠- الإدارة الدينية لمسلمي مقاطعة سفيردلوسك، ومقرها في يكاترينبورغ، ويترأسها الشيخ (صبغة الله سعيدولين).

١١- الإدارة الدينية لمسلمي مقاطعة أورنبوغ، ومقرها في أورنبورغ، ويترأسها (رشيد خيرولين).

١٢- الإدارة الدينية لمسلمي جمهورية أدمورتيا، ومقرها في إيجيفسك، ويترأسها المفتي (عبدالله محمدشين).

١٣- الإدارة الدينية لمسلمي مقاطعة أومسك، ومقرها في أومسك، ويترأسها المفتي (ذوالقرنين شاكرجانوف).

١٤- الإدارة الدينية لمسلمي مقاطعة أستراخان، ومقرها استراخان.

١٥- الإدارة الدينية لمسلمي مقاطعة روستوف، ومقرها مدينة روستوف، ويرأسها المفتي (جعفر بكمايف).

١٦- الإدارة الدينـــية لمســـلمي مقاطعة بيرم، ومقرها في بيرم، ورئيسها المفتي (مراد أحمدوف).

١٧- الإدارة الدينـــية لمســـلمي مقاطعة بينزا، ومقرها في بينزا، ورئيسها المفتي (عباس بيبرسوف).

١٨- الإدارة الدينية لمسلمي مقاطعة تشيلابنسك، ومقرها في تشيلابنسك، رئيسها المفتي (ألبرت شاكاياف).

١٩- الإدارة الدينـــية لمسلمي جمهورية داغستان، ومقرها في محج قلعة، ورئيسها (أحمد عبداللايف).

٢٠- الإدارة الدينـــية لمســـلمي جمهوريـــة قبرداي- بلقاريا، ومقرها في نالتشك، ورئيسها المفتي (شفيق بيشخاتشيف).

٢١- الإدارة الدينـــية لمسلمي جمهورية قراشاي- شركيسيا وإقليم ستافروبل، ومقرها في ستافروبول، ورئيسها المفتي (إسماعيل بيرديبف).

٢٢- الإدارة الدينـــية لمسلمي جمهورية الإنغوش، ومقرها في (نزران) ورئيسها المفتي (محمد عثمان البوغاتشييف).

٢٣- الإدارة الدينـــية لمسلمي جمهورية الشيشان، ومقرها في (غروزني) ورئيسها المفتي (حاج أحمد شامايف).

٢٤- الإدارة الدينـــية لمســـلمي جمهوريـــة (إديغيا) وإقليم (كراسنودار)، ومقرها في (مايكوب)، ورئيسها المفتي (أرسلان يفتيخوف).

٢٥- الإدارة الدينـــية لمســـلمي جمهوريـــة (تشوفاشـــيا) ومقرها مدينة (تشيبوكساري)، ورئيسها الشيخ (مراد أرخيبوف).

٢٦- الإدارة الدينية لمسلمي مقاطعة (أورنبورغ)، مقرها مدينة (بوغورسلان)، ورئيسها المفتي (إسماعيل شنغرييف).

٢٧- الإدارة الدينية لمسلمي (أوسيتيا الشمالي)، ومقرها بلدة (تشيكولا)، ورئيسها المفتي (جانخوت حق اللايف).

٢٨- الإدارة الدينية لمسلمي جمهورية (قلميقيا)، ومقرها بلدة (خالمغ تانغتيش)، ورئيسها (شامل عمر حجييف).

٢٩- الإدارة الدينية لمسلمي جمهورية (كومي)، ومقرها في (أوسينسك)، ورئيسها المفتي (فاينير عياضيوف).

٣٠- جمعية الطريق القويم، ومقرها (موسكو) ورئيسها (علي فياتشيسلاف بولوسين).

٣١- جمعية (الهلال)، ومقرها (موسكو)، ورئيسها (رشيد عبدالجبار بايزيدوف).

٣٢- الجمعية الإسلامية في (إركوتسك)، ومقرها في (إركوتسك)، ورئيسها (نور محمد محمدشين).

٣٣- الجمعية الإسلامية في (فلاديفستوك)، ورئيسها (ماغروبوف).

٣٤- المنتدى الإسلامي، ومقره (موسكو)، ورئيسه (محمد صلاح الدين).

٣٥- الجمعية الإسلامية في جمهورية (مولدوفيا)، ومقرها في (سارانسك)، ورئيسها (علي كيتايف).

٣٦- الجمعية الإسلامية في (برناؤول)، ومقرها في مدينة (برناؤول)، ورئيسها (لطيفوف).

٣٧- الحزب الإسلامي الروسي، ومقره (موسكو)، ورئيسه (محمد رجبوف).

٣٨- جمعية (النور) الإسلامية، ومقرها موسكو.

إن غالبية المنظمات الدينية في روسيا بعيدة عن الأيديولوجيات المتشددة، لكن توجد شخصيات تتهمها السلطات بالتطرف منهم (نادر شاه خاتشيلايف) رئيس اتحاد مسلمي روسيا السابق المتهم بكونه (وهابياً)، والشيخ (عبدالله صفا) مفتي تتارستان السابق المتهم بالتطرف القومي، ويتسابق رؤساء بعض الإدارات الدينية في إعلان الولاء للسلطات من أجل كسب دعمها في إدارة شؤونها اليومية وتمويلها، وعملياً لم تقم السلطات بتسجيل أية منظمة يشك في كونها تميل إلى الاتجاهات المتطرفة.

يتولى جهاز الأمن الاتحادي والنيابة العامة الروسية ووزارة شؤون القوميات- التي حلت مؤخراً- عادة مهمة مراقبة نشاط المنظمات الدينية التي يعتقد بأنها تضم شخصيات متطرفة، وخلال الأشهر الأخيرة جرت تحريات في مقرات العديد من المنظمات الإسلامية والتحقيق مع المسؤولين فيها، وأحياناً يتم ذلك بأسلوب غير مهذب يرافقه توجيه الإهانات ومصادرة الوثائق والسجلات، إلا أن المسؤولين في الكرملين تدخلوا وقدموا الاعتذار عن ذلك ووعدوا بعدم تكرار هذا مستقبلاً، ومع ذلك فإن بعض المنظمات التي تمارس نشاطها في مجال التوعية الإسلامية وتحصل على مساعدات من منظمات أجنبية تبقى موضع شك من قبل سلطات الأمن التي تحاول إدخال عملائها فيها، وقد قامت إدارة الأمن خلال الفترة الأخيرة بمطالبة المنظمات الدينية بفتح حسابات في البنوك وتقييد حساباتها في السجلات، ويتعرض من لا يقوم بذلك لسحب

الرخصـــة، وتسعى السلطات من خلال هذا الأجراء لمراقبة التمويل الذي يأتي لتلك المنظمات الدينية من الخارج.

تـــبدي السلطات الروسية عموماً شكوكها بصدد نشاط جميع الهيئات الدينـــية والإغاثـــة الأجنبـــية العاملة في (روسيا)، ويرتبط ذلك بالاحداث الشيشـــانية وبظهور خطر الحركات الإسلامية المسلحة في آسيا الوسطى، ولهذا السبب توضع العراقيل أمام نشاط جميع الهيئات المذكورة، مما أدى إلى توقف نشاطها خلال الفترة الأخيرة حتى لو كان في مجال نشر الفكر الإســـلامي الصـــحيح والتوعية وإصدار الكتب والمطبوعات الإسلامية، وتقـــوم الصحافة الخاضعة لسيطرة العناصر اليهودية على التشيهر بمثل هذه المنظمات ونشاطها في روسيا.

الفهرس